





المَجْمُوعَةُ السَّادِسَةُ

تأليف الشيخ:
عبد الله بن عبده العواضي


النور السافر
من
خطب المنابر

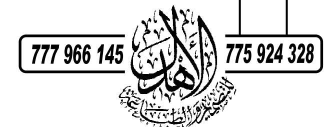
بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبْعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

النَّاشِر





إخراج فني وإلكتروني:
هشام بن حسين الأهدل







المجموعة السادسة

تأليف الشيخ:

عبد الله بن عبده العواضي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الجمعةَ نوراً للمؤمنين، وسبيلاً للمستبصرين، ومنطلَقًا للتائبين، وزادًا مباركًا للصالحين.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وليُّ الصالحين، وإله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين، ورحمته المرسلَة إلى العالمين، نبي النور والهدى، والرحمة والتقى، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين، وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين، وسلّم تسليما.

أما بعد:

فإن خطبة الجمعة مجمع إسلامي أسبوعي يتقاطر إليه المسلمون، ويلتقي فيه العابدون؛ ليصقلوا قلوبهم بعد أن غشاها غبارُ الحياة القاتم خلال أيام الأسبوع، ويَرووا أرواحهم من منهل الهدى بعد أن استنفدت تقلباتُ العيش اليومي نَميرَ ما لديهم، ويتزودوا بشحنة إيمانية جديدة بعد أن أفرغها ضعف النفس البشرية في معترك الحياة المختلفة.

إن تلك اللحظات القليلة التي يقف فيه الخطيب متكلمًا، ويجلس فيها الحاضر مصغيًا هي موعد مقدس شرعه الله تعالى لتصحيح المسار، ومراجعة النفس، وتغذية الروح والقلب، وتبصيراً للمسلم في دروب حياته الدنيا، وملتقى يرى فيه المسلم أخاه المسلم ليجدد معه عهود المحبة، ويقوي فيه عروة الأخوّة، وينمِّي لديه في ذلك اللقاء المبارك أسبابَ الألفة والاجتماع.

وليس موعداً عابراً يقف فيه المتكلم دقائق يلقي فيها جملاً ينفر بعضها من بعض، ويهدم آخرها أولها، أو يمليها كمذيع الأخبار ليس له فيها عمل إلا القراءة بلا شعور منه يصاحبها، ولا أثر في ملامحه يظهر منها، ولا قناعة تامة ينطلق منها ليقنع بها.

وليس موعداً عابراً كذلك يجلس فيه السامع زمنًا دون أن يكون له قصد صالح لحضوره، ولا هدف واضح جاء لأجله.

فما لهذا وذاك شرعت خطبة الجمعة، بل شرعت لتكون منبعًا للفائدة والموعظة، لينطلق منها المتكلم والسامع إلى ميدان العمل، وامتثال نصوص الهداية في واقع الحياة.

فلهذا أدعو كل خطيب يريد الخير لنفسه في العاجل والآجل من وراء خطبته إلى ثلاث:

الأولى: العناية الكبيرة بتنمية ذاته علميًا وثقافيًا، وأن لا يقنع بما لديه من رصيد معرفي؛ فإن الخطيب الحريص على الاستزادة العلمية يظهر ذلك عليه من خطبته.

الثانية: الاهتمام الكثير بخطبة الجمعة من حيث حسن القصد القلبي، والإعداد العلمي، والتوافق الزمني، والأداء المؤثر أثناء الإلقاء.

الثالثة: الهدي الصالح، وحسن السيرة، والعمل بما يدعو الناس إليه من فوق منبره؛ فإن لذلك أثراً كبيراً في قَبول كلامه، وإصغاء الناس له، والاستجابة لما يدعوهم إليه، والناس ينظرون إلى واقع الخطيب العملي قبل أن ينظروا إلى مقامه خطيبًا.

وبالمقابل أدعو الحاضرين خطبةَ الجمعة إلى ثلاث أيضًا:

الأولى: حسن الاستعداد لحضور تلك الموعظة، وذلك بالتبكير لها، وتهيئة القلب لاستقبال ما يقال فيها، وإبعاد الشواغل التي تلهي عن الاستفادة منها.

الثانية: تبييت النية للعمل بما سيسمع ويدعى إليه من صالح الأفعال والأقوال، وأن لا يكون حضوره لمجرد الاستماع دون أن يترتب على ذلك امتثال للأوامر الشرعية التي يُندب إليها، واجتناب المناهي التي يحذر من قربانها.

الثالثة: رجوعه إلى الخطيب فيما أشكل عليه من كلامه، وسؤاله له عما يجهل مما يتعلق بخطبته، واسترشاده به في أعمال لها ارتباط بموضوعه إن كان لديه فيها تردد أو قلة معرفة.

وبعد:

فهذه هي المجموعة السادسة من سلسلة خطب **"النور السائر من خطب المنابر"** التي ألقيتها مِن على منبر " جامع ابن الأمير الصنعاني" رحمه الله تعالى، تخرج في نظام واحد للقراء الفضلاء من خطباء وغيرهم، بعد أن نُشرت مفرقةً في بعض المواقع الإلكترونية، ووسائل التواصل الاجتماعي.

يُرجى بها الأجر والنفع، بذلت فيها وسعي في الاختيار والجمع والصياغة والبيان، راجيًا من المولى الكريم أن يتقبلها بقبول حسن، وأن ينفع بها من يشاء من عباده، إنه جواد كريم.

وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

عبد الله بن عبده العواضي

الخطيب والإمام بجامع ابن الأمير الصنعاني

٢٩/ ٧/ ١٤٤١هـ- ٢٤/ ٣/ ٢٠٢٠م.

قصة الخليل إبراهيم وشيءٌ من عِبَرها

الجزء الأول (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن الإنسان ميّال بطبعه إلى الاقتداء بالآخرين، والأخذ من صفات المعظَّمين في نفسه، المحبوبين إلى قلبه، حينما يجد منهم خِلالاً يستحسنها، وأعمالاً طيبة يحبها؛ ولهذا كان الاقتداء طريقًا من طرق الهداية أو الضلال؛ ولأجل ذلك حذر الله

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٩/١١/١٤٤٠هـ، ١٢/٧/٢٠١٩م.

تعالى من الاقتداء بالضالين، وبيَّن مآلهم ومآل من تبعهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٧].

وأمر الله تبارك وتعالى بالاقتداء بالمهتدين فقال-بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًا-: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[الأنعام:٩٠]. وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خصوصًا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

ومن هنا نقول: على كل إنسان يريد السلامة في الدنيا والآخرة أن يكون اقتداؤه بأهل الصلاح والتقوى-خاصة من مات منهم-، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

عباد الله، إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى ذكر لنا من قصص الأنبياء وأخبارهم وصفاتهم، والثناء عليهم بما امتازوا به من أعمال حسنة، وصفات صالحة؛ ما فيه مادة غنية كافية في باب الأسوة الحسنة. فحري بمن أراد الاهتداء أن يسلك طريق الاقتداء بأولئك الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقد كان من أولئك النبيين الذي أثنى الله عليهم في القرآن، وجعلهم مثلاً للاقتداء، بما ذكر من نعوتهم الحسنة، وأعمالهم الطيبة: خليلُ الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ فقد ورد فيه آيات كثيرة في سور متعددة، سنقتصر في هذه الخطبة على ذكر تعريف به عليه السلام، وبيان صفاته، والتعريف بأسرته، وثناء الله عليه، وبيان

بعض العظات والعِبر من ذلك.

أيها المسلمون، إبراهيم –كما قال بعض أهل العلم– هو اسم قديم ليس بعربي، بل هو اسم سُرياني معناه: أب رحيم، وقيل: مشتق من البرهمة وهي شدة النظر. وهو ابن آزَرْ، ويصل نسبه إلى سام بن نوح(١). وأبوه آزر بقي على دين قومه وأبى أن يسلم، وقد دعاه إبراهيم فلم يستجب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤].

وكان أزر قد وعد إبراهيم بالإيمان، فكان إبراهيم يستغفر له، فلما تبين له عدم إيمان أبيه وأنه سيموت كافراً ترك الاستغفار له، وتبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤].

وقد وُلِد إبراهيم عليه السلام في أرض الكلدانيين في بابل من بلاد العراق، وخرج عنها مع أبيه إلى حوران، ثم هجر قومه فتنقل بين بيت المقدس ومصر والحجاز(٢).

وتزوج بسارة وقدم بها مصر لجلب الطعام، وكانت سارة من أجمل النساء، فوشِي بحسنها إلى ملك تلك البلاد، فأراد انتزاعها من إبراهيم فكفَّ اللهُ يدَ الفاجر عنها، وأعطاها خادمًا لها وهي هاجر(٣).

فخرج إبراهيم عليه السلام بأهله من مصر، ولكنه قد ظل مدة طويلة لا يولد له، فقد كانت زوجه سارة عقيمًا، فلما أُهديت لها هاجر أهدتها لزوجها إبراهيم، فولدت

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/٦٩).

(٢) ينظر: قصص الأنبياء (١/١٦٨).

(٣) ينظر حديث أبي هريرة في ذلك في الصحيحين.

هاجرُ إسماعيلَ عليه السلام، فكان بذلك بشارة عظيمة لإبراهيم بعد طول انتظار، فقد جاءه بِكرُه إسماعيل وعُمْرُ الخليل عليه السلام آنذاك ستٌّ وثمانون سنة(١). وقد حمد الخليل ربَّه على هذه النعمة التي جاءته بعد كبر فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[إبراهيم:٣٩]. وكان ذلك مكافأة من الله تعالى له حينما هجر وطنه وقومه وعشيرته من أجله، فأبدله الله أرضًا خيراً من أرضه، ووهب له بدل أهله من البنين نسلاً صالحًا وذرية مباركة جعل فيها النبوة والكتاب.

وكان لإسماعيل موقع عظيم في قلب أبيه، فأراد الله أن يختبر إبراهيم هل زاحم حبُّه إسماعيلَ حبَّه تعالى؟ فأمره بذبحه، فلما سارع إبراهيم إلى تنفيذ أمر ربه دون تردد فدى اللهُ إسماعيلَ بكبش عظيم وأبقى لإبراهيم وحيدَه حيًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ* فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات:٩٩-١١١].

ومرت سنونَ وما زالت سارة على عقمها، وهي مشتاقة إلى ولد منها، فلما رأى تعالى شوقها وصبرها وإيمانها بشرها بولادة إسحاق- وقد كان بين إسماعيل وإسحاق ثلاث عشرة سنة-، وزادها الله مع زوجها إبراهيم في البشارة مجيءَ يعقوب من إسحاق، فهي بشارة بالابن والحفيد في وقت واحد، وهي بشارة كذلك بحياة إسحاق

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٧).

حتى يتزوج ويولد له.

قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[هود:٧١-٧٣]. **قال بعض المفسرين:** " أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده؛ فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يُتوهم أنه لا يَعْقب؛ لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب"، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، عَزَّ وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صُلبه على دينه، لتقرَّ بهم عينُه"[(١)]؛ ولهذا تكونت من ذرية إبراهيم عليه السلام أمم وشعوب، فكان هو الأبَ الثالث للعالَم -كما قيل- بعد آدم ونوح، بل لم يأت نبي بعده إلا من ذريته، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[العنكبوت:٢٧]. " فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه"[(٢)].

عباد الله، لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف خِلْقة أبيه إبراهيم: أنه كان رجلاً طويلاً بائن الطول، وأن أشبه الناس به في صورته نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٠٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتاني الليلة آتيان؛ فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم)(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: (أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم)(٢) يعني: نفسه صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم)(٣).

قال بعض العلماء: " إبراهيم أول من اختتن، ولم يزل ذلك سُنةً عامة معمولاً بها في ذريته وأهل الأديان المنتمين إلى دينه. وهو حكم التوراة على بني إسرائيل كلهم، ولم تزل أنبياء بني إسرائيل يختتنون حتى عيسى صلى الله عليه وسلم "(٤).

أيها المسلمون، لقد اصطفى الله تعالى إبراهيم لنبوته، فجعله حاملاً لرسالته إلى خلقه، بعد أن ألهمه الحقَّ والهدى من صغره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء:٥١]، **وقال:** ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

وكلفه سبحانه وتعالى" بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا"(٥)، كما **قال تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) تفسير ابن كثير (١/٤٤٦).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩/١٤).

[البقرة:١٣١]. وأمره تبارك وتعالى بالقيام بتكاليف وأوامر عديدة فقام بها خير قيام؛ فلذلك قال تعالى عنه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[النجم:٣٧]، وقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾[البقرة:١٢٤].

إن الخليل عليه السلام حينما وصل إلى تلك الدرجة السامية من التوحيد وكمال الطاعة فقد جعله الله تعالى إمامًا للناس في الخير يقتدون به، وجعل ما عليه من الدين هو الملة التي أمر باتباعها؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قد " جَرَّد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرَّأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه "(١).

فقال تعالى في إعطائه وسام الإمامة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة:١٢٤].

وذكر تعالى أن من عدل عن هذه الملة الإبراهيمية -بعد أن بيّن الله صلاحها وأثنى على إمامها- فإن ذلك المائل عنها جاهل أهان نفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠].

وقال تعالى آمراً باتباعه، ومبينًا سلامة معتقده وطريقه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٣].

وذكر الله أن أحسن الدِّين هو الانقياد التام لله تعالى مع الإحسان في ذلك واتباع ملة إبراهيم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النساء:١٢٥].

لقد كان المشركون وأهل الكتاب يَدَّعون أنهم على ملة إبراهيم فكذّبهم الله جميعًا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٤٥).

بسبب شركهم وكفرهم، وبيّن أن أتباعه على الحقيقة هم نبينا محمد والذين آمنوا فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٦٥-٦٨]، وهذا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يعلمه الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦١]، وكان هذا رداً على المشركين.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)(١).

عباد الله، إن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام نال نصيبًا وافراً من ثناء الله عليه؛ جزاء لتمام انقياده وتسليمه، وكمال توحيده وإيمانه، وحسن قيامه **بأوامر ربه:**

فأثنى عليه بإتمام طاعته، ووفائه بحق عبادته فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة:١٢٤]، **وقال:** ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[النجم:٣٧].

ووصفه تعالى بحسن إكرام الضيف: برد السلام، وتقديم أحسن الطعام، والمسارعة إلى ذلك الإكرام **فقال:** ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ

(١) رواه أحمد ومسلم.

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود:٦٩-٧٠]. **وقال** في الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾[الذاريات:٢٦-٢٧].

وأثنى عليه بكثرة الحلم والتضرع والتوبة إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[هود:٧٥].

ووصفه بسلامة قلبه من كل اعتقاد باطل وخُلق سيء، فقال:﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤].

ونعته بكونه إمامًا في الخير، موحداً لله غير مشرك به، كثيرَ الطاعة والشكر لله على نعمه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾[النحل:١٢٠-١٢١].

أيها الأحبة الفضلاء، إن الله تعالى شكور كريم، يكافئ عبدَه الصالح على صلاحه في دنياه وآخرته؛ مكافأة حسية، ومكافأة معنوية، فإبراهيم عليه السلام لما صار إلى المنزلة العالية من تمام الانقياد والقيام بكل به ما أمر ربُّه أوصله الله إلى درجة الخُلَّة -وهي أعلى درجات المحبة-، فأحبه الله حبًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:١٢٥].

عن عمرو بن ميمون: أن معاذاً رضي الله عنه لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:١٢٥]. فقال رجل من القوم: لقد قرَّتْ عينُ أُمِّ إبراهيم[١].

وأثاب الله إبراهيمَ أيضًا بالثناء الحسن عليه في الآخِرين، وبجعله قدوةً صالحة

(١) رواه البخاري.

للناس، وأعطاه كذلك بقاء النبوة في ذريته الصالحين من بعده حتى نبينا محمد، كما جعله في الآخرة من أهل المنازل العالية، وإذا جاءت القيامة يكون أول من يُكسى من الناس. قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[النحل:١٢٢]، وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[العنكبوت:٢٧]، وقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[الشعراء:٨٤]... ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخ[(١)] متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار)[(٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول من يُكسى يوم القيامة: إبراهيم)[(٣)].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ غنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) الذيخ: الضبع.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه المستكملين الشَّرَفا، **أما بعد:**

أيها المسلمون، من هذه السيرة العطرة لخليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام عرفنا عظم مكانته في الدنيا والآخرة، وذلك حينما قام بحق العبودية لله وحده حق القيام.

فمن أراد لنفسه صلاح الدنيا والآخرة فليقم بطاعة الله كما أحب الله منه، ومن زرع خيراً في هذه الحياة ابتغاء وجه الله نال جَناه في حياته وبعد مماته.

وفي هذه السيرة النضرة تبين لنا جليًا أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه، فمن قدم مرضاة الله على شهوات نفسه أعطاه الله كِفاءَ ذلك ثوابًا عاجلاً وثوابًا آجلاً.

وأن البيئات والأقارب إذا كانوا حائلاً بين المؤمن وطاعة الله وتوحيده، فالمفارقة إلى أرض التوحيد، ورفقاء الطاعة هو سبيل النجاة.

وأن البلاء الذي يرافقه صبرُ صاحبه واحتسابه ذلك عند الله يعقب فرجًا وتيسيراً ونِعمًا متتابعة.

وأن المكروه الملازم للمرء لا يجعل صاحب الإيمان ييأس من تغير الأحوال بذهاب المكروهات وحصول المحبوبات.

وأن على الرجل إذا كانت زوجته عقيمًا أن يصبر عليها، ولا مانع أن يتزوج أخرى، وتعينه زوجته الأولى على ذلك، بل لعل إعانتها له على ذلك تكون سببًا لحملها

أيضًا، فيسعدها الله بالولد كما أسعدت زوجها بإعانتها له.

عباد الله، على المؤمن أن يكون قلبه سليمًا من مزاحمة محبوباته لحب الله وما يحبه الله، فيقدم رضا مولاه على رضاه.

وعلى المسلم أن يتصف بالصفات الحميدة، والخِلال الكريمة، وأن يكون انقياده لشرع الله انقياداً كاملاً، لا انقياداً انتقائيًا حسب الأهواء والشهوات.

وأن يحرص على أن يكون قدوة حسنة لمن بعده، وأن يبقي له بعد موته ما يستحق عليه الثناء والدعاء من أهل الخير والصلاح.

وعلينا –معشر المسلمين– أن نعلم أن الخيرات للمؤمن قد تأتي متأخرة، وربما تجيء في أواخر مراحل العمر، فليتفاءل الإنسان ما دامت الحياة.

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، ويعيننا على تمام الانقياد لشرعه، وكمال القيام بطاعته.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

قصة الخليل إبراهيم وشيءٌ من عِبَرها

الجزء الثاني (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، تناولنا في خطبة ماضية الحديثَ عن الخليل إبراهيم عليه السلام، وتحدثنا في تلك الخطبة عن الجانب الشخصي من حياته عليه السلام؛ فبيَّنا التعريفَ به، وبأُسرته، وبيان مكانته وثناءَ الله عليه، وذِكرَ بعض العظات والعبر من ذلك.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٣/١١/١٤٤٠هـ، ٢٦/٧/٢٠١٩م.

واليوم سنتحدث-بعون الله تعالى-عن الجانب الدعوي في قصة إبراهيم عليه السلام؛ فقد ذكر الله تعالى أكثر الآيات المتحدثة عن خليله في هذا الجانب.

عباد الله، إن الدعوة إلى الله هي المهمة التي بعث الله تعالى لأجلها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ليعرف الناسُ بها طريقَ الحق فيسلكوه، وطريق الباطل فيتنكبوه.

فمضى الأنبياء والرسل في دعوة الناس مبشرين ومنذرين، وكان من بينهم الخليل إبراهيم عليه السلام؛ فقد دعا أباه، ووصى ذريته، ودعا قومه المشركين عبدة الأصنام في بابل، ودعا المشركين عبدة الكواكب حينما خرج عن بابل إلى أرض الفينيقيين في حوران من مدينة دمشق.

فبدأ نبي الله إبراهيم عليه السلام دعوته إلى توحيد الله بدعوة أبيه آزر الذي كان يعبد الأصنام مع قومه؛ فبيّن له الخليل أن عبادة الأصنام ضلال واضح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤]. وتلطف في دعوته له تلطفًا عظيمًا، وسلك معه سبيل الموعظة الحسنة فبين له أن الأصنام التي يعبدها مع قومه لا تستحق العبادة؛ لكونها عاجزة لا تنفع ولا تضر، وذكر له أن الله قد أعطاه-يعني إبراهيم- من العلم ما يستحق أن يتبعه أبوه ليهديه به إلى الحق، وأعلمه أن عبادة الأصنام هي عبادة للشيطان لكونه الداعي إلى ذلك، وزاد في حرصه على دعوته كونه يخاف عليه عذاب الله، ويخشى أن يكون قرين الشيطان في النار. لكن الأب المشرك لم يتقبل هذه الدعوة من إبراهيم إلا بالجفاء والوعيد، حيث توعد ولده الموحد النبي بالقتل رميًا بالحجارة إن لم ينته عن سب الأصنام، غير أن إبراهيم رد عليه رداً جميلاً بأنه لن يصل إليه منه مكروه، وسيدعو له بالهداية والمغفرة،

وقد دعا له، لكن لما تبين أنه عدو لله ترك الاستغفار له. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم:٤١-٤٨].

من هذه الآيات الكريمات يُستفاد: أن أولى الناس بدعوة الداعي إلى الحق أهلُه وذووه، لكن عليه أن يدعوهم باللطف وحسن الأسلوب، وأن يتحمل جفاءهم، وأن لا يصل إليهم منه مكروه، وأن يدعو لهم بالهداية والمغفرة.

وأنّ هجر البيئة الضالة مما ينبغي فعله، ولكن بعد دعوة أهلها، وظهور عدم استجابتهم، فالحفاظ على رأس المال أولى من الأرباح.

أيها الأحباب، وبعد أن هجر إبراهيم أرضه وقومه وأهله وهبَ اللهُ له الذريةَ الصالحة؛ لتكون عوضًا عن أهله الذين فارقهم من أجل الله، فرزقه الله إسماعيل وإسحاق ومن جاء من نسلهما من الصالحين.

وقد كان من دعوة إبراهيم لذريته أن أوصاهم بلزوم ملة الإسلام وكلمة التوحيد، وتمام الاستسلام والانقياد لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ

آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢-١٣٣].

فإبراهيم وأبناؤه" لحرصهم [على ملة الإسلام] ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم"(١). قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٨].

وهذا يعلمنا أن نلزم الانقياد التام لله تعالى، ونوصي أولادنا أن يكونوا كذلك.

ونتعلم من الآيات: أن على الآباء أن يحرصوا على وصية أولادهم بما يضمن استمرارهم على جادة الحق، و" لما كان من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم؛ كان من مكملات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متَّبَعًا مشهوراً، فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خَلَفًا عنهم في الناس بأن لا يحيدوا عن طريق الحق، ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه؛ فإن حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان، فكان لذلك أمراً نفيسًا يجدر أن يحتفظ به"(٢).

أيها المسلمون، لقد اتجه إبراهيم عليه السلام- بعد دعوة أبيه- إلى دعوة قومه المشركين، وقد واجه خليل الرحمن ثلاثةَ أصناف من المشركين: صنف يعبدون الأصنام، وهم أهل بابل، وصنف يدعي الربوبية، وهو نمرود ملك بابل، وصنف يعبدون الكواكب، وهم أهل حوران في دمشق.

وكان من توفيق الله تعالى لإبراهيم أن أعطاه قوة الحجة، وحسن المناظرة، ومعرفة البراهين العقلية التي احتج بها على خصومه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/٧٠٧).

إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٨٣].

فمضى إبراهيم عليه السلام إلى الصنف الأول عبدةِ الأصنام ليقيم عليهم الحجة ببطلان عبادة تلك المعبودات الزائفة، **وقد سلك في مهمته هذه عدة طرق:**

الأولى: توجيه السؤال إليهم، وهو تمهيد بين يدي المناظرة، وقد أراد به سماع جوابهم عن اعتقادهم، ومن ثَم يتنقل لإبطاله بالحجج والبراهين. ففي سورة الأنبياء قال لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢]، فكان جوابهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء:٥٣]، فاحتجوا على عبادتهم لها بالتقليد الأعمى للآباء، " وجاءوا في جوابه بما توهموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق "(١).

وفي سورة الشعراء قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾[الشعراء:٧٠]. فكان جوابهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[الشعراء:٧١]، فبينوا بهذا الجواب شدة تعلقهم بها باستمرارهم في عبادتها، وعكوفهم عندها. وفي هذا بيان قوة تعلق أهل الباطل بباطلهم.

وأما في سورة الصافات فابتدأهم بسؤال مردَف بسؤالين آخرين، غير منتظر منهم الجواب؛ لأنه أراد الإنكار عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:٨٥-٨٧].

الطريقة الثانية: الحكم عليهم بالضلال، وتسفيه أحلامهم ومعبوداتهم الباطلة، فإنه حينما سمع جوابهم بأنهم يقلدون آباءهم في ذلك قال لهم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الأنبياء:٥٤]، ولما اعترفوا له بكون أصنامهم عاجزة عن النطق

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/٦٩).

قال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٦٦-٦٧].

الطريقة الثالثة: بيان عيوب تلك المعبودات الباطلة، وأنها بتلك النقائص لا تستحق العبادة، فأصنامهم لا تنفع ولا تضر، فلذلك قال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ﴾[الأنبياء:٦٦]، وأخبرهم أن أصنامهم لا تسمعهم إذا دعوها، ولا تنفعهم إذا رجوها، فقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء:٧٢-٧٣]، وبيّن لهم أن أصنامهم لا تملك لعابديها رزقًا، وإنما يملكه الله وحده؛ فلذلك قال لهم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧]، وذكّرهم أن أصنامهم إنما صنعوها بأيديهم فكيف يصح أن تكون آلهة ويترك الله الذي خلقهم وما يعملون؟! فلذلك قال لهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٥-٩٦].

الطريقة الرابعة من طرق دعوة إبراهيم قومه عبدة الأصنام: بيان صفات الله المعبود الحق، التي بها وبغيرها استحق أن يكون ربًا وإلهًا للخلق، فقد بيّن لقومه المشركين بأن إلهه الذي يعبده ويدعوهم إلى عبادته هو ربهم ورب السماوات والأرض الذي خلقهن، فقال لهم: ﴿بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[الأنبياء:٥٦]. كما ذكر لهم أن المعبود الحق الذي يدعوهم إلى عبادته هو الذي خلقه، وهو الذي يطعمه ويسقيه بما سخر له في الأرض من أسباب ذلك، وهو الذي يشفيه إذا مرض، وهو الذي يميته ويحييه، وهو الذي يطمع في مغفرته. فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٧٨-٨٢].

وأخبرهم أيضًا بأن الله المعبود الحق هو الذي ينشئ الخلق من العدم ثم يعيده بعد فنائه، وأنه يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإليه يرجع الخلق للحساب، وأنه لا يفوته من يطلبه، وليس له من دونه ولي ولا نصير يخلصه، ومن كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعبد لا تلك المعبودات العاجزة، فقال لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[العنكبوت:١٩-٢٢].

الطريقة الخامسة: إعلان البراءة من الأصنام، وإبداء العداوة والبغضاء لها ولعابديها حتى يؤمنوا بالله وحده، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

الطريقة السادسة: تحطيم الأصنام؛ لبيان عجزها عن نصرة نفسها، فكيف ستدفع عنهم أو تنفعهم.

وقد استغل إبراهيم عليه السلام خلوَّ البلد من الناس حيث خرجوا ليوم عيد لهم، فأقبل على تلك الأصنام فكسرها إلا كبيرها؛ ليقيم عليهم الحجة به. فقد أسرع إبراهيم بعد خروج قومه إلى قبو أصنامهم فجعل يسألها مستهزئًا -والطعام أمامها-: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ﴾[الصافات:٩١-٩٢]. ثم انهال عليها تكسيراً وتحطيمًا حتى

جعلها قطعًا صغيرة، تاركًا كبيرها ليرجعوا إليه فيسألوه، **قال** تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[الصافات:٩٣]، **وقال** سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء:٥٨].

فماذا سيكون رد قومه المشركين، وكيف سيتعاملون مع هذا الفعل الذي لم يفعله أحد بمعبوداتهم قبل إبراهيم عليه السلام؟

لقد بلغهم الخبرُ فرجعوا مسرعين غاضبين فسألوا عن الفاعل فأُخبروا أنه إبراهيم، فطلبوا إحضاره أمام الناس ليشهدوا على اعترافه، وهذا ما أراده إبراهيم عليه السلام؛ حتى يقيم عليهم الحجة، ويبين عجز معبوداتهم الباطلة أمام الحاضرين أجمعين، فلما سألوه أحال الجواب على كبير الأصنام؛ لعلهم أن يعرفوا ضلالهم بعجز الصنم عن النطق، فصاروا في حيرة من أمرهم، ثم غلبهم شركهم فقالوا: إن صنمهم لا ينطق، وهنا وصل إبراهيم إلى غايته وهي كيف تسمح لكم عقولكم بعبادة شيء هذا شأنه من العجز؟!

قال تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٥٩-٦٧].

فلما عجزوا عن إجابة الحجة بالحجة لجأوا إلى استعمال الظلم والقوة، فأمروا بقتله حرقًا، حيث أوقدوا ناراً عظيمة في بنيان يستوعب ذلك الحطب، ثم رموا إبراهيم فيها،

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٩٧]، وقال: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:٦٨]، غير أن عناية الله كانت تنتظر خليل الرحمن فجعل الله تعالى له النار برداً وسلامًا فلم تحرق منه غير قيده، فخرج منها منصوراً ولم يستطيعوا أن يضروه بشيء بعد ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء:٦٩-٧٠].

عباد الله، وفي هذه الآيات من العبر: أن الحق يحتاج إلى إظهار حججه للناس، وتنويع طرق إقناعهم به، وأن الحق يقوى بقوة أهله الذين ينشرونه ويدافعون عنه، وأن الباطل لا يمتلك حجة تمكنه من صد دعوة الحق، ولكنه يلجأ إلى استعمال القوة فحسب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

أيها المسلمون، والصنف الثاني الذين دعاهم الخليل عليهم السلام إلى الله تعالى: صنف يدعي الربوبية، وهو النمرود ملك بابل، فقد ناظره إبراهيم مناظرة سريعة، أفحمته عن الاستمرار في جهله وحمقه، وبينت له قلة عقله. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨]. فقد أخبره إبراهيم في مجادلته إياه أن الله يحيي عباده من العدم ويعيدهم بعد الفناء، فقال الأحمق: إنه يميت بالقتل من يشاء، ويحييه بالعفو عنه إن شاء، وهذا تلبيس وتمويه لا يخفى على عاقل، فلم يقف إبراهيم عند هذه المغالطة طويلاً لوضوح عوارها، بل انتقل إلى حجة أخرى لا يمكن للطاغية أن يلبِّس فيها، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ "أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته. فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت فأتِ بها من المغرب: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تحير ودُهش وغُلِب بالحجة، لما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام"(١).

وهذه الآية تعلِّم الداعيةَ أسلوبًا من أساليب المناظرة مع المبطلين وهو البدء

(١) محاسن التأويل، القاسمي (٢/٣).

بتمهيد بين يدي المناظرة، والانتقال من حجة إلى حجة أخرى تفحم الخصم، وتختم بها المناظرة.

عباد الله، الصنف الثالث الذين دعاهم إبراهيم إلى توحيد الله هم: عبدة الكواكب، وهم أهل حوران في دمشق(١). فقد ناظرهم وبين لهم بطلان عبادة تلك الكواكب وأنها" لا تصلح للألوهية، ولا أن تُعبد مع الله عز وجل؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبَّرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب لذلك، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]"(٢). **قال** تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ

---

(١) قصص الأنبياء (١/١٦٨)(١/١٧٥).

(٢) قصص الأنبياء (١/١٧٤).

وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٧٥-٨٣].

إن إبراهيم عليه السلام في هذا المقام يناظر المشركين فهو في مقام مناظرة وليس في مقام نظر، وقوله في هذه الآيات الكوكب والقمر والشمس: " هذا ربي" ليس من باب الإقرار، بل هو من باب المجادلة ليثبت للناس بطلان عبادتها(١).

فإبراهيم عليه السلام إمام الموحدين، الذين نفى اللهُ عنه أن يكون من المشركين في جميع الزمن الماضي، فلا يليق بإمام الحنفاء أن يشك في ربه، ويذهب يبحث بين الكواكب عنه. وسياق الآيات يدل على أنها محاجة، وإثبات لوحدانية الله، ونفي استحقاق غيره للعبادة.

فيا أيها المسلمون، ليكن همُّ دين الله حاضراً في أذهاننا، فندعو إليه، وندافع عنه، ونحرص على العمل به وتعليمه، ومن كان لديه القدرة والعلم على مناظرة أهل الباطل لردهم إلى جادة الصواب فليفعل.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية....

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٨٩)، قصص الأنبياء (١/١٧٤)، أضواء البيان (١/٤٨٦).

قصة الخليل إبراهيم وشيءٌ من عِبَرها

الجزء الثالث (١).

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، تحدثنا في خطبتين سابقتين عن خليل الله إبراهيم عليه السلام، تناولنا في أولى الخطبتين الحديث عن الجانب الشخصي، وفي الخطبة الأخرى ذكرنا الجانب الدعوي من قصة هذا النبي الكريم.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١/١٢/١٤٤٠هـ، ٢/٨/٢٠١٩م.

واليوم-بعون الله-سنعيش معًا مع خليل الله إبراهيم وبنائه البيت الحرم.

بعد أن استقر إبراهيم عليه السلام في الشام مع سارة وهاجر، حملت هاجر بإسماعيل ثم وضعته، فأمر الله خليله عليه السلام أن يمضي بهاجر وإسماعيل رضيعًا إلى مكة المكرمة، فانطلق إلى هناك كما أمره ربه تعالى، فأنزلها في وادٍ غير ذي زرع، وتركها وحيدين ورجع هو إلى الشام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "...ثم جاء بها إبراهيم-يعني: هاجر- وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧]"(١).

وفي هذا الموقف نرى مدى التضحيات التي قدمها إبراهيم وهاجر وابنهما؛ فقد سارع الخليل عليه السلام إلى تنفيذ أمر الله بوضع زوجته ووحيده في مكان خال من الحياة والأحياء، ثم فارقهما إلى مكان بعيد.

---

(١) رواه البخاري.

وفي موقف هاجر الذي يشفُّ عن اليقين بحماية الله وكفايته ما يدعو إلى الثقة بالله، خصوصًا عند العمل مع الله والقيام بطاعته، فما أجمل تلك الكلمة، وما أبرد نَداها في تلك البقعة القاحلة الحارة: "إذن لا يضيعنا"!.

عباد الله، عاد إبراهيم عليه السلام من مكة إلى الشام لمواصلة ما كلفه الله به هناك، تاركًا خلفه في أم القرى هاجرَ وإسماعيل، اللذين سخّر الله لهما طيب العيش، وجيرانًا صالحين، فزالت عنهما بذلك الوحشة، ونزلت عليهما الطمأنينة والأُنس.

وكانت لإبراهيم زيارات متكررة لإسماعيل وأمِّه، حتى مرت الأيام فشبّ إسماعيل وتزوج من جُرهم، وماتت أمه هاجر رحمها الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما -بعد أن ذكر مفارقة إبراهيم لهاجر وإسماعيل-: "... وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى، أو قال: يتلبَّط[(١)]، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه - تريد نفسها -، ثم تسمّعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع

---

(١) يعني: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض وقيل: يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت.

زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينًا معيناً) قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن ها هنا بيتَ الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفًا -يعني: يتردد على الماء ويحوم -، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل "[١].

وفي هذه القطعة من خبر ابن عباس من العِبر: أن على المرء أن يسعى في طلب الرزق والبحث عن أسباب العيش وإزالة الآلام والمكاره ولا ينتظر في مكانه حتى

---

(١) رواه البخاري.

ينزل عليه رزقه ويحصل له زوال ألمه، وأن من سبق إلى مباح كان أولى به، وفي الخبر بيان شهامة هؤلاء الجرهميين الذين لم يتعدوا على هاجر ورضيعها ويسلبوهما حقهما، بل كانوا جيرانًا صالحين لهما، ومن هذا نتعلم حسن معاملة الضعفاء وخاصة النساء.

أيها الإخوة الفضلاء، فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال حان الوقت لتنفيذ المهمة العظيمة التي سيقوم بها مع أبيه الخليل، ألا وهي بناء البيت الحرام.

فقد رجع إبراهيم إلى مكة وأخبر إسماعيل بهذه المهمة المشتركة فوافقه عليها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " ثم جاء بعد ذلك -يعني إبراهيم- وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمر ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾"(١).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ

---

(١) رواه البخاري.

مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٥-١٢٩].

وفي هذه الآيات الكريمة وخبر ابن عباس: بيان عظم منزلة الكعبة المشرفة حيث صارت قبلة للناس يأتون إليها لعبادة الله تعالى وإدراك الأمان، وأضحت رمزاً لتوحيد الله تعالى، فلا ينبغي أن تكون مكانًا للإشراك به. غير أن الناس في الجاهلية حينما ضلوا عن التوحيد أدخلوا الأصنام إلى الكعبة، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة طهرها من تلك الأصنام، وأزالها عنها إلى الأبد، وجعل يقرأ في تلك اللحظة التاريخية قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيت، ورأى إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: (قاتلهم الله-يعني المشركين-، والله ما استقسما بالأزلام قط)(١).

وفيها أيضًا: يتجلى بر إسماعيل عليه السلام بأبيه، فيدعو ذلك كلَّ ابن أن يكون باراً بأبيه وعونًا له في الخير.

وفيها كذلك: أن المؤمن إذا عمل صالحًا فعليه أن يخلص لله فيه، وأن يدعو الله أن يقبله منه، وأن لا يكون واثقًا أن ذلك العمل الذي قدمه قد تم قبوله منه، فإبراهيم

---

(١) رواه البخاري.

وإسماعيل عملا هذا العمل الكبير ومع ذلك تضرعا إلى الله أن يبقله منهما.

وفي بناء البيت منقبة عظيمة لإبراهيم وأسرته، حتى لقد أضيفت هذه الأسرة الكريمة إلى البيت في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[هود:٧٣].

ولقد ظل ذكر إبراهيم وإسماعيل وهاجر حاضراً في أماكن وشعائر مرتبطة بالكعبة وأداء منسكي الحج والعمرة فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦-٩٧].

أيها المسلمون، وبعد أن أتم إبراهيم عليه السلام بناء البيت أمره الله تعالى أن ينادي الناس ليحجوا بيتَه العتيق، ويأتوا إليه من كل فج عميق؛ ليقيموا فيه شعائر هذا النسك، ويوحدوا الله ويعظموا حرماته، ويتقربوا إليه بذبح الهدايا ابتغاء وجهه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج:٢٦-٣٠].

وقد روي أن إبراهيم عليه السلام بعد هذا التكليف من الله تعالى قال: " يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قُبَيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: (لبيك اللّهم لبيك)[١].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤١٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن المتأمل في قصة بناء إبراهيم الخليل بيتَ الله الحرام يلاحظ أمراً جديراً بأن يلفت عناية المتأمل، ليقف عنده يسبر خبره، ويستلهم عِبره. هذا الأمر هو كثرة دعاء الخليل مع ابنه إسماعيل وهما يبنيان الكعبة، وكثرة دعوات إبراهيم عقب بنائه البيت.

وهذا يعلمنا درسًا عظيمًا في التقرب إلى الله تعالى بأي طاعة من الطاعات، هذا الدرس هو لزوم كثرة الدعاء أثناء العبادة وعقبها.

فما الدعوات التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل أثناء بناء البيت، وما الدعوات التي دعا بها إبراهيم بعد الفراغ من البناء؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٦-١٢٩].

فقد دعا إبراهيم وإسماعيل ثماني دعوات عند بناء الكعبة وهي: الدعوة بجعل مكة بلداً آمنًا، وبرزق أهلها من أصناف الثمرات، وبقبول العمل الصالح منهما، وبالثبات على الدين والانقياد لأحكامه، وببقاء دينهما في ذريتهما، وبتبصيرهما كيفية أداء مناسك الحج، وبالتجاوز عن الذنوب والتقصيرِ في هذا العمل الجليل، وبأن يبعث الله رسولاً من الأمة المسلمة من ذريتهما.

وقد استجاب الله تعالى لخليله إبراهيم فجعل مكة بلداً آمنًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت:٦٧]. ورزق أهلها من أصناف الثمرات فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[القصص:٥٧].

وبعث من ذريته محمداً عليه الصلاة والسلام نبيًا ورسولاً لهذه الأمة فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الجمعة:٢].

وأما الدعوات التي دعا بها إبراهيم بعد بناء البيت فقد قال تعالى عنها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الْحِسَابُ﴾[إبراهيم:٣٥-٤١].

وهذه الدعوات ممزوجة بالتضرع والشكر، وهي ست دعوات خاصة وعامة، وهي: تكرار دعوته السابقة بجعل مكة بلداً آمنًا، والدعوة بإبعاد إبراهيم وأبنائه عن عبادة الأصنام-وإذا كان إمام الحنفاء يخشى على نفسه الشرك فكيف غيره!- والدعوة الثالثة: أن تحن قلوب بعض خلق الله إلى أهل البيت شوقًا ووداداً، وأن يرزقهم من أنواع الثمرات، والدعوات: الرابعة والخامسة والسادسة: أن يوفقه الله وذريته للمداومة على إقامة الصلاة، وأن يتقبل منه دعاءه، وأن يغفر له ولذريته ولوالديه وللمؤمنين الذنوب يوم القيامة. قال بعض أهل العلم في سبب استغفاره لوالديه: "إنما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم، وقيل: إن أمه أسلمت فدعا لها، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء"[(١)]، والله أعلم.

فيا أيها المسلمون، ألا فلنقتدِ بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في الانقياد الكامل لشرع الله، والتضحيات العظيمة من أجل دين الله، والثقة الكبيرة بالله خصوصًا إذا كنا في عمل من أجله. ولنتأسَ به في بر الوالدين، وإخلاص العمل الصالح، وهضم النفس عند القيام بالأعمال الصالحة.

ولنقتدِ به -عليه السلام- في كثرة الدعاء بصلاح حال المكان الذي نعيش فيه- أمنًا وغذاءً-، وفي الدعاء بقبول العمل الصالح، والثبات على دين الله، ومعرفة أحكامه وآدابه.

ولنتأسَ به -عليه السلام- في الدعاء بالبعد عن الشرك ووسائله، والدعاء للنفس

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ٥٠).

والذرية بالاستمرار على طاعة الله، وغفران الذنوب، وقبول الدعاء.

ولنقتدِ به -عليه الصلاة والسلام- في الدعاء للآخرين بخيري الدنيا والآخرة، ابتداء من الدعاء للوالدين والأولاد، ثم الدعاء لسائر المؤمنين.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين الثابتين على دينه، المضحين من أجله، الواثقين به، كما نسأله جل وعلا لنا ولوالدينا ولإخواننا المؤمنين أن يعطينا وإياهم خيراً مما نرجو، وأن يؤمننا شراً مما نخاف، وأن يغفر لنا ولهم جميع ذنوبنا يوم يقوم الحساب.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

آداب الدّين وأحكامه(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، يعيش الإنسان في هذه الدنيا وعلى كاهله يحمل أعباء الحياة ومطالبها الثقال، ويصعب عليه أو قد يستحيل أن ينفك عنها دون أن يحتاج إلى عونِ سواه، فالإنسان مدني بطبعه يعيش مع غيره يعطي ويأخذ، فتتم الحياة بتضافر جهود أهلها،

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في ١٨/ ١٠/ ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩/٦/٢١م.

وتكميل بعضهم بعضًا، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، رعية ورعاة، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف:٣٢].

قال الشاعر:

النـاسُ للنـاس مـن بـدوٍ وحـاضرةٍ   بعـضٌ لـبعضٍ – وإن لم يـشعروا – خَـدَمُ

عباد الله، إن حاجات أكثر الناس في عيشهم تفوق ما تملكه أيديهم وقدراتهم وقُواهم؛ فلذلك لا يملكون إلا أن يقترضوا من غيرهم؛ ليصلوا إلى قضاء تلك الحاجات. وبذلك غدا الدَّين أو الاقتراض أمراً ملازمًا للحياة الإنسانية غالبًا؛ ولهذا نجد لأحكام الدَّين حضوراً في كثير من الأبواب الفقهية؛ مثل أبواب: الزكاة، والحج، والنكاح، والبيع والشراء، والربا، والسَّلَم، والإجارة، والرهن، والصلح، وقسمة التركات، والحَجْر، وغير ذلك. بل إن أطول آية في القرآن الكريم وردت في الدَّين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ....﴾ الآية [البقرة:٢٨٢]. **وقد ذكر الله تعالى** في هذه الآية الكريمة الطويلة: توقيت الدين، والأمر بكتابته؛ حفظًا للمال ودفعًا للنزاع، وهذا على سبيل الاستحباب، كما ذكرت الآيةُ الحث على وجود كاتب للدين، ونهيَها لذلك الكاتب عن عدم الكتابة وهو قادر عليها، وأمرت المدين بإملاء ما عليه من الدَّيْن، ومراقبة ربه في ذلك، والنهيَ له عن الإنقاص من دينه شيئًا، وبيّنت أن المدين إذا كان محجورًا عليه لتبذيره وإسرافه، أو كان صغيرًا أو مجنونًا، أو لا يستطيع النطق لخرس به أو عدم قدرة كاملة على الكلام، فليتولَّ الإملاء عنه القائمُ بأمره. كما حثت على الشهادة على الدين وبينت صفات الشهود وماذا يجب عليهم، ونهتْ عن الملال من كتابة الدَّين قليلاً أو كثيرًا إلى وقته المعلوم؛

لأن هذا التوثيق للدين أعدل في شرع الله وهديه، وأعظم عونًا على إقامة الشهادة وأدائها، وأقرب إلى نفي الشك في جنس الدَّين وقدره وأجله. لكن إن كانت المسألة مسألة بيع وشراء، بأخذ سلعة ودفع ثمنها في الحال، فلا حاجة إلى الكتابة. كما نهت الآية الدائن والمدين عن الإضرار بالكُتَّاب والشهود، وحذرت من مخالفة أمر الله ونهيه في ذلك. ثم جاءت الآية التالية لها وتممت معناها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٣]. **وقد تضمنت هذه الآية** مشروعية وضع رهن من المدين لدى الدائن ضمانًا لحق الدائن، فإن كان بينهما ثقة فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن، ويبقى الدَّين أمانة في ذمَّة المدين، عليه أداؤه، وعليه أن يراقب الله فلا يخون صاحبه. فإن أنكر المدين ما عليه من دين، وكان هناك مَن حضر وشهد، فعليه أن يظهر شهادته، ومن أخفى هذه الشهادة فهو صاحب قلب غادر فاجر(١).

عباد الله، إن على المدين أن يعلم:

أولاً: أن أموال الناس معصومة، ولا تحل له إلا بحقها، وحرمتها كحرمة دمائهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[النساء:٢٩]، **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)(٢).

ولهذا كان أمرُ الدَّين عظيمًا، فلا يستهنْ المدين بالدين ولو كان قليلاً، وإن كان صاحبه

(١) استفيد بعض معاني الآيتين من: التفسير الميسر (٢٩٥-٢٩٦).

(٢) متفق عليه.

غنيًا، وقد جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يبين هذه العظمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبحان الله! ماذا أنزل الله من التشديد في الدَّين، والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قُتل في سبيل الله، ثم أحي، ثم قتل ثم أحي، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه)(١). **وقال** صلى الله عليه وسلم: (يغفر للشهيد كلُّ ذنب إلا الدين)(٢). فإذا كان هذا في حق الشهيد فكيف غيره؟! **وقال** عليه الصلاة والسلام: (نفس المؤمن معلّقة بدَينه حتى يُقضى عنه)(٣).

ثانيًا: أن يعلم المدين أن ذلك المال الذي استدانه أمانة في عنقه، يجب عليه أداؤها إلى أهلها، وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه من كتاب الاستقراض قائلاً: باب أداء الديون: وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾[النساء:٥٨](٤). **وإنما** "أدخل الدين في الأمانة لثبوت الأمر بأدائه؛ إذ المراد بالأمانة في الآية هو المراد بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وفسرت هناك بالأوامر والنواهي، فيدخل فيها جميع ما يتعلق بالذمة وما لا يتعلق"(٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[البقرة:٢٨٣]. "وقد أطلق هنا اسم الأمانة على الدَّين في الذمة وعلى الرهن؛ لتعظيم ذلك الحق؛ لأن اسم الأمانات له مهابة في

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم، وهو حسن.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

(٤) صحيح البخاري (٢/٨٤١).

(٥) قاله ابن المنير. فتح الباري (٥/٥٥).

النفوس، فذلك تحذير من عدم الوفاء به؛ لأنه لما سمي أمانة فعدم أدائه ينعكس خيانة؛ لأنها ضدها"[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبانِ قِطْريان غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثقلا عليه، فقدم بزٌّ من الشام لفلان اليهودي فقلت: لو بعثتَ إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه فقال: قد علمتُ ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذبَ، قد علم أني مِن أتقاهم لله، وأدّاهم للأمانة"[٢].

ثالثًا: أن يعلم المدين أن الدين همٌّ وغم وكدر من أكدار الحياة، وإذا كثر وطال أمده وكان وراءه غرماء مطالبون فقد يجر إلى عواقب لا تحمد عقباها. ولثقل الدين وشدته وغمه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ منه فيقول: (اللّٰهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل، والجبن والبخل وَضَلَعِ الدَّيْنِ وغلبة الرجال)[٣].

رابعًا: أن يعلم المدين أنه إذا استدان ومات ولم يؤد دينه وكان قادراً على أدائه، ولكنه لم يفعل؛- استهانةً بالدين، أو جحداً أو تناسيًا له، أو ظنًا بأن الدائن غير محتاج إليه لغناه-؛ فإن هذا المدين سيقضي الدائن يوم القيامة ولكن بالحسنات والسيئات، فيعطي من حسناته للدائن، ويأخذ على ظهره من سيئات المقرض. **قال** النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وعليه دين فليس ثَمَّ دينار ولا درهم، ولكنها الحسنات والسيئات)[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/١٢٢).

(٢) رواه الترمذي والنسائي، وهو صحيح.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الحاكم، وهو صحيح.

أيها الأحباب الفضلاء، إن على من أراد أن يقترض من غيره أن يبحث عن قرض حلال، فالقرض الحرام لا يجوز، ومن صوره المعاصرة: الاقتراض من البنوك الربوية، التي لا تقرض العميل حتى تربح من وراء إقراضها إياه، وهذا هو ربا الجاهلية، وكل قرض جر نفعًا فهو ربا، وكل ربا حرام.

ومن صور القرض المحرم أيضًا: أن يَعِدَ المدينُ الدائن بمصلحة على القرض، أو أن يشترط عليه الدائن منفعة أو مصلحةً ما جزاء إقراضه إياه فيوافق على ذلك؛ كأن يقول المدين: سلفني كذا وسأدفع لك من الزيادة على حقك كذا، أو يقول الدائن: سأقرضك بشرط أن تزيدني كذا، أو تعيرني كذا، أو تعمل لي كيت وكيت من المنافع، فهذا كله من المعاملة المحرمة في الدين، فلا يجوز للمسلم أخذ الدين بذلك.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "أتيت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال: ألا تجيء فأطعمك سويقًا وتمراً وتدخل في بيت، ثم قال: إنك بأرضٍ الربا بها فاشٍ، إذا كان لك على رجل حق فأهدى إليك حِمل تبن أو حِمل شعير أو حمل قتٍّ[١] فلا تأخذه؛ فإنه ربا"[٢].

أيها المسلمون: من الآداب المهمة التي على المدين أن يلزمها: أن يسارع في قضاء دينه، وأن لا يماطل في ذلك، ولا يتذرع بذرائع يُسر الدائن وعدم حاجته لدينه، ولا يستغل حياءه وطيبته ورحمته به، حتى يؤخر عنه حقه، فإن فعل ذلك فقد ظلم من أقرضه. **ففي** الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مطل الغني ظلم).

---

(١) **السويق:** طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق، **والقَتُّ:** الفِصْفِصَة وهي الرَّطْبة من عَلَف الدَّوابّ.

(٢) رواه البخاري.

وعليه أن يعلم أن مماطلته وجحوده حقَّ الدائن سبب لحصول المصائب عليه، فإن استلف وهو ناوٍ القضاء متى أيسر فإن الله يعينه على ذلك.

ففي صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله). فمعنى (أدى الله عنه) أي: يسر الله له ذلك بإعانته وتوسيع رزقه، ومعنى (أتلفه الله) يعني: أتلف أمواله في الدنيا بكثرة المحن والمغارم والمصائب ومحق البركة[(١)].

بل إن قوله: (أدى الله عنه) يمكن حمله على الآخرة أيضًا؛ فالمؤمن الذي اقترض وهو معترف بالحق لصاحبه وناوٍ قضاءه، ولكنه مات قبل القدرة على ذلك ولم يسامحه صاحب الحق؛ فإن الله سيقضي عنه يوم القيامة. ومن كانت عنده نية صادقة في القضاء أعانه الله على ذلك، **كما قال** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يُدَانُ، وَفِي نَفْسِهِ أَدَاؤُهُ إِلَّا كَانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ)[(٢)].

ومن الآداب: أن على المدين أن يسلك طريق حسن القضاء، ومن حسن القضاء: المسارعة إلى تسليم الحق، ومن حسن القضاء كذلك: الزيادة غير المشترطة على الدين، وإنما هي فضل من المدين؛ فإن ذلك جائز. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سنٌّ من الإبل -يعني: فجاء يتقاضاه فقال: (أعطوه). فطلبوا سِنَّه فلم يجدوا له إلا سنًا فوقها فقال: (أعطوه). فقال: أوفيتني أوفى الله بك. **وقال** النبي صلى الله عليه وسلم: (إن خياركم أحسنكم قضاء)[(٣)].

---

(١) فيض القدير (٦/٤١).

(٢) رواه أحمد، وهو حسن.

(٣) متفق عليه.

وعن عبد الله بن ربيعة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم استسلف منه حين غزا حنينًا ثلاثين أو أربعين ألفًا قضاها إياه، ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (بارك الله لك في أهلك ومالك؛ إنما جزاء السلف الوفاء والحمد)(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "كان لي على النبي صلى الله عليه وسلم دين فقضاني وزادني"(٢). وهذه نماذج مشرقة في حسن القضاء من نبينا عليه الصلاة والسلام.

ومن النماذج الوضّاءة عن غيره: ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأئتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللّٰهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بك وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال

(١) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

والصحيفة ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بالألف دينار راشداً).

ومن الآداب أيضًا: أن يخبر المدين ذويه بدينه، إذا لم يكن الدين معروفًا أو موثقًا، وخاصة إذا سافر المدين، أو بدت عليه علامات الموت كمرض، أو سلك مظان الموت كخوض حرب، ونحو ذلك.

عن جابر رضي الله عنه قال: (لما حضر أُحدٌ دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لا أترك بعدي أعز عليّ منك غير رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن علي دينًا فاقضِ واستوصِ بأخوتك خيراً)[1].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: "لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمت إلى جنبه فقال: يا بنيّ، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم[2]، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همي لَديني، أفترى دَيننا يبقي من مالنا شيئاً؟ فقال: يا بني، بع مالنا فاقض ديني..."[3].

ومن الآداب أيضًا: الاستعانة بالدعاء على قضاء الدين؛ فإن المدين إذا دعا الله

---

(١) رواه البخاري.

(٢) قال ابن التين: معناه: أنهم إما صحابي متأول فهو مظلوم، وإما غير صحابي قاتل لأجل الدنيا فهو ظالم. فتح الباري (٦/٢٢٩).

(٣) رواه البخاري.

تعالى بصدق وقوة تضرع -خصوصًا متى كثرت ديونه وعسر عليه قضاؤها- فإن ذلك من أعظم أسباب تيسير قضاء ديونه.

ومن الأدعية الواردة في هذا:

عن علي رضي الله عنه أن مكاتبًا جاءه فقال: إني عجزت عن مكاتبتي فأعني، فقال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل صِير[(١)] ديناً أداه الله عنك، قل: (اللهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ)[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أُحد دينًا لأداه الله عنك، قل: يا معاذ: (اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة مَن سواك)[(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصاب أحداً قَطُّ همٌّ ولا حزن فقال: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا

---

(١) **صِير**: هو جبل بأجأ في ديار طيئ.

(٢) رواه الترمذي وأحمد، وهو حسن.

(٣) رواه الطبراني في الصغير بإسناد جيد.

أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا. قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: (أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)(١).

ومن الآداب أيضًا: أن يبدأ الورثة بقضاء دين الميت قبل توزيع الإرث.

ولهذا نجد أن الله تعالى حينما ذكر قسمة المواريث في سورة النساء ذكر البداءة بقضاء دين المورِّث قبل تقسيم الميراث بين الوارثين، وقد ذكر ذلك في أربعة مواضع من الآيتين الواردتين في نصيب الورثة فقال تعالى -بعد ذكر نصيب الأولاد والوالدين: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[النساء:١١]، **وقال** -بعد ذكر نصيب الزوج من زوجته-: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[النساء:١٢]، **وقال تعالى** -بعد ذكر نصيب الزوجة من زوجها-: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[النساء:١٢]، **وقال** -بعد ذكر نصيب الإخوة لأم-: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء:١٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن المعروف بين الناس نعت صالح تحبه النفوس الأبية، وتتسابق إليه الهمم العليّة، ومجاله رحب لا تحيط به الأمثلة، بل كل خير يُبذل، وكل شر يُدفع هو الجامعة التي تحيط بذلك المصطلح الكريم.

وإقراض الناس هو من أمثلة المعروف، فمن كان ذا قدرة على نفع أخيه بالدين فليفعل؛ فإن ذلك من الصدقة والبر، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل قرض صدقة)[١]. **وقال** صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يقرض مسلمًا قرضًا مرتين إلا كان كصدقتها مرة)[٢].

قال الشوكاني رحمه الله: "وفي فضيلة القرض أحاديث وعمومات الأدلة القرآنية والحديثية القاضية بفضل المعاونة، وقضاءُ حاجة المسلم، وتفريج كربته، وسدُّ فاقته شاملة له"[٣].

والزمان لا يبقى على حال؛ فرب وقت يمر بالناس يصير فيه الدائن مدينًا، والمدين دائنًا، فالزمان قُلّب!، فعلى الإنسان أن يحسن في الحاضر حتى يُحسَن إليه في المستقبل.

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي، وهو حسن.

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

(٣) نيل الأوطار (٥/ ٢٨٤).

ولا عيب على الإنسان الوفي الأمين أن يذهب إلى أخيه المسلم فيطلب منه أن يسلفه مالاً، قال بعض أهل العلم: " ولا نقص على طالبه، ولو كان فيه شيء من ذلك لما استسلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم "(١).

أيها الأحباب الفضلاء، من الآداب المهمة التي ينبغي أن يحرص عليها الدائن:

أولاً: توثيق الدين؛ فإن ذلك أحفظ للحقوق، وأبعد عن التنازع والخلاف، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك في آية الدَّين والتي بعدها. ويكون ذلك التوثيق بالكتابة والإشهاد، أو بالرهن. وهذا ليس واجبًا لكنه أولى وأفضل، وليس على الدائن لوم لو طلبه؛ فالآجال بيد الله تعالى، فربما مات الدائن أو المدين فنُسي الدين أو جحد أو زِيدَ فيه، وأمانة الناس قد تضعف مع تغير الأزمنة والأحوال، فكان التوثيق طوق نجاة من تلك المكاره.

ثانيًا: على الدائن أن يعلم أن إقراضه عمل خير وبر خالص؛ فلا يجوز أن يطلب من وراء دينه مصلحة مالية كالزيادة عند القضاء، أو منفعة دنيوية ينالها من المدين جزاء تسليفه؛ فإن ذلك من الربا الذي نهت عنه الشريعة الإسلامية.

ثالثًا: على الدائن أن لا يلح ولا يكثر المطالبة بالدين قبل حلول أجله، بل عليه أن يُنظِر المدين المعسر ولو حل أجل دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة:٢٨٠]، يعني: " وإن كان المدين غير قادر على السداد فأمهلوه إلى أن ييسِّر الله له رزقًا فيدفع إليكم مالكم "(٢).

---

(١) نيل الأوطار (٥/٢٨٤).

(٢) التفسير الميسر (١/٢٩٣).

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل إنظار المعسرين ما يحث ذوي الإيمان من الدائنين على تأخير المدينين إلى أن يستطيعوا القضاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، وأن يظله تحت عرشه فلينظر معسراً)[١].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة)، ثم سمعته يقول: (من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة) فقلت: يا رسول الله، سمعتك تقول: (من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة) ثم سمعتك تقول: (من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة) قال: (له كل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة)[٢].

وأما إذا سامحه من دينه، وتصدق به عليه فهذا أفضل وأكمل؛ ولهذا قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨٠]، " أي: أن إسقاط الدين عن المعسر والتنفيس عليه بإغنائه أفضل، وجعله الله صدقة لأن فيه تفريجَ الكرب، وإغاثة الملهوف "[٣].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كان تاجرٌ يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه؛ لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه)[٤].

وعن عبد الله بن أبي قتادة: أن أبا قتادة طلب غريمًا له فتوارى عنه، ثم وجده،

---

(١) رواه الطبراني بإسناد صحيح.

(٢) رواه الحاكم، وهو صحيح.

(٣) التحرير والتنوير (٢/٥٦٢).

(٤) متفق عليه.

فقال: إني معسر، فقال: آلله؟ قال: ألله. قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة)[٢].

والتيسير على المعسر يكون: " بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة، وإعانة بنحو شفاعة "[٣].

فيا عباد الله، على الإنسان أن يبتعد عن الدين ما استطاع، فلا يلجأ إلى الدين إلا في الأمور التي لابد منها، فإن استدان فعليه الحرص الشديد على قضاء الدين في الوقت المتفق عليه.

وعلى المدين أن لا يسرف في شراء الأشياء الكمالية والترفيهية التي قد تعجزه عن قضاء دينه، بل إن كان لديه مال يكفيه للحج وعليه دين حالٌّ فعليه أن يبدأ بقضاء دينه قبل حج بيت الله الحرام، إلا أن يأذن له الدائن، فإذا كان هذا في ركن من أركان الإسلام فكيف بأمور دنيوية غير ضرورية!. وكذلك إن كان عليه مال للزكاة فليبدأ بقضاء الدين فإن بقي من مال الزكاة شيء أداه، وإلا فاستغراقه في الدين يعفيه عن الزكاة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) فيض القدير (٦/٢٤٣).

ومن الأشياء التي قد يتساهل فيها بعض الأزواج تأخير ما تبقى من مهر الزوجة مع قدرة الزوج على قضائه، فبعضهم قد يماطل في دفعه، وبعضهم قد يجحده ظلماً وعَدواً

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تزوج امرأة على صداق وهو ينوي أن لا يؤديه إليها فهو زانٍ، ومن ادّان ديناً وهو ينوي أن لا يؤديه إلى صاحبه- أحسبه قال:- فهو سارق)(١).

وعلى المرء الموسر أن لا يمتنع من إقراض الوفيّ من الناس، وأن تكون عنده مروءة وحرص على الخير فيدفعه ذلك إلى إنظار المدينين والتجاوز عن المعسرين، ومتى أحاله المدين على قادر على الوفاء فليقبل الحوالة.

ومن الأمور التي قد يجهلها بعض الدائنين أن يجد من أقرضه معسراً فيقتطع دينه من مال زكاته، وهذا غير صحيح؛ لأن الزكاة يشترط فيها نية سابقة، وذلك المال إنما خرج على سبيل القرض، فمن أسقط دين مدين على أنه من الزكاة فليخرج زكاته مرة أخرى.

وعلينا -معشر المسلمين- أن نعلم أن من وجهات البر التي ينبغي المسابقة إليها: قضاء ديون المدينين، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأحب الأعمال إلى الله عز وجل: سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً)(٢).

---

(١) رواه البزار، وهو صحيح.

(٢) رواه الأصبهاني وابن أبي الدنيا، وهو حسن.

وعلى من كانت عليه زكاة أن يعلم أن الغارمين- وهم الذين استدانوا مالاً في أمور مباحة ولم يستطيعوا قضاءه-هم صنف من أصناف الزكاة، فمن قضى دين مدين من زكاته صح ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٦٠].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

شكر البصر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإنسان، هل فكرتَ في حبيبتيك المطلّتينِ على أعلى وجهك، والمشرقتينِ أسفلَ جبينك، والمنيرتينِ لك دروبَ حياتك؟ هل فكرتَ في جمالهما، وجمالك بهما، وفي منافعهما الدينية والدنيوية؟

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٢٤/٢/١٤٤٠هـ، ٢/١١/٢٠١٨م.

إن العين ضياء الحياة، ونافذة إلى رؤية ما في هذا الوجود من مخلوقات بديعة، ومصالحَ مرادة ليستفاد منها، ومضار مؤذية لكي يُبتعد عن طريقها. والبصر طريق من طرق سعادة الإنسان في الحياة، وتحفة كريمة رزقه الله إياها، يقول تعالى ممتنًا عليه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾[البلد:٨]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[الملك:٢٣].

كم من إنسان لا يعرف نعمة عينيه، ولا قدرَ مِنَّة البصر عليه! ألم يعلم بأن الشريعة جعلت في التعدي على إذهاب حاسة البصر الدية كاملة: مائة من الإبل، وفي إذهاب العينين الدية كاملة أيضًا، وفي إذهاب إحداهما نصف الدية، وحكم الشرع الحكيم بأن من فقأ عين إنسان فُقئت عينُه، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥].

ولعظم المنة بنعمة البصر رتّب الله تعالى على ذهابه بالعمى جزاءً عظيمًا ألا وهو الجنة، إذا ما احتسب صاحبه المسلم المصيبة بذلك، وسمى الله العينين بالحبيبتين والكريمتين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - يريد عينيه - فصبر عوضته منهما الجنة)(١).

(١) رواه البخاري.

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يعني عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة إذا هو حمدني عليهما)[(١)][(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: إذا أخذت كريمتي عبدي فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة)[(٣)].

فيا أيها المبصر الغافل عن نعمة البصر، انظر إلى من فقد نور عينيه كلتيهما فصار ضريرا، أو فقد إحداهما فأصبح بعين واحدة، أو من يعاني مرضًا بهما وألـمًا اشتد عليه فيهما، انظر إلى هؤلاء، واحمد الله على نعمة عينيك وإشراق بصرك الذي سلم من كل ما سبق.

---

(١) رواه ابن حبان، وهو حسن.

(٢) قال ابن بطال: " هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة ، ونعمة البصر على العبد وإن كانت من أجل نعم الله تعالى فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا لنفاد مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة. فمن ابتلي من المؤمنين بذهاب بصره في الدنيا فلم يفعل ذلك به لسخط منه عليه ، وإنما أراد تعالى الإحسان إليه إما بدفع مكروه عنه يكون سببه نظر عينيه لا صبر له على عقابه في الآخرة أو ليكفر عنه ذنوبًا سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا ليلقى ربه طاهراً من ذنوبه أو ليبلغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله وكذلك جميع أنواع البلاء ، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه . وجاء عنه عليه السلام : (إن أهل العافية في الدنيا يودون لو أن لحومهم قرضت بالمقاريض في الدنيا؛ لما يرون من ثواب الله لأهل البلاء) فمن ابتلي بذهاب بصره أو بفقد جارحه من جوارحه فليتلق ذلك بالصبر والشكر والاحتساب وليرض باختبار الله له ذلك ليحصل على أفضل العوضين وأعظم النعمتين وهي الجنة التي من صار إليها فقد ربحت تجارته وكرمت صفقته، ولم يضره ما لقي من شدة البلاء فيما قاده إليها". شرح صحيح البخاري. لابن بطال (٩/ ٣٧٧).

(٣) رواه أبو يعلى، وهو صحيح.

أيها الأحباب الكرام، إن البصر نعمة كغيره من النعم خلقه الله تعالى للإنسان ليستعمله فيما أمره به وفيما أباحه له، ويبتعد به عن رؤية ما حرم الله النظر إليه، وسيُسأل العبد عن ذلك يوم القيامة: هل شكر الله تعالى بتسخيره فيما لا يغضب الله أو لا؟

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٦].

عباد الله، هناك أشياء كثيرة يدعو الله إلى النظر إليها، وأشياء أخرى يحذر من النظر إليها، وهناك أيضًا نظرات يُدعى المسلم إليها، ونظرات أخرى يُنهى عنها، فمِن شكرِ الله على نعمة العينين: صرفُ النظر وحالِ النظرات إلى ما يحب، وكف البصر وحركة العين عما يبغض.

فما أحسنَ أن نعرف ذلك حتى نسعى إلى ما يحب الله فنغنم الأجر، وما أجمل أن نعلم ما يكره الله النظر إليه، وندري النظرات التي لا يحبها؛ حتى لا نقع في الإثم والسخط.

إن مما ينبغي للمسلم النظر إليه: المصحفَ للقراءة فيه، فالنظر فيه عبادة من العبادات، فكم من خير للمسلم المبصر من هذه العبادة! فإنه يقرأ في كتاب الله تعالى ويتأمل في آياته فيجد من الكلام ما يبهج نفسه، ويريح قلبه، ويزيد رصيد حسناته، ويشغل وقته بما هو نافع، فلا تستولي عليه الوساوس والخواطر غير الصالحة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ألم" حرف، ولكن ألف

حرف، ولام حرف، وميم حرف)[(١)].

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: كتب العلم النافع، فيقرأ المرء فيها ليعرف دينه، فيكون على نور وبصيرة في تعامله مع الله ومع نفسه ومع الخلق، فينتفع بذلك وينفع غيره. وكذلك من القراءة المحبوبة: القراءة في كتب العلم الدنيوي التي بها منفعة في هذه الحياة.

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: الحقائق والبراهين الدالة على الحق، فمن كان باحثًا عن الحق صادقًا في طلبه رأى بعينيه ما يهديه إلى الصراط المستقيم، وأما من كان لا يريد الحق فإنه ولو شاهد الحقائق فإنه لن يقبلها؛ لأن على بصره غشاوة الجحود والكراهية، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة:٧]، وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[البقرة:١٨].

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: كتاب الكون المفتوح، فيقرأ المتأمل في هذا الوجود الآيات المنشورة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وقدرته، وعلمه وحكمته ورحمته، فكم فيه من آيات منظورة تهدي الناظر إليها إلى معرفة الخالق العظيم، وسلوك صراطه المستقيم، وتحثه على توحيد ربه الواحد والإيمان به.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٤].

وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩١].

وقال: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١]. **وقال:** ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت:٢٠].

وقال: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية:١٧-٢٠].

سئل أعرابي عن الدليل على الله فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟!(١).

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: مصارع العصاة، وآثار الطغاة الذين كذبوا الرسل، وحادوا عن طريق الحق، فأنزل الله عليهم عقابه، فمن نظر إلى ذلك متفكراً أخذ من تلك الرسوم العافية، والأطلال البالية، والمشاهد الصامتة العبرةَ والعظة، حينما يعلم أسباب عقوبة أهلها وعاقبتهم الوخيمة، **قال** تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠]. **وقال:** ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران:١٣٧]، **وقال:** ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٢/٩١).

وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٥-٤٦].

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: تخوم الإسلام وثغور المسلمين، من أجل حراستها، وحماية المسلمين أن يؤتَوا من قبلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)(١).

وهنا أمران:

الأول: أن حراسة ثغور المسلمين يمكن أن تشمل الثغور الحسية، وهي الأصل، والثغور المعنوية، وذلك بالنظر في الشبهات حول الإسلام ودفعها، ورد عادية الغزوات الفكرية المتجهة نحو دين الله، خاصة في هذه الأيام.

الثاني: ذكر الحديث عبادة من عبادات العين إلى جانب عبادة النظر **ألا وهي:** عبادة البكاء من خشية الله تعالى، وهذه العبادة هي دأب الصالحين، وأثر وصول الحق إلى شغاف قلوبهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)(٢).

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

أيها المسلمون، للعين لغة تدل عليها حركاتها التي تعبر بها عن بعض الأحوال كالعطف والحنان، والرحمة والتوجع، والحب والخير، والسخرية والاستهزاء، والإشارة إلى فعل منكر، وغير ذلك.

فمن النظرات التي يدعى المسلم إليها: نظرة العطف والحنان والحب للوالدين، فإنها من البر، ومما يدخل السرور على الأبوين، ويباين هذه النظرة ويضادها نحو الوالدين: نظرة الحقد والغضب، أو الاشمئزاز والبغض، أو السخرية والاحتقار، وهذه النظرات من العقوق؛ لأنها تدخل على الوالدين الحسرة والألم.

ومنها أيضًا: نظرة العطف والرحمة باليتامى، وهي نظرة تدعو إلى الإحسان إليهم، وتعويضهم حنان الأبوة الذي فقدوه.

ومنها كذلك: نظرة التوجع والرحمة بالمساكين والأرامل والمحتاجين والمظلومين، وصاحب هذه النظرة ذو قلب حي ومشاعر كريمة.

عباد الله، إن هناك أشياء نُهِيَ المسلم عن النظر إليها؛ **لأمور تستوجب ذلك:**

فمما حرمه الله من ذلك: نظر الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال، من غير الأزواج والمحارم، فالله عز وجل قد أمر الرجال والنساء بغض البصر فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ..﴾[النور:٣٠-٣١].

"**قال** سعيد ابن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن؟ قال: اصرف بصرك عنهن؛ يقول الله عز و جل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾"(١).

---

(١) صحيح البخاري (٥/٢٢٩٩).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولما كان مبدأ ذلك من قِبل البصر جعل الأمر بغضِّه مقدمًا على حفظ الفرج؛ فإن الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة؛ ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات "(١).

إن الإنسان يُعفى عنه من نظر الفجأة، ولكنه لا يعفى عن قصد النظر وتكراره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: (يا علي، لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة)(٢).

وعن جرير رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك)(٣).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر(٤).

إن غض البصر ابتغاء وجه الله دليل على أن صاحبه قد بلغ مرتبة عالية في الإيمان فصار لا يرى إلا ما يحب الله، وبذلك يصبح وليًا من أولياء الله ومن أهل محبته، **عن**

---

(١) الجواب الكافي (ص: ١٠٥).

(٢) رواه الترمذي وأبو داود، وهو حسن.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[١].

قال القرطبي رحمه الله: "البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله"[٢].

إن بعض الناس قد تمر به امرأة أو يمر بامرأة في الطريق فيسرِّح طرفه فيها، وينظر إلى محاسنها، وهو بهذا الفعل قد خان في عينه، ولم يتأدب بآداب الطريق التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياكم والجلوس في الطرقات). فقالوا: ما لنا بدٌّ[٣]، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها). قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر)[٤].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير القرطبي (١٢/٢٢٣).

(٣) بد: غنى عنه.

(٤) متفق عليه.

أيها الأحباب الفضلاء، إن إطلاق النظر إلى الحرمات خطرُه على صاحبه كبير، فالنظرة سهم من سهام إبليس إن لم تقتل صاحبها جرحته، وقد يستصغر بعض الناس هذا الذنب ولا يدري ما عواقبه وآثاره!

قال بعض أهل العلم: " والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإن النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفى هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألمِ ما بعده؛ **ولهذا قال** الشاعر:

كـلُّ الحـوادث مبـداها مـن النظـرِ ومعظمُ النـار مـن مستـصغر الـشررِ
كـم نظـرة بلغـت في قلـب صـاحبها كمبلـغ الـسهم بـين القـوس والـوتر
والعبـد مـا دام ذا طـرف يقلبـه في أعـين العِـين موقـوفٌ عـلى الخطـر
يـسرُّ مقلتَـه مـا ضرَّ مهجتـه لا مرحبًـا بـسرور عـاد بالـضررِ"[١]

وقال آخر: "أكثر فساد القلب من تخليط العين، ومادام باب العين موثقًا بالغض فالقلب سليم من كل آفة، فإذَا فُتِحَ طَارَ الطَّائِرُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَعُدْ بَعدُ"[٢].

إن الناظر نظرة الحرام لا يعود بفائدة، بل يعود بضرر كبير على نفسه يفسد قلبه وخاطره وجسده، وربما قاده إلى الفاحشة، قال الشاعر:

وكنـتَ مَتَـى أَرْسَـلْتَ طَرْفَـكَ رائِـداً لقَلْبِـكَ يومـاً أَتْعَبَتْـكَ المَنـاظِرُ
رَأَيْـتَ الـذي لا كُلُّـهُ أنـتَ قـادِرٌ عليهِ، ولا عـن بَعْضِهِ أنـتَ صـابِرُ[٣]

(١) الجواب الكافي (ص: ١٠٦).
(٢) المدهش (ص: ٣٦٣).
(٣) الحماسة البصرية (ص: ١٥٦).

وقال الآخر:

نظرُ العيونِ إلى العيون هو الذي ... جعل الهلاكَ إلى الفؤاد سبيلا

ما زالتِ اللحظاتُ تغزو قلبَه ... حتى تشحّط بينهنّ قتيلاً(١)

إن العين كنز ثمين وُهِبه الناظرُ فكان يحتاج إلى حفظ وصيانة، وأعظم طريق لحفظه: غضه عن الحرام "وقد ثبت علمياً بالأبحاث والدراسات الطبية أن تكرار النظر بشهوة إلى الجنس الآخر وما يصاحبه من تولد رغبات جامحة لإشباع الغرائز المكبوتة، كل ذلك يفضي بالشخص إلى مشاكل عديدة قد تصل إلى إصابة جهازه التناسلي بأمراض وخيمة؛ مثل احتقان البروستاتا، أو الضعف الجنسي، وأحياناً العقم الكلي، كما أثبتت بعض الدراسات الاجتماعية في المجتمعات الغربية أن عدم غض البصر يورث الاكتئاب والأمراض النفسية، وأن التفسخ الأخلاقي والتحلل الجنسي في تلك المجتمعات إنما هي بعض من نتائج عدم وجود دستور ديني أو قيود أدبية أخلاقية ينظم عمل هذه الحاسة النبيلة، ويرشد استخدامها في الحياة بما يتوافق مع صحة الإنسان البدنية والنفسية"(٢).

أيها الأحبة الفضلاء، إن مَن غض بصره عن حرمات الناس أورثه ذلك خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة؛ فبغض البصر يُحفظ البدن والروح، وتُصان النفس عن قالة السوء، ويسلم دين صاحبه من الآثام، ويسلم قلبه من سبب من أعظم أسباب فساده. هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة: فغض البصر سبب من أسباب النجاة من النار والفوزِ بالجنة، قال

---

(١) ديوان الصبابة (ص: ٢٦).

(٢) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص: ٢٥١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفّت عن محارم الله)(١).

وقال صلى الله عليه وسلم : (اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)(٢).

أحبتي الفضلاء، إن تحريم النظر إلى النساء الأجنبيات يشمل النظر إلى الذوات والنظر إلى الصور الثابتة أو المتحركة، المعروضة على شاشات التلفاز أو الحاسوب أو الجوال أو في الصحف والمجلات، أو الصور الإعلانية في المحلات والشوارع، أو الملصقة على بعض المصنوعات، بل قد يكون النظر إلى الصور أشد فتنة من النظر إلى الذوات؛ لما في الصور من عوامل التحسين والتزيين، وكم تساهل بعض الناس في النظر إلى الصور أكثر من تساهلهم إلى النظر إلى الذوات الحقيقية، وأضرّتهم أيما ضرر!

عباد الله، من سمات هذه الشريعة: التيسير، ومراعاة المصالح وأحوال النفوس، فإذا كان الأصل تحريم نظر الرجل إلى المرأة غير الزوجة أو المحرمة عليه إلا أنه يستثنى من هذا الأصل بعض الصور التي يجوز للرجل أن ينظر إلى غير زوجته وحرماته، **فمن ذلك:**

جواز النظر من أجل العلاج، فيجوز للطبيب أن ينظر من المريضة إلى الموضع الذي يحتاج إلى تطبيب، ولكن بشروط، فمن ذلك: أن لا يجاوز حدود الموضع المحتاج إلى علاج إلى غيره، وأن يكون بحضور محرم أو زوج، وأن لا يكون هناك طبيبة يمكنها

---

(١) رواه الطبراني، وهو حسن.

(٢) رواه أحمد، وابن حبان، وهو حسن.

أن تعالج ذلك المرض.

ومن الصور أيضًا: جواز نظر الخاطب إلى المخطوبة، والمخطوبة إلى خاطبها؛ لأن ذلك أدعى للقناعة والاتفاق. فعن المغيرة بن شعبة: أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)(٢).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود والبزار، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

أيها المسلمون، ومما حرم الله النظر إليه: العورات، فلا يجوز أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة، ولا يجوز أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا الرجل، سواء كان ذلك رؤية حقيقية أو رؤية للصورة. **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة)(١).

ومما حرم الله النظر إليه: خبايا الناس وخفاياهم، وذلك بتتبع عثراتهم والبحث عن عوراتهم، من أجل الإضرار بهم وهم أبرياء، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)(٢).

أيها الفضلاء، هناك نظرات على المسلم أن يبتعد عنها، **فمنها:**

نظرة الحسد، فلا يحل للمسلم أن ينظر هذه النظرة إلى ما فضل الله غيره عليه به، بل عليه أن يصرف بصره، ويسأل الله من فضله. ويدخل في هذا نظرة العائن إلى الأجسام والأموال، وهذه النظرة الضارة تعدٍّ وإيذاء، فمن كان عائنًا أو يخشى أن يصيب غيره بعينه فليدعُ بالبركة، **كما قال** صلى الله عليه وسلم: (إذا رأى أحدكم من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة؛ فإن العين حق)[١].

ومن ذلك أيضًا: نظرة الاحتقار والاستهزاء، والتهوين من الشأن.

ومن ذلك: الإشارة بالعين إلى إيذاء مسلم بأي نوع من أنواع الأذى.

ومن ذلك أيضًا: نظرة الإعجاب بالدنيا، والافتتان بها، خصوصًا ما عند الكفار من متاعها؛ لأن هذه النظرة تؤدي إلى ازدراء نعم الله تعالى، وتسوق إلى اللهو بالحياة الفانية ونسيان الحياة الباقية، **قال** تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[طه:١٣١].

ومن ذلك كذلك: النظر إلى المنكرات وهي تُعمَل، وإلى حرماتِ الله وهي تُنتَهك، وإلى نفوسٍ بريئة تُظلم، فينظر الناظر إليها غير مبالٍ ولا مهتم، وعنده قدرة على تغيير المنكر ونصرة المظلوم، ولم يفعل!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢].

عباد الله، لا يجوز للمسلم أن يحرف الحقائق فيكذب فيها زيادة أو نقصًا أو تبديلاً، ولا يجوز له أن يقول: إنه رأى كذا ولم ير، أو يقول: إنه لم ير وقد رأى، سواء كان ذلك في يقظته أم منامه، **قال** النبي صلى الله عليه وسلم: (من تحلَّم بحُلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل)[٣].

---

(١) رواه الحاكم والطبراني، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

أيها المسلمون، وبعد هذا علينا أن نشكر الله تعالى على نعمة العينين، ونعمة البصر بهما، ومن شكر الله: استعمال ذلك فيما يحب الله تعالى، والبعد عما يسخطه تعالى.

وأما من بُلي من المسلمين بالعمى فلا يحزن، بل عليه أن يصبر ويرضى بقدر الله؛ فإن الصبر على ذلك من أسباب دخول الجنة. وعليه أن يوقن بأن الخير فيما اختاره الله، ولعل في ذهاب بصره صيانة له عن إطلاق بصره في الحرمات، وقد يعوضه الله نوراً في بصيرته يغنيه عن نور البصر، كما قال ابن عباس:

إنِ يأخذ اللهُ من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ

قلبي ذكيٌّ وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثورُ[1]

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية....

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٣٥٧).

شكر السّمع(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، تتعدد نِعم الله على العباد، وتكثر مِنُنه عليهم، ولا عادّ لما أعطى، ولا محصيَ لما أولى، ألا وإن من تلك النعم الجليلة والمنن الجزيلة: نعمةَ السمع التي بها إدراك المسموعات، وتمييز الأصوات، فيا لها من منّة عظيمة، ونعمة جسيمة!

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٥/٣/١٤٤٠هـ، ٢٣/١١/٢٠١٨م.

فمع مجيء الإنسان إلى الدنيا رافقته حاسةُ السمع إلى هذه الحياة؛ لكونها طريقًا إلى معرفة الخالق ومعرفة خلقه، ومفتاحًا له إلى إدراك علومه وأحواله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨]. وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة:٩].

فكم في هذه النعمة على الإنسان من تحصيل منافع له ودفع مضار عنه؛ فبها تصل إليه أصوات الهداية التي تصلح قلبه وروحه، وبها يصل إلى مصالح عيشه وتنظيم أحوال حياته، وبها يريح نفسه ويشرح صدره بالأصوات الجميلة؛ كخريرِ الماء، ودويِّ المطر، وهديرِ الأمواج، وهبوب الرياح، وحفيف الأشجار، ورفيف الأغصان، وتغريد البلابل، وزقزقة العصافير.

وبها نستطيع أن نعيش مع الآخرين فنفهمهم ويفهموننا من خلال الكلام ونستفيد منهم ويستفيدون منا، وبها يتلقى الأطفال اللغة ليتكلموا بها، فلولاها لما عرفوا الكلام.

وبهذه النعمة يميز الإنسان بأن هذا صوت قرآن وهذا صوت ألحان، وهذا صوت إنسان وهذا صوت حيوان، وهذا صوت والد، أو صوت ولد، وهذا صوتٌ عليه أن يُقبل عليه، وهذا صوت عليه أن يحذر منه.

عباد الله، من أراد معرفة عظمة هذه النعمة من حيث الخَلق، ومن حيث الأثر، فليعلم أن الله القائل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤] قد أحسن خِلقة الجهاز السمعي فركبه أحسن تركيب من داخله ومن خارجه، فكم فيه من آيات تدل

على قدرة الله وإحكام خلقه، ورحمته بعبده، وكيف جعل له أذنين جميلتين وسيلة لجمع الأصوات، وكيف ركَّب كلاً من الأذن الخارجية والأذن الوسطى والأذن الداخلية من أجزاء دقيقة تعمل لصالح السمع.

وكيف جعلت الشريعة الإسلامية الاعتداء على الأذن فيه القصاص، وفي الديات جعلت في كل أذن نصف الدية، وفي إذهاب حاسة السمع كله الديةَ كاملة.

وأما من حيث الأثر فانظر - أيها الإنسان السليم - في سمعك إلى ذوي العيوب في السمع، انظر إلى ضعيف السمع كم يلاقي من العناء حتى يفهم مراد الأصوات، وانظر إلى فاقد السمع كم يتعرض لبعض الأضرار وفوات بعض المصالح ويجد من المشقات بسبب صممه، واسأل بالكتابة -إن وجدت- من كان سميعًا ثم أصيب في سمعه: كم الفرق في حاله قبل صممه وبعده؟ لتدرك عظمة نعمة الله تعالى عليك.

ألا فاشكرِ اللهَ على نعمته الجزيلة عليك بسلامة سمعك، ولكن تذكر أن هذه النعمة ستُسأل عنها يوم القيامة: هل استعملتَها في سمع ما يرضي الله أو استعملتها في سمع ما يسخطه؟ **قال** تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٦].

أيها المسلمون، إن السمع بوابة لكسب الحسنات، أو لاكتساب السيئات، وقناة للخير أو للشر، والحريص على دينه وصلاح عيشه ينتقي ما يسمع فلا يصغي أذنيه لكل صوت، بل يفتحها لاستماع ما يجلب له الخير العاجل والآجل.

فمما ينبغي الاستماع إليه: صوت الحق الذي يهدي مستمعَه إلى الصراط المستقيم، ويرشده إلى الحق، ويبين له الصواب. فأشرف المسموعات: القرآن الكريم، فالقرآن

كتاب هداية وإرشاد، ودلالة إلى سبل الخير، وتحذير من سبل الشر، وحروفه وجملُه ذات وقع معجز، وتأثير عجيب، فمن أصغى إليه سمعَه، وأحضر عند ذلك قلبَه انتفع بسماعه هدايةً واسترشاداً، وتلذذاً وعملاً، **قال** تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، **قال** بعض أهل العلم: " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، **قال** تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدلّهِ على المراد... "[١].

وقال تعالى- مبيناً أن القرآن حجج وبراهين وهدى، آمراً بالاستماع له والإنصات لحروفه المشرقة-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وكم لاستماع القرآن من أثر على النفوس والقلوب! فعن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ عليّ). قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أُنزِل ؟! قال: (نعم). فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١]. قال: (حسبك الآن). فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[٢].

---

(١) الفوائد (ص: ٣)، ثم شرح ابن القيم ذلك شرحًا نافعًا.

(٢) متفق عليه.

وعن الفضل بن موسى قال: "كان الفضيل بن عياض شاطراً[١] يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته: أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[الحديد:١٦]. **قال:** فلما سمعها قال: بلى -يا رب- قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة وإذا فيها سابلة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هٰهنا يخافونني! وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللّٰهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام"[٢].

أما من سمع القرآن ولم ينصت له ولم يفتح إلى قلبه قناةَ انتفاعٍ به فلن يؤثر عليه كحال المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[البقرة:١٨]، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنبياء:٢]. ولكن زعماء المشركين لما علموا عظم تأثير القرآن على مستمعيه تواصوا بعد سماعه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦].

أيها الأحباب الكرام، ومن أصوات الحق التي ينبغي أن يُصغَى لها: صوت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لما أن مات عليه الصلاة والسلام فإن علينا أن نسمع سنته ونَعِيها ونتبعها ونبلغها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغ أوعى من

---

(١) يعني: قاطعًا للطريق.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي (٥/٤٦٨).

سامع)[(١)].

فعلى المسلم أن يحرص على سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعمل به ويستجيب لما يدعو إليه، وليحذر أن يسمعه ويعرض عن العمل بما فيه متجهًا إلى العمل بخلاف ما يدعو إليه فيكون حاله كحال المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١].

ومما ينبغي الاستماع له والإصغاء إليه: صوت العلم النافع الذي ينير للإنسان طريق الهدى، ويعرفه صواب الأفكار والأعمال والأقوال. ومن العلم النافع: الاعتبار بأحوال الأمم، وهي عظات ترغّب في الخير وتحذر من الشر، فالله تعالى ذكر في سورة ق عواقب بعض الأمم المكذبة ثم قال عقب ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

ومما ينبغي الاستماع له والاستجابة لندائه: صوت الأذان للصلاة، خاصة نداء الجمعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة:٩]. **فالأذان** دعوة إلى الفلاح، ونداء إلى ما فيه صلاح المرء في دنياه، ونجاته في أُخراه، وقد شرع للمسلم استحبابًا متابعةُ المؤذن والقول مثل ما يقول إلا في الحيعلتين-فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله-، والدعاء بعد ذلك بالذكر الوارد، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال حين يسمع النداء: اللَّهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة)(٢).

وأما الاستجابة لما يدعو إليه المؤذن والذهاب إلى المساجد فمما على السامعين فعله، وقد ورد في بعض الأخبار ما يدل على آثار ترك الاستجابة لذلك. "قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وقد كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾[القلم: ٤٣] قَالَ: نَزَلَتْ فِي صلاة الرَّجُل يسمع الأذان فلا يجيب. وقال أيضًا: من سَمِعَ النداء فَلَمْ يجب فلا صلاة لَهُ إلا من عذرٍ. وعَن عَلِيّ رضي الله عنه قَال: لا صلاة لجار المسجد إلا فِي المسجد. قيل: يَا أمير المُؤْمِنين، ومَن جارُ المسجد؟ قَالَ: من سَمِعَ الأذان. **وعَن** أَبِي موسى رضي الله عنه قال: من سَمِعَ النداء فارغاً صحيحاً فَلَمْ يُجب فلا صلاة لَهُ"(٣).

ومما ينبغي الإنصات له واستماعه: خطبة الجمعة، وهو إنصات واجب على من شهد الجمعة، وفيه فضل وأجر لفاعله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغُ؛ كان له بكل خطوة عملُ سنة أجر صيامها وقيامها)(٤).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) تنظر هذه الآثار في فتح الباري. لابن رجب (٩/٤).

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وهو صحيح.

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طُهر، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كُتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام؛ إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)[١].

ولعظم الأمر بالاستماع التام لخطبة الجمعة جعل الكلام والانشغال أثناءها بغيرها من المستمعين فيما بينهم ملغيًا لأجر الجمعة، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت والإمام يخطب فقد لغوت)[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصا فقد لغا)[٣].

أيها الإخوة الفضلاء، ومما ينبغي الاستماع إليه: نداء الوالدين، فإذا تكلم الوالدان فإن من البر: الإنصات لكلامهما، والاستجابة لهما في المعروف، حتى ولو كان الإنسان في عبادة غير واجبة كصلاة النافلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان جريج يتعبد في صومعة فجاءت أمه ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت: يا جريج، أنا أمك كلمني، فصادفته يصلي فقال: اللّٰهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت ثم عادت في الثانية فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني، قال: اللّٰهم أمي وصلاتي فاختار صلاته فقالت: اللّٰهم إن هذا جريج وهو ابني وإني كلّمتُه فأبى أن يكلمني، اللّٰهم فلا تمته حتى تريه المومسات، قال: ولو

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

دعت عليه أن يفتن لفتن. قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى دَيره قال: فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت فولدت غلامًا فقيل لها: ما هذا ؟ قالت: من صاحب هذا الدَّير، قال: فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادَوه فصادفوه يصلي فلم يكلمهم، قال: فأخذوا يهدمون ديره، فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له: سل هذه، قال: فتبسم، ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك ؟ قال: أبي راعي الضأن، فلما سمعوا ذلك منه قالوا: نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة، قال: لا، ولكن أعيدوه ترابًا كما كان ثم علاه)[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

عباد الله، وكما أن السمع بوابة للحسنات هو أيضًا بوابة للسيئات، فهناك مسموعات لا يجوز سماعها؛ لأن الشرع الشريف نهى عن ذلك، أو لأن تلك المسموعات تُفضي إلى شر كبير على سامعها.

ولهذا بين رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأذنين تقعان في الخطيئة بسماعهما الباطل، **قال** النبي صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة؛ العينان زناهما النظر... والأذن زناها الاستماع)[(١)].

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هناك كفارات لخطايا الأذنين، ومن تلك الأعمال الصالحة المكفِّرة: الوضوء، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا توضأ المسلم فغسل يديه كفر عنه ما عملت يداه، فإذا غسل وجهه كفر عنه ما نظرت إليه عيناه، وإذا مسح برأسه كفر به ما سمعت أذناه، فإذا غسل رجليه كفر عنه ما مشت إليه قدماه، ثم يقوم إلى الصلاة فهي فضيلة)[(٢)].

فمن تلك المسموعات المحظورة: الخوض في دين الله تعالى بالطعن والانتقاص والاستهزاء، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالله أم بكتابه أم برسوله أم بشريعة الإسلام؛

---

(١) رواه أبو داود، وهو حسن.

(٢) رواه الطبراني، وهو حسن.

فإن هذه مقدسات لا يجوز التعدي عليها بسوء القول، ولكنّ أعداءها لا يألون جهداً في بث الأقوال المشينة نحوها، ولسهولة إرسال تلك الأقوال والحروف الشقية في هذا العصر إلى كل الناس عبر وسائل التواصل وآلات الإعلام المختلفة؛ كان على المسلم الحذر من استماع تلك الطعون الجائرة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨].

ومن المسموعات المحظورة: الشبهات التي تثار من قبل أعداء الحق حول العقيدة والشريعة، وما أكثرها في هذه الأيام وأسرع انتشارها! وقد جند أولياء الشيطان جنوداً يبثون سموم أفكارهم حول الإسلام، ويطعنون في ثوابته وعناصر القوة والتميز فيه، وينشرون ذلك على نطاق واسع عبر الفضائيات وخدمات الشبكة العنكبوتية ووسائل الاتصال، فتلقفها فئام من الناس، فمن كان لديه حصانة دينية ومعرفة صحيحة رد تلك الشبهات الباطلة، لكن المشكلة في أولئك الذين ليس عندهم دراية صحيحة بدينهم، فلذلك تأثر بتلك الأفكار المسمومة عددٌ غير قليل من النساء والرجال خاصة في صفوف الشباب؛ إما اقتناعًا بتلك الأطروحات وإما شكًا وحيرة أوقعوا أنفسهم فيها، فصاروا في صراع نفسي كبير.

فعلى المسلم الحريص على دينه البعد عن سماع تلك الشبهات ومشاهدةِ مقاطعها المرئية؛ خشية التأثر بها، أما من كان على علم راسخ وديانة متينة فسمعها للرد عليها فلا بأس بذلك.

ومن المسموعات المحظورة: صوت الغِناء وآلات اللهو، فالغناء هو صوت الشيطان، وطريق إلى غضب الرحمن، وهو مهيِّج للشهوات، وداعٍ إلى المعاصي

والسيئات، وهو مفسد للقلب والخاطر، ومُلهٍ للعبد عن القيام بالأوامر. يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[لقمان:٦]. **قال** ابن مسعود وابن عباس وجابر رضي الله عنهم، وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول والحسن البصري رحمهم الله: إن لهو الحديث هو الغناء[١]. **وهؤلاء الصحابة والتابعون** هم أعلم الناس بتفسير كتاب الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[الإسراء:٦٤]. **قال** مجاهد تلميذ ابن عباس: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صوتان ملعونان؛ صوت مزمار عند نعمة، وصوت ويل عند مصيبة)[٣]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: إذا ظهرت القينات، والمعازف وشربت الخمور)[٤]. **والقينات:** المغنِّيات.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: "خذهم بالجفاء فهو أمنع لإقدامهم، وقلةِ الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن؛ فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما يَنبت العشبُ بالماء "[٥].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٥٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٦٣).
(٣) رواه البزار ورواته ثقات، وهو حسن.
(٤) رواه الترمذي، وهو صحيح.
(٥) ذم الملاهي، لابن أبي الدنيا (ص: ٧٥).

أيها المسلمون، ومن الأشياء التي ينبغي عدم الإصغاء إليها واستماعها: الغيبة والنميمة والطعن في أعراض الناس والاستهزاء بهم والسخرية منهم، والكلام البذيء الفاحش والكذب والقذف والشائعات والأراجيف وغير ذلك من سيء الأقوال، وكل واحد من هذه المساوئ القولية يحتاج إلى إطناب في الحديث عن خطر قوله والتحذير من استماعه، ولكن لا يسع المقام لذلك.

قال بعض الشعراء:

تــوخَّ مــن الطــرْق أوســاطَها ... وعــدِّ عــن الجانــب المــشتبِهْ
وسـمعَك صُـنْ عـن سـماع القبيـ ... ـحِ كصونِ اللسان عن النطق بهْ
فإنـك عنـد سـماع القبيـ ... ـحِ شريـكٌ لقائلـه فانتبِـهْ[1]

وقال آخر:

لَعَمْـرُكَ مـا أَهْوَيْـتُ كَفِّـي لرِيبَـةٍ ... ولا حَمَلَتْنِـي نَحْـوَ فاحِـشَةٍ رِجْـلي
ولا قـادَنِي سَـمْعِي ولا بَـصَرِي لَهَـا ... ولا دَلَّنِـي رَأْيِـي عَلَيْهـا ولا عَقْـلِي
وأَعْلَـمُ أَنِّي لم تُـصِبْنِي مُـصِيبَةٌ ... مِن الدَّهْرِ إلاّ قد أَصابَتْ فَتىً قَبْلِي[2]

ومن الأشياء التي ينبغي صيانة السمع عنها: أصوات النساء الفاتنة، وطلب التلذذ بسماع كلامهن وحديثهن؛ فخطر ذلك على القلب معلوم، وأثره في خدش جدار العفة غير مجهول.

ومما ينبغي ترك ميل السمع إليه: عورات المسلمين وعيوبهم خصوصًا الجيران،

---

(١) الكشكول، للعاملي (١/ ١٧٤).

(٢) الحماسة البصرية (ص: ١٢٨).

وكذلك الاستماع لحديث من لا يريد استماع حديثه، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنُك يوم القيامة)[(١)]. **وفي رواية:** (ومن استمع إلى حديث قوم ولا يعجبهم أن يستمع حديثهم أُذيب في أذنه الآنك)[(٢)].

قال الشاعر:

أعمى إذا ما جارتي خرجتْ حتى يواري جارتي الخِدرُ
ويُصمُّ عما كان بينهما سمعي وما بي غيره وقْرُ[(٣)]

أيها المسلم، وبعد هذا لتكن أنت أذنَ خيرٍ تصغي للحق فتستمع وتتبع، وتُغلق أمام الشر فلا تميل ولا تستمع، **وفي حادثة الإفك** قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش: (يا زينب، ما علمتِ ما رأيتِ؟). فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع[(٤)]. **ومعنى قولها:** (أحمي سمعي وبصري) أي: أصون سمعي وبصري من أن أقول سمعتُ ولم أسمع، وأبصرتُ ولم أبصر، أو المعنى: لا أنسب إليهما ما لم أسمع وأبصر[(٥)].

واعتنِ-أيها المرء- بسمعك منقاداً به للحق، معرضًا به عن الباطل، وادعُ بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لسمعه؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر الله

---

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري(١٢/٤٢٨). **والآنك:** الرصاص المذاب، وقيل هو الخالص الرصاص.

(٣) التذكرة الحمدونية (١/١٩٠).

(٤) متفق عليه.

(٥) شرح النووي على مسلم (١٧/١١٣)، فتح الباري لابن حجر (١٣/٢٦٠).

ويدعوه **فيقول:**

ويقول: (اللّٰهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً..)(١).

ويقول: (اللهُمَّ أَصلِح لِي سَمعِي وبَصرِي واجعَلهُما الوَارِثَيْنِ مِني، وانصُرنِي عَلى مَن ظَلَمَنِي، وأَرِنِي مِنه ثَأري)(٢).

ويقول: (ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا)(٣).

واعلم-أيها العبد- أن صلاح السمع علامة على محبة الله لصاحبه؛ **فقد قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)(٤).

وأما إذا لم يصلح السمع فغدا منفتحًا للباطل موصداً أمام الحق فما أبعدَ صاحبَه عن الله وعن الخير، فلو مات على ذلك فإن الحسرة والندامة والألم ستحضره يوم لقاء ربه فيقول: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:١٠].

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير...

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٤) رواه البخاري.

شُكرُ اللسان(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق اللهُ تعالى الإنسانَ في أحسن تقويم، وأعلى شأنه على كثير من خلقه بالتفضيل والتكريم، وأودع فيه من آيات قدرته، وبراهين حكمته ما لا يحصى، ومازالت نعمه تعالى عليه تترا حتى يفارق الحياة الدنيا.

ألا وإن من هباته سبحانه السَّنِية، ونعمه الجليّة للإنسان: نعمةَ النطق والقدرة على

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٧/٤/١٤٤٠هـ، ١٤/١٢/٢٠١٨م.

الكلام، **قال** تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[الرحمن:١-٤]. وقد جعل تعالى جارحة اللسان هي المعبِّرَ عما في نفس الإنسان، والناطق بما أراده، **يقول** عز وجل ممتنًا عليه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[البلد:٨-٩]. **ويقول** تعالى مبينًا فضل البيان باللسان وفصاحته: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[طه:٢٧-٢٨]، **وقال:** ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[القصص:٣٤]، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه شيء من الحبسة قبل النبوة فلذلك **قال** فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف:٥٢]، لكن موسى لما دعا الله قبل التوجه إلى فرعون استجاب الله له بإزالة حبسته كما قال تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[طه:٢٧-٢٨]، إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[طه:٣٦](١).

عباد الله، لقد أودع الله اللسان" من المنافع منفعة الكلام وهي أعظمها...وجعل سبحانه اللسان عضواً لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته؛ ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه؛ فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يُطِق ذلك، ولم يلبث أن يكَل ويخلد إلى السكون إلا اللسان، وأيضًا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ولما تهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام، فكّونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي، والله أعلم"(٢).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/١٥٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ١٩٢).

إن أكثر الناس غافلون عن نعمة النطق باللسان، غير مدركين عظم فضل الله عليهم بها، فمن أراد الاستيقاظ من هذه الغفلة فلينظر إلى الأبكم وعِيِّه، وصعوبة إبانته عما في نفسه، وكثرة حركاته، وتعدد إشاراته، وإصداره الأصوات المختلفة التي يريد من خلالها إيصال رسالته، ولينظر الغافل كذلك إلى الذين لديهم عيوب في النطق من فأفأة وتأتأة وثأثأة، وتلعثم ولجلجة وخرس وحبسة وغير ذلك؛ حتى يدرك فضل الله عليه بالقدرة على الكلام السليم فيشكره على نعمته عليه.

ألا وإن من شكر الله على نعمة اللسان: استعمال نطقه وصمته فيما يرضي الله تعالى، فاللسان عضو صغير لكن خطره كبير، فـ" اللّسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة. فإنّه صغير جِرْمه، عظيم طاعته وجُرْمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلّا بشهادة اللّسان، وهما غاية الطّاعة والعصيان. وأعصى الأعضاء على الإنسان اللّسان؛ فإنّه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله. وإنّه أعظم آلة للشّيطان في استغواء الإنسان. واللّسان رحْب الميدان، ليس له مردّ، ولا لمجاله منتهى وحدّ. له في الخير مجال رحب، وله في الشّرّ ذيلٌ سحب، فمن أطلق عَذَبة اللّسان، وأهمله مرخيّ العنان سلك به الشّيطان في كلّ ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطرّه إلى البوار، ولا يكبّ النّاسَ في النّار على مناخرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم، ولا ينجو من شرّ اللّسان إلّا من قيّده بلجام الشّرع، فلا يطلقه إلّا فيما ينفعه في الدّنيا والآخرة، ويكفّه عن كلّ ما يخشى غائلته في عاجله وآجله؛ ذلك أنّ خطر اللّسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلّا بالصّمت؛ فلذلك مدح الشّرع الصّمت وحثّ عليه"(١).

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٠٨).

"إن الكلام ترجمان يعبّر عن مستودعات الضّمائر، ويخبر بمكنونات السّرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على ردّ شوارده، فحقّ على العاقل أن يحترز من زللّه، بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه"(١).

لقد جعل " سبحانه على اللسان **غَلْقين: أحدهما:** الأسنان، **والثاني:** الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحداً، ولم يجعل على الأذن غطاء، وذلك لخطر اللسان وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر وذلك من اللطائف، فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفاتٍ طبقين، والمتوسط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق"(٢). فسبحان الخالق العليم الحكيم!

أيها الفضلاء، إن مما يدل على خطر اللسان: أن نطقه مسجل في صحيفة عمل العبد خيراً أو شراً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٠-١٢]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال معاذ: بلى، يا رسول الله، قال: كف عليك هذا- وأشار إلى لسانه- قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! قال: ثكلتك أمك، وهل يَكب الناسَ في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!)(٣). وأن الكلمة التي يفوه بها قد تسوقه إلى الجنة أو تهوي به في نار جهنم، **قال** النبي صلى الله

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٤٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٤٠).

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

عليه وسلم:(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)[١].

ومن ذلك أيضًا: أن أكثر ما يقع زلل الإنسان من قبل لسانه، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال: يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أكثر خطايا ابن آدم في لسانه)[٢].

ولما كان الأمر كذلك كانت اللسان إذا لم تستقم شاهدة على صاحبها يوم القيامة، سائقة له إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤]، **وقد سئل** رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: (الفم والفرج)، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)[٣].

فلهذا كله خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة ذرابة الألسنة واعوجاجها، وحث على كفها وإمساكها، فعن سفيان بن عبد الله الثّقفيّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، حدّثني بأمر أعتصم به. قال: قل: (ربّي الله ثمّ استقم). قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف عليّ؟. فأخذ بلسان نفسه ثمّ قال: (هذا)[٤].

أيها المسلمون، إن اللسان جارحة تكسب بنطقها وبصمتها الحسنات أو السيئات،

---

(١) رواه البخاري

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٢/٣١٢).

(٣) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

فطوبى لمن أطلق لسانه في الحق، وحبسها عن الباطل، فعرف الخير فنطق به، وعرف الشر فسكت عن التفوّه به.

واعلموا -عباد الله- أن للسان عبادات يتقرب بها إلى الله تعالى، فمن ذلك: النطق بالشهادتين، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، ودعاؤه والثناء عليه وشكره، وتعلم العلم النافع وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق، ونصرة المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الوالدين وإسماعهما الكلمات الطيبة، والصمت عن كل ما يغضب الله تعالى من الأقوال، وغير ذلك مما في النطق به أجر، وفي السكوت عنه ثواب.

فعلى المسلم أن يحرص على هذه الأعمال اللسانية الطيبة ونحوها، ويبادر إليها، وليعلم أن هناك خيراً عظيماً ينتظره عند الله تعالى بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[(١)].

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرتْ عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله)[(٢)].

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: قلت لعمير بن هانئ: أرى لسانك لا يفتر عن ذكر الله، فكم تسبح في كل يوم؟ قال: مئة ألف، إلا أن تخطئ الأصابع "[(٣)].

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (ص: ٢٦٦٠).

عباد الله، إن من ينظر إلى معاصي الجوارح يجد أن منها نصيبًا وافراً للسان، فكم منها من الخطايا القولية، والعثرات اللفظية التي أوردت أصحابها موارد الهلكة، فمن تلك الذنوب اللسانية:

الكفر القولي بالله تعالى، والتلفظ بما فيه تنقص من كماله وجلاله سبحانه وتعالى، والطعن في كتبه، والكذب عليه، وقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾[النحل:١١٦].

ومن ذنوب اللسان التي لا تبقي صاحبها في دائرة الإسلام: الطعن في رسل الله وعلى رأسهم سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ومنها الطعن في الإسلام ورميه بألفاظ الاستهزاء وعدم الصلاحية لهذا الزمان. قال تعالى في الذين طعنوا في رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

ومن ذنوب اللسان: تسخط قدر الله، والغيبة والنميمة، والسب والشتم والبذاء، وقذف المحصنين والمحصنات، وشهادة الزور، والكذب، واللعن غير المشروع، وإفشاء الأسرار، وبث التخويف والرعب بين المسلمين قصداً، والمراء بالباطل، والحكم بغير ما أنزل الله، والقول على الله بلا علم، والشماتة بالمسلم، والتفوه بألفاظ العجب بالنفس والغرور والتكبر على الخلق بالقول، والمبالغة في مدح البشر، وعقوق الوالدين بالألفاظ كقول: أف وما فوقها من الألفاظ الجارحة، والمنّ بالعطاء والغِش في المشورة والبيع والشراء. وغير ذلك مما فيه سخط الله تعالى وكراهته.

أيها الإخوة الكرام، إن من علم خطر لسانه، وأثر أقوالها في كسب السيئات وقف مراقبًا لها، فلا يدعها تنطق بكلمة إلا إذا عرف أنها خير من السكوت وإلا لاذَ بحصن الصمت؛ طلبًا للسلامة. وهكذا كان يعمل الصالحون الأولون والعقلاء الفطنون.

فعن إبراهيم التيمي قال: حدثني من صحب ربيع بن خثيم عشرين عامًا فلم يسمع منه كلمة تُعاب عليه[١].

وقال أبو بكر بن عيّاش: "اجتمع أربعة ملوك، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل، وقال آخر: إنّي إذا تكلّمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها ولم تملكني، وقال ثالث: عجبت للمتكلّم إن رجعت عليه كلمته ضرّته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرّابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منّي على ردّ ما قلت"[٢].

أيها الإخوة الفضلاء، إن الدول المعاصرة، والإدارات الحديثة تضع قواعد أساسية لسير نظم الحياة والأعمال التي تحت ولايتها حتى تستقيم شؤونها وتسمي مجموع تلك القوانين بالدستور أو غير ذلك من الأسماء، ونحن إذا نظرنا إلى الإسلام سنجد أنه قد جاء من عند الله تعالى بدستور دائم معصوم يحفظ حياة الإنسان في الدنيا ويكون سبب نجاته في الآخرة، ومن خلال النظر في هذا الدستور السماوي العام نرى دستوراً خاصًا باللسان فيه قواعد أساسية لجعل اللسان عضواً صالحًا في بدن الإنسان يقول الخير ويصمت عن الشر، ويكون سببًا لصلاح حياة الإنسان مع ربه ومع أفراد جنسه.

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١١١).

فمن مواد ذلك الدستور المقدس:

المادة الأولى: كل قول تلفظه اللسان مدوّن في صحيفة الأعمال. قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨].

المادة الثانية: مجال القول في الخير فقط، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[١].

المادة الثالثة: النجاة في صمت اللسان عن كل باطل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صمت نجا)[٢].

المادة الرابعة: حقيقة إسلام المرء سلامة المسلمين من لسانه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[٣].

المادة الخامسة: حفظ اللسان طريق إلى الجنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لَحيه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[٤].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن أكثر الناس يقتصدون في استعمال ما فيه حساب مالي وله عدّاد يحسب كمية الاستخدام كالكهرباء والهاتف والجوال وغير ذلك، فلو كان الكلام كذلك لاستعملوا من القول بقدر الحاجة، وكان الصمت أكثر أحوالهم.

أفما علموا أن نطق اللسان محسوب أيضًا وإن لم يكن له عداد يُرى في الدنيا، لكن فواتير ذلك سُترى بعد الموت.

ألا فلنعلم -عباد الله- أن هناك من يعد كلامنا عداً دقيقًا أشد من عدادات خدمات الحياة، والعجيب أننا -نحن المسلمين- ندرك ذلك، غير أن بعضنا مازال يُطلق للسانه العنان في كل وادٍ، ولم يقصره على الحديث في الحق والسكوت في الباطل.

فهل من وقفة حازمة مع اللسان لنعلم بها متى نتكلم ومتى نسكت، فإن للكلام مواضع وللسكوت مواضع، وبذلك تكون النجاة، وسلامة الجوارح وصلاحها؛ إذ إن الجوارح تتبع اللسان استقامة واعوجاجًا، **ففي** الحديث: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان- أي: تذل له وتخضع- فتقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)[(١)].

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (اللّسان قوام البدن، فإذا استقام اللّسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللّسان لم تقم له جارحة)[(١)].

وعن يونس بن عبيد قال: "ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله"[(٢)].

أيها الأحباب الفضلاء، إن من قام على لسانه بالمراقبة، ووقف على حركاتها بالمحاسبة، وألجمها بدوام الخوف من سوء العاقبة ملك أمرَه، وأصلح شأنَه مع الخالق ومع الخلق، وغرس في نفسه الراحة والاطمئنان، وزرع له في قلوب الناس الإجلال والمودة، وكان بذلك قائداً لنفسه، لا مقوداً لها، يتحدث متى ما يريد، ويصمت حينما يشاء من غير أن تغلبه لسانه فينجر وراء أهوائها وفلتاتها.

ولينظر العاقل في العواقب الوخيمة التي تنتج عن هفوات اللسان، فإن فيها عن إطلاق القول مزدجرا، ولصاحب اللب الرشيد معتبرا. فكم من متكلم بباطل جنى به في الدنيا الحسرات والندامة، وكم تحت التراب من نادم ونادمة على إرخاء عنان اللسان وعدم التحرز بالصمت.

"احفظْ لسانَك أيُّها الإِنسانُ ... لا يلدغنَّك إنه ثُعبانُ

كم في المقابرِ من قتيلِ لسانِه ... قد كانَ هابَ لقاءَه الشجعانُ"[(٣)]

عباد الله، لنعمل بهذه الوصية النافعة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في

---

(١) الصمت، لابن أبي الدنيا(ص: ٦٩).

(٢) الصمت، لابن أبي الدنيا (ص: ٧٠).

(٣) الأذكار النووية للإمام النووي (١/ ٤٢٤).

هذين الحديثين الشريفين:

فعن الحارث بن هشام رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أملك هذا) وأشار إلى لسانه[١].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)[٢].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

---

(١) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

اللسانُ الثاني(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، يقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:١-٥].

هذه الآيات الخمس هي بواكير الوحي المنزل من السماء على سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم، قرعت سمعه الشريف بكلمات العلم ووسائله وهي: (اقرأ-علَّم-يَعلَم-

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٤/٤/١٤٤٠هـ، ٢١/١٢/٢٠١٨م.

القلم)، وقد تكرر في هذه الآيات ذكر لفظ: (اقرأ) مرتين، ولفظ: (علّم) مرتين أيضًا. **وهذا الاعتناء** بذكر القلم ونتائجه في أول ما نزل من الوحي يدل على أهمية العلم وطرقه، ويشير إلى أن هذه الأمة هي أمة القراءة والعلم والقلم؛ فللقلم فيها شأن عظيم، وشرف كبير؛ ولذلك أقسم الله تعالى في كتابه الكريم بالقلم وبما يسطره، ولا يقسم تعالى إلا بعظيم، بل سمى سورة باسم القلم فقال عز وجل في أولها: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم:١]، "فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته، الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، بالأقلام تُدبَّر الأقاليم، وتساس الممالك، والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودِعُها حكمه فتصير بوادر الفهوم والأقلام نظام الأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت"[١].

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهمْ ... وعدُّوه ممَّا يكسب العزَّ والكرمْ
كفى قلمَ الكتَّاب مجداً ورفعةً ... مدى الّدهر أنَّ الله أقسم بالقلمْ[٢]

أيها المسلمون، تقدم في خطبة ماضية الحديث عن اللسان وعن أهميته في البيان،

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢/ ٢٠٧).

(٢) الحماسة المغربية (ص: ١٢٢).

واليوم بإذن الله حديثنا عن اللسان الثاني ألا وهو القلم الذي له من الأهمية في الإبانة والإعلام ما للسان وقد يكون في بعض الأحوال أبلغ منه، وقد " قيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بَنَان، ومِن فضل بيان البنان: أنَّ ما تبيِّنه الأقلام باقٍ على الأيام، وبيان اللسان تدْرُسه الأعوام "[(١)].

ولذلك ذكر الحكماء أهمية القلم في بعض العبارات الموجزة، فقالوا: القلم أحد اللسانين، والأقلام مطايا الفِطَن، والقلم طبيب المنطق، والقلم أصم يَسمع النجوى، وأخرس يُفصح بالدعوى، وجاهل يعلَم الفحوى، والقلم سفير العقل، ورسوله الأنبل، ولسانه الأطول، وترجمانه الأفضل[(٢)].

عباد الله، إن القلم نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على الإنسان؛ فكمْ تُجتلب به من مصالح ومنافع، وتدفع به من مفاسد ومضار، وكيف ستكون أحوال الناس بدون القلم، وكيف سيواجهون من المشاق إذا غابت القراءة والكتابة من بينهم؟!

فمن رزقه الله القراءة والكتابة فقد أولاه نعمة جزيلة، ومن حق هذه النعمة: شكر الله تعالى عليها، ومن شكر الله على ذلك: استعمال القلم في المباحات والطاعات، ومنعه عن كتابة ما يغضب الله عز وجل، فالكتابة مصدر للحسنات والسيئات، فمن أحسن استخدام القلم في كتابة ما يرضي ربه سبحانه كان قلمه طريقًا له إلى الجنة، ومن أساء استعماله فكتب به ما يسخط مولاه تعالى كان قلمه طريقًا له إلى النار وغضب الجبار.

---

(١) البحر المديد (٨/١٥٢).

(٢) أدب الكتاب للصولي (ص: ١٤).

أيها الأحبة الفضلاء، إن الأقلام متفاوتة في الرُتب؛ فأعلاها وأجلها قدراً: قلم القَدَر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق؛ كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)[1]، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. والقلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله. والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين. والقلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة. والقلم الخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياسة الملك، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة. والقلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق. والقلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات. والقلم الثامن: قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله. والقلم التاسع: قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له. والقلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه، وهو

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن. والقلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها. والقلم الثاني عشر: القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سُنّة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها[(١)].

إن الاستعمال الحسن للقلم له مجالات كثيرة فيها خير لصاحبه في الدنيا والآخرة، فالأقلام ليست متفقة على نوعية ما تكتب، وتسطير ما تدوّن، بل هي مختلفة باختلاف حامليها في الهدى والضلال والعلم والفهم؛ فالقلم رسول صاحبه، وصورة لفكره وقلبِه وسلوكِه، وبه يسطر كلمات إلى الناس يقرأون من خلالها تصوره وأخلاقه وعمله وسلوكه؛ فلذلك تنوعت الأقلام؛ فهناك قلم خير وهناك قلم شر، وقلم هدى وقلم ضلال، وقلم منفعة، وقلم مضرة، وقلم صلاح وقلم فساد، وقلم عفة وحياء وفضيلة، وقلم فاحشة وفضيحة ورذيلة، وقلم طاعة واستقامة وإسلام، وقلم معصية وانحراف وكفر. وبهذا يتبين أن للقلم مجالات حسنة، ومجالات سيئة.

فمن المجالات الحسنة لاستعمال القلم: كتابة المصحف الشريف أو بعض آياته للحاجة إلى ذلك، كالتعلم والتعليم والدعوة، فلا كلام يكتب أحسن من كلام الله تعالى.

ومن ذلك: كتابة ما فيه ثناء وتعظيم وتقديس لله عز وجل، من باب الذكر أو الموعظة والدفاع ونشر الإجلال بين الناس لله، سواء كان ذلك تأليفًا، أم منشورات أم جملاً قصيرة تدعو إلى تعظيم الله جل جلاله.

---

(١) ذكر هذه الأقلام بالتفصيل: ابن القيم رحمه الله، التبيان في أقسام القرآن (٢/٢٠٨) وما بعدها.

ومن ذلك: الكتابة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل نشر هديه ومحبته وسيرته وسنته، والمنافحة عنه وبيان منزلته السامية.

ومن ذلك كذلك: التصوير الكتابي المؤثر -شعراً أو نثراً- لما في الكون من الآيات المنشورة الدالة على قدرة الله وإبداعه في خلقه.

ومن ذلك أيضًا: الكتابة السليمة عن فضل الإسلام وكماله وصلاحه وعلو شأنه؛ نشراً له بين الناس، وتثبيتًا للمسلمين عليه، ودعوة للكافرين والعاصين، ودفاعًا عنه في وجه هجمات المبطلين.

وكم ترك لنا حملة الأقلام النقية من السلف من التراث العلمي المشرق الذي سالت به أقلامهم على الصفحات تدوينًا لشرائع الإسلام ولغته، وعلومه ومعارفه، ودعوة إلى الأخلاق المحمودة، وتحذيراً من الأخلاق المذمومة، فكانت تلك الأسفار العلمية التي تركوها وراءهم برهانَ صدقٍ على سلامة أقلامهم، وآيةً بينة على الغاية المعرفية التي بلوغها حتى صاروا مفخرة من مفاخر الإسلام والعربية عبر الأجيال في كل الأمم.

ومن المجالات الحسنة في استعمال القلم: تدوين العلم النافع، والإكثار منه، فالعلم بالكتابة يبقى، وبدونها يضيع، وقد بوب الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب كتابة العلم) وساق عدة أحاديث، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[1].

---

(١) رواه البخاري.

ولقد أحسن عبد الله بن المبارك حيث يقول:

أيهـــا الطالــــب علــــمًا أئـــتِ حمـــاد بـــن زيـــدْ
فـــاقتبسْ علـــمًا وحلـــــمًا ثـــم قيّـــده بقيـــدْ[1]

وقال آخر:

العلـــم صـــيدٌ والكتابـــةُ قيـــدُهُ قيِّـــدْ صـــيودَك بالحبـــال الواثقـــهْ
فمـــن الحماقـــة أن تـــصيد غزالـــةً وتفكّهـــا بـــين الخلائـــق طالقـــهْ

ومن العلم النافع: العلم الدنيوي المشروع الذي فيه مصلحة للناس من طب وهندسة وصناعة وغير لك، فاستعمال القلم في تدوينه تعلمًا وتعليمًا ونفعًا استعمالٌ عظيم.

ومن المجالات الحسنة لاستعمال القلم: الكتابات الدعوية التي فيها تعليم للناس وإرشاد لهم، وفيها أمر بمعروف ونهي عن منكر، وكم شخصٍ اهتدى إلى الحق، وعدل عن طريق الباطل، وسلك سبل أعمال صالحة لم يكن يعملها، وسبب ذلك كلِّه كلمةٌ قرأها فأنارت له هذه الدروب.

والكتابة في هذا المجال ليست مقصورة على اللغة العربية، بل بأي لغة يعرفها الناس، وقد دخل في الإسلام في هذا العصر فئام من الناس على اختلاف لغاتهم وكان سبيلهم إليه: القراءة عنه باللغات التي يجيدونها. ومن ذلك أيضًا: الرسائل الطيبة إلى الوالدين التي فيها كلمات البر والحب والطاعة، فإنها تزرع في نفوسهم الرضا والراحة والسعادة، ومثلها كذلك الرسائل الحسنة إلى الأقارب والأرحام والأصدقاء، فكلمات

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٧).

تلك الرسائل تعمق روابط المحبة والوصال، وتذيب جليد القطيعة والانفصال.

ومن مجالات القلم الحسنة: مجال الإصلاح بين الناس وفضّ الخصومات بينهم، فقلم الصلح بين الخلق قلم شريف تحقن به دماء، وتسلم به حقوق، وتصان به حرمات. قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤].

ومن مجالات القلم الحسنة: مجال توثيق الحقوق المالية من بيع وشراء وهبة ووصية ووقف ودَين وإجارة ووديعة وأمانة ونحو ذلك؛ فإن الكتابة لهذه الحقوق أدعى لإثباتها، وأبعد لها عن النسيان والاختلاف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٢-٢٨٣].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)(١).

ومن ذلك أيضًا: الكتابة بشفاعة حسنة، وقضاء حوائج الناس وتفريج كرباتهم بها، فربَّ أسطر يخطها المرء في شأن أخيه المسلم ينفعه بها فيجلب له بها خيرا، أو يدفع عنه شرا؛ يكون له بها ثواب عظيم.

فهذه -معشر المسلمين- بعض المجالات الحسنة لاستعمال القلم، وهي جزء من شكر العبد لربه على معرفته القراءةَ والكتابة.

فمن الحماقة أن تصيد غزالةً ... وتفكّها بين الخلائق طالقهْ
وليْ قلمٌ في الخير يسخو بحبرهِ ... ويبخلُ إنْ شرٌّ دعاه ويَكتُمُ
فصيحٌ إذا ما الحقُّ قبَّل سِنَّهُ ... ولكنه في باطل الأمر أَبكمُ

عباد الله، وكما أن للقلم استعمالاً حسنًا يعود بالخير على صاحبه في عاجل أمره وآجله، فهناك أيضًا استعمال سيء للقلم بكتابة الكلام الذي يغضب الله تعالى، ويبعث على الشر بين الناس، وليس لهذا الاستعمال حد معلوم وأمثلة محصورة، بل مجاله رحب فسيح، **ولكن من النماذج على الاستعمال السيء للقلم:** كتابة ما فيه ظلم للناس كقتل بريء أو جرحه أو إيذائه، أو أخذ حقوقه أو منعه منها. ومن أمثلة قلم الظلم في التاريخ: ما فعله بَغِيض بن عامر بن هاشم حينما كتب ميثاق المقاطعة العامة من قريش لبني هاشم وبني المطلب، ونتج عنها حصار الشِّعب، فدعا رسول الله صلى الله على هذا الكاتب الظالم فشَلَّتْ يدُه(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٨٨).

ومن الكتابات الآثمة: تحريف الحق وإلباسه على الناس كفعل اليهود الذين قال الله عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩]. ويدخل في هذا: الكتابات المشككة بشرائع الإسلام، وإيراد الشبهات التي تلبس على الناس دينهم، وتحرفهم عن الهدى إلى الضلال.

ومن الكتابات الآثمة: تزوير الوثائق والسندات، وشهادةُ الزور، والأحكام القضائية العادلة عن الحق، فكم زاغت أقلام في هذا المجال فزورت وصايا وشهادات ملك الأراضي والبيوت وغيرها من الملكيات، واستُوليَ على حقوق اليتامى والأرامل، وكم سُفكت دماء وسُلبت حقوق بجرّة قلم ظالم!

ومن الكتابات الآثمة أيضًا: الكتابات الداعية إلى الخروج عن حصن الفضيلة إلى ركوب مطايا الرذيلة، وتركِ الحياء والعفة والحشمة والحفاظِ على العِرض والنسب، والمشجعةِ على ممارسة الفاحشة وسلوك طرقها، وما أكثر الأقلام الجارية في هذا المجال الآسن!

معشر المسلمين، إن مجالات القلم الحسنة، ومجالاته السيئة شاملةٌ للكلام كله: نثرِه وشعره، فكما أنه يطلب من المسلم أن يستعمل قلمه في المجالات الحسنة ويجنبه المجالات السيئة في النثر فهو مطلوب منه ذلك أيضًا في الشعر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشعر بمنزلة الكلام؛ حسنُه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام)(١).

فمن رزقه الله موهبة الشعر فليكتب منه الشعر النقي النظيف الذي ينطق بالحق

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

ويدافع عنه، وينأ عن الباطل وينافحه، فما أحسنَ الشعر في الثناء على الله وعلى ما يحب، وفي تصوير الفضائل والتحفيز عليها، وما أحدَّ سِنانه في مقارعة الباطل والمبطلين! **قال** تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلِم)[١]. **وقال** النبي صلى الله عليه وسلم لحسان: (اهجهم - أو هاجهم - وجبريلُ معك)[٢].

وهذه المجالات السيئة لاستعمال القلم هي ثمرة لزيغ الأقلام وطغيانها، فمن خاف مقام ربه، ورجا منه تعالى حسن المنقلب فإنه يمسك عنان قلمه عن الجريان في ميدان السوء، متذكراً أنه سيحاسب عما كتبت كفه وسطّرت يده، فكتابات البنان كنطق اللسان.

قال الشاعر:

ومـــا مِـــنْ كاتـــبٍ إلاَّ ســـيَفْنَى ... وَيُبْقِـــي الـــدَّهْرُ مـــا كتبَـــتْ يَـــدَاهُ
فـــلا تَكْتُـــبْ بكفِّـــكَ غـــيرَ شيءٍ ... يَـــسُرُّكَ في القِيامَـــةِ أنْ تَـــراهُ[٣]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) العقد الفريد (ص: ٣٥٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن القلم وسيلة للكتابة قد تطورت عبر الزمن، حتى وصل الناس اليوم إلى الكتابة الالكترونية، فظهر الحاسوب والفاكس والجوال ونحوها، وأصبحت هذه الآلات وسائلَ كتابةٍ أكثرَ من القلم المعهود، وغدا التعامل بها أسهل منه، وصارت لوحة المفاتيح في هذه الآلات هي القلمَ الجديد الذي يدوّن مستخدمُه عبرَه ما يشاء من الكلام.

وفي ظل هذه الوسيلة الحديثة كثر الكتّاب والكتابات، وتعددت مناهجهم ومجالات حديثهم، وخاصة بعد ظهور شبكة الانترنت وتنوعِ خدامات وسائل الاتصال عبرها من فيسبوك وواتساب وتلجرام وغيرها، وأصبحت هذه الخدمات في متناول الجميع -صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثًا، عِليةً وسُوْقة، صالحين وطالحين، وصار في مقدورهم أجمعين أن يكتبوا ما يريدون، وينشروا كتاباتهم على نطاق واسع بين الناس.

وهنا لا بدّ لنا من وقفة ونحن نتكلم عن القلم واستعمالاته الحسنة وغير الحسنة.

فنقول: إن الكتابة في هذه الوسائل الحديثة ونشرَ المكتوب منها إلى الناس قد تكون في الأمور المباحة بين الأقارب والأصدقاء والجيران، وبين الباعة والمشترين،

وبين أصحاب المصالح المعيشية المشروعة، فهذا الاستعمال لا بأس فيه.

وقد تكون الكتابة في الأمور التي يستحب نشرها؛ كالنصائح والمعارف والفضائل والعلوم النافعة، والتحذير من الشرور وأهلها. فهذه الكتابة خير عظيم، وأهلها يؤدون عملاً صالحًا حينما جعلوا حواسيبهم وجوالاتهم وسيلة خيرٍ استفادوا منها وأفادوا غيرهم بها، فكتبوا وقرأوا فيها المنشورات النافعة ونشروها، وتركوا المنشورات السيئة وحجبوها عن النشر.

وقد تكون الكتابة في الأمور التي تحرم كتابتها ونشر رسائلها، وهذا النوع يجب على المسلم الابتعاد عنه كتابة ونشراً، وللأسف أن أهل هذا النوع هم أكثر المستخدمين لهذه الوسائل الحديثة؛ فقد سخّروا جوالاتهم وحواسيبهم للكتابات السيئة، فبثوا عبرها منشورات الشبهات التي تتقيأ سمًا زعافًا يقتل حياة النفوس الطاهرة، ويُظلِم التصورات الصحيحة، ويكدر القلوب المشرقة، ونشروا كذلك منشورات الشهوات التي تهيّج إلى الحرام، وتدعو إلى مقارفة الآثام، فكم أخرجوا بتلك الكتابات الآسنة من محصن ومحصنة عن خدر العفاف والنقاء، وكم فرقوا بين زوجين مؤتلفين، وكم أحدثوا من مشكلات أسرية داخل المجتمع المسلم.

فيا أيها المسلم، استفد من هذه الوسيلة في كتابة القول الفاضل، والجُمل المشرقة بالخير والهدى، طلبًا للثواب من الله تعالى، ونفعًا للناس، ودفعًا للضرر عنهم.

واجعل جوالك دليلاً لك إلى الخير، ومحذراً لك من الشر. وعليك أن تحفظ فيه الأشياء الطيبة، وأن تحذف منه ما لا يُرضي الله تعالى؛ لأنه برهان على شخصيتك، والمعبر عن تصورك وسلوكك.

ولا تدخل به مجموعاتٍ أو مواقع أو صفحات أو حسابات تبثُّ السوء والشر. ولا تعمل مشاركة لمنشور أو مقطع صوتي أو مرئي حتى تتأكد أنه ليس فيه ما يغضب الله تعالى. واقرأ قبل أن تنشر، واستشر ذوي المعرفة قبل أن تصدق ما تشك فيه أو تجهله. وقبل أن تكتب اجعل نفسك كأنك تكتب إلى الله، أو تسطر رسالة ستعرض عليه، فماذا أنت كاتب فيها؟

سطورُك أقوالٌ ونشرُكَ لفظُها   وفي صُحُفِ الأعمال يا صاحِ حِفظُها
فسطِّرْ فإنّ المَلْكَ يكتبُ كلَّ ما   كتبتَ، وفي هذا لنفسك وعظها

وإياك ونشرَ الصور والمقاطع التي تثير الغرائز وتخدش الحياء، وإياك والمنشورات الطاعنة في الناس فالتثبت والتأكد مطلوب، فما أكثر الكذب والبهتان في وسائل التواصل الاجتماعي!

وأخيراً هذه رسالة خاصة أوجهها إلى كل إعلامي أو كاتب مرموق له قرَّاء ومتابعون كُثر فأقول له: اتق الله فيما تكتب؛ فاجعل قلمك قلمًا شريفًا نظيفًا يسطر ما يحبه ربك ويرضاه، فابنِ به حصون الفضل والفضيلة، واهدم به أوكار السوء والرذيلة، واجعل قلمك منارَ إشعاع يضيء بالكلمات النيرة التي تشرق بها النفوس والعقول، ويعشاْ بها خفافيشُ الضلال والظلام. وتذكّر أن الكلمة أمانة، وأن الكلمة قد يرقى بها صاحبها عند الله أعلى الدرجات، وقد يهوي بها إلى أسفل الدركات، وأن الكلمة مفتاح خير أو مفتاح شر.

عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب

الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)[١]. **فكان** علقمة بن وقاص يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث![٢].

قال الشاعر:

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... ويُوشِكُ أَنْ يكُونَ لَه ضِرامُ
فَإِنْ لَمْ يُطْفِهِ عُقَلاءُ قَوْمٍ ... فَإِنَّ وَقُودَهُ جُثَثٌ وهامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُها كَلامُ[٣]

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) رواه مالك والترمذي، والنسائي.

(٢) الزهد لابن حنبل (ص: ١٥).

(٣) الحماسة البصرية (ص: ٤٦).

شُكرُ اليدين[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، نحمد الله تعالى على أنْ خلقنا فأتقن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، وخلق لنا أعضاء بديعة نستعين بها في إقامة عبادتنا، وفي إصلاح عيشنا، ونعتمد على سلامتها في تسيير شؤون حياتنا، وفي الوصول إلى أسباب راحتنا وسعادتنا.

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٤٠/٤/٢١هـ، ٢٠١٨/١٢/٢٨م.

ومن تلك الأعضاء التي أكرمنا الله بها: اليدان، فما أعظم نعمة الخالق على الإنسان بهذا العضو؛ إذ كم يصل به إلى مصالح يبتغيها، ويدفع به أضراراً يخشاها.

تأمل-أيها الإنسان- في يديك وانظر ما أجملَ خلقهما وأحسنَ تركيبها**!** فقد خلقهما الله تعالى متساويتين، وجعلهما ممتدتين، مزودتين بعشرة أصابع، في كل يدٍ خمسةٌ منها، وهي الإبهام والسبابة والوسطى الخِنْصِر والبِنْصِر. وكل أصبع من الأصابع الخمسة له خلقة وشكل يخالف به سائر الأصابع.

وجعل سبحانه وتعالى اليدين أيضًا ليّنتين قويتين جميلتين، قابلتين للحركات المختلفة. وثبّت تعالى خلقهما في مكان مناسب من الجسم. وزوّدهما بأسباب الحياة والبقاء مدة حياة الإنسان ما لم يتعرضا لداء أو اعتداء.

عباد الله، لقد خلق الله تعالى في كل يد للإنسان ما به حياتها وسهولة الانتفاع بها، ففي كل يد كفٌّ بها راحةٌ وأصابع وسُلاميات، وفيها رُسغ وساعد ومرفق وعضد وعظام وأعصاب ودماء. ومن فضل الله تعالى على الإنسان في يديه: أن جعلهما قادرتين على الإمساك والإطلاق، وتحسس الأشياء، حتى صاراْ للأعمى بديلاً عن النظر في تمييز المحسوسات، وللأصم والأبكم لسانًا يعبر عن كثير من الكلمات بما تشكله الكف والذراع من حركات.

وتأمل -أيها الإنسان- في إبهامك تجد فيها آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته العظيمة، تلك الآية هي وجود البصمة فيها التي بها يتميز كل شخص عن غيره من بني آدم.

أيها الفضلاء، إن لليد شأنًا عظيمًا في الإسلام؛ ففي القرآن الكريم نجد آيات

متعددة تنسب جميع كسب جوارح العبد إلى يده، قال تعالى: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٧]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠]. ويبين الكتاب العزيز أن الأيدي ستشهد على أصحابها يوم القيامة بما كانوا يعملون في الدنيا، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥].

وفي حديث أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مما أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعداً لكن وسحقًا فعنكُن كنت أُناضل)(١).

وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في كل يد نصفُ الدية وفي كلتيهما الدية كاملة، وفي كل أصبع عشر من الإبل كما في حديث عمرو بن حزم(٢).

أيها الأحباب الكرام، انظروا إلى هذه الحياة وما فيها من أبنية مشيدة، وأشياء مصنوعة، وخدمات حياتية متعددة، ومصالح دنيوية متنوعة، أليست من نتاج نعمة الله على الإنسان باليدين، فلو لم تخلق هذه النعمة هل كنا سنصل إلى هذه المنافع؟

وانظروا أيضًا في بيعنا وشرائنا، وتواصلنا وتعاملنا، وتعلمنا وتعليمنا، ألم تكن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي، وهو صحيح.

اليدان وسيلة إلى بلوغنا ما نريد من تلك المعاملات؟

ولكن ما أكثرَ غفلتنا عن نعمة اليدين، وشكر الله عليهما!

فمن أراد معرفة عظم هذه المنة فليتفكر في المنافع التي ينالها بسبب يديه، ولينظر إلى من فقد يديه أو إحداهما- ببترٍ أو جَرح أو شلل أو مرض-كم يعاني من المشقة في الوصول إلى ما يصل إليه صحيحُ اليدين.

ألا فلنشكر الله تعالى على نعمة اليدين باستخدامهما فيما يرضيه، قبل أن نقف بين يدي الله تعالى فتشهد علينا أيدينا بما جنت من الأعمال السيئة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤].

ومن شكر الله تعالى على نعمة اليدين: استعمالهما في الأعمال التي يحب الله عملها، وكفهما عن الأفعال التي يكره الله فعلها.

أيها المسلمون، إن لليدين عبادات وأعمالاً صالحة كثيرة، فمن ذلك: الطهارة وبعض أعمال الصلاة، فباليدين يطهر العبد نفسه فيصير نظيفًا نقيًا، ويتوضأ ويستاك، فيقف بين يدي ربه للصلاة فيرفعهما مكبراً، ويضمهما إلى صدره قائمًا، ويعتمد عليهما راكعًا وساجداً، ويضعهما على فخذيه أثناء التشهد، ويرفع سبابة يمينه متشهدا.

وباليد يعطي المسلم زكاته وصدقته فيحسن إلى المحتاجين والمعوزين، **عن** أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1].

---

(١) متفق عليه.

وباليدين يجاهد المسلم في سبيل الله تعالى أعداءَ الدين فيرفع راية الإسلام ويعز المسلمين. قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١٤].

وبأصابع اليدين يذكر المؤمن ربه تعالى ويثني عليه مسبحًا مكبراً مهللاً حامداً محوقلاً محسبلاً. عن يسيرة رضي الله عنها -وكانت من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقِدن بالأنامل؛ فإنهن مسؤولات مستنطقات، ولا تغفلن فَتُنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ)[(١)].

وباليدين يعين الإنسان والديه ويقوم بخدمتهما، وبهما يأخذ بيد الأعمى والعاجز، وبهما يمسح رأس اليتيم فيغسل عن وجهه دمعة اليتم، ويرسم على شفتيه ابتسامة السعد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم)[(٢)].

وباليدين يرفع المرء الدعاء إلى الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين)[(٣)].

وباليدين يعمل الإنسان ويكتسب أسباب المعيشة، فعن المقدام رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود، وهو حسن.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٤) رواه البخاري.

والمسلم بيمينه يأكل ويشرب ويعطي ويأخذ، ويصافح الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليأكل أحدكم بيمينه ويشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه وليعطِ بيمينه؛ فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله، ويعطي بشماله)[(١)].

وعن أنس بن مالك، عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلمين التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقًا على الله أن يحضر دعاءهما[(٢)]، ولا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما)[(٣)].

أيها الإخوة الفضلاء، إن من عرف اللهَ تعالى وعرف عظم نعمته عليه باليدين استعملهما فيما يحبه المنعم عليه بهما، غير أن هناك من لم يكن كذلك حينما صرف قدرتهما فيما يغضب الله تعالى من الأعمال المتعدية على حق الخالق وعلى حق المخلوقين.

فمن سيئات اليدين: التعدي على الأبرياء من الخلق بقتل أو جرح أو ضرب؛ لأن هذا نوع من الظلم وقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرمًا، وهذا التصرف الضار بالناس ليس من صفات المسلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[(٤)].

فأين هذا المعتدي من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في سلامة يديه من ظلم الخلق؟ عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيء

---

(١) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) أي: يستجيب دعاءهما.

(٣) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٤) رواه أحمد، وهو صحيح.

قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهَك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل)[١].

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: (اعلم أبا مسعود، لَلهُ أقدرُ عليك منك عليه)، فالتفتُ فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله فقال: (أما لو لم تفعل للفحتْك النار أو لمستْك النار)[٢].

أفلا يتذكر من ظلم بيده الناس القصاصَ منه يوم القيامة بين يدي الحكم العدل؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَن ضرب سوطًا ظلمًا اقتص منه يوم القيامة)[٣].

ومن سيئات اليدين: الاعتداء ظلمًا على أموال الناس وممتلكاتهم بحرابة أو سرقة أو نهب أو سلب أو اختلاس أو خيانة أو رشوة أو تدليس أو تطفيف، أو نحو ذلك، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)[٤]. وقد جاء من الوعيد ما فيه زجر لكل معتدٍ بقوة يده على حق غيره، فمن أيقن به كفَّ عن ذلك الظلم، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، قالوا: وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله، فقال: وإن كان قضيباً من أراك)[٥].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن.

(٤) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٥)رواه مسلم.

حتى في وقت الشدائد والمجاعات يجب على المسلم أن يمسك يده عن المال الحرام، ويصبر على الحلال ولو قل حتى يفرج الله عنه، **فعن** أبي ذر رضي الله عنه قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً وأردفني خلفه وقال: (يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: تعفف، يا أبا ذر)(١).

ومن سيئات اليدين: لطم الخدود، وتمزيق الثياب عند المصيبة؛ كموت حبيب أو قريب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)(٢).

ومن سيئات اليدين: مصافحة النساء اللاتي لا يحل للمسلم مصافحتهن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يطعن في رأس أحدكم بِمِخْيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له)(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾[الممتحنة:١٢]. قالت: وما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها(٤). **ولفظ مسلم:** (وما مست كفُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: (قد بايعتكن) كلاماً).

ومن سيئات اليدين: تكفف الناس وسؤالهم أموالهم تكثراً وكسلاً عن العمل،

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣)رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح.

(٤) متفق عليه.

وليس عن ضرورة ملحة لا يجد لكشفها غير التكفف. **فعن** ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزعةُ لحم)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر)[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى، والعليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة)[٣].

ومن سيئات اليدين: الكتابة بالطعن في الله تعالى أو رسوله أو دينه أو المحرِّفة لكتابه أو تشريعه، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩].

أو الكتابات المسيئة إلى عباد الله الأبرياء بالتهم والسب، أو المسطّرة للشبهات التي تكدر العقول والنفوس، أو الشهوات التي تفسد القلوب والسلوك.

وستشهد البنان على ما خطت من حروف العصيان على صاحبها يوم المعاد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن اليدين حينما تخرجان عن شرع الله تعالى، فتقعان في المعاصي اليدوية فإن الشريعة قد جعلت زاجرين لهما عن تلك الذنوب: زاجراً في الدنيا، وزاجراً في الآخرة.

فأما زاجر الدنيا فهو على قسمين: زاجر بالحد، وزاجر بالتعزير.

فأما زاجر الحد، فإن هناك خطايا يدوية جعل فيها الشارع الحكيم حدوداً شرعية تأديبًا للعاصي، وتحذيراً لغيره أن يفعل مثل فعله، ومن هذه الحدود: حد السرقة وحد الحرابة، فحد السرقة المستوفية لشروط القطع يكون بقطع اليد من الرسغ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:٣٨-٣٩]. وأما حد الحرابة فيكون بقطع الأيدي والأرجل من خلاف: يد يمنى برجل يسرى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:٣٣-٣٤]. وهذان الحدان يزجران

المحدود عن المعاودة، ويزجران غيره عن المقارفة.

وأما زاجر التعزير، فهناك ذنوب تجنيها اليدان لكن لم يرد في الشريعة فيها حد معلوم، وإنما ورد فيها تعزير والتعزير هو: "عقوبة مشروعة على معصية أو جناية لا حد فيها، ولا كفارة"(١). **وهذه العقوبة** التعزيرية يقدرها القاضي؛ فقد تكون بحبس أو عقوبة مالية على الجاني أو غير ذلك مما يراه القاضي من وسائل التأديب، ومن تلك الذنوب المتعلقة باليدين: الغصب والنهب والاختلاس.

أيها الأحباب الفضلاء، وأما زاجر الآخرة فهو ذلك الوعيد الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المتعدي بيده ينتظره عقاب شديد يوم القيامة، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(٣).

أيها الأحباب الفضلاء، هذا نداء لكل من لم يحفظ يديه في إطار الحق، بل جعلها

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٥١٤).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

ممتدة في الباطل؛ أن يرجع إلى الله تعالى ويتوب إليه، ويعمق في قلبه شعور الخوف من ربه تعالى حتى يحجزه عن التعدي بيده، فابن آدم المقتول منعه من قتل أخيه خوفُ الله تعالى كما قال عز وجل عنه: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة:٢٨].

وليكثر هذا المرء من الأعمال الصالحة المكفِّرة للذنوب بعد التوبة إلى الله، ومن تلك الأعمال الماحية للخطايا: الوضوء، وكثرته تستلزم كثرة التنفل بالصلاة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء)[(١)].

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

(١) رواه مسلم.

حفظ الرِّجْلَين(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور:٤٥].

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٥/جمادى الأولى/١٤٤٠هـ، ١١/١/٢٠١٩م.

أيها الناس، إن الخلق مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، وآية بديعة من آيات قوته وإتقان صنعه، والإنسان خلقٌ من خلق الله جل وعلا أوجده سبحانه في هذه الدنيا تامّ الخلقة، مستوفي الأعضاء، جميل النشأة، حسن التصوير، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومما خلق الله تعالى من الأعضاء للإنسان: آلة المشي، ففي الآية السابقة ذكر الله تعالى أن ماء الحياة هو أصلٌ لخلق كل ما يدب على هذه الأرض، وبعد ذلك بيّن تعالى وسيلة مشي هذه المخلوقات؛ فذكر أن منها ما يمشي على بطنه كالأفاعي، ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنها من يمشي على أربع كالأنعام.

ومن نظر في آلة مشي الإنسان يرى أن الله تبارك وتعالى قد ميزه بتلك الآلة عن سائر المخلوقات، فخلق له رجلين اتصفتا بأحسن ما يمكن أن تكون عليه من الصفات؛ فقد خلقهما الله تعالى اثنتين ولم يكونا واحدة، وجعلهما متساويتين غير متباينتين، وجعلهما في أسفل البدن لا في أعلاه، وكوّنهما أحسن تكوين، فأنشأهما من لحم وعظم وعَصَب ودم، وجعل فيهما القوة التي بها يستطيع الإنسان حمل جسمه، والمشي بهما إلى مسافات بعيدة، ودفع ما يريد دفعه، وغير ذلك مما يحتاج فيه إلى قوة الرجلين.

كما برَأهما الله تعالى لينتين ليستطيع بهما المرء سهولة الحركة وتنوع التصرف؛ فعليهما يمشي، وبهما يصعد العوالي، وعليهما يقعد أنواع القعدات، وغير ذلك من منافع لين الرجلين.

وكوّن سبحانه وتعالى كل رِجل من قدم وساق وركبة وفخذ، وفي كل واحد من هذه الأجزاء أشياء دقيقة من الخَلق ليكمل انتفاع الإنسان بها، فسبحان الخالق القدير!

أيها المسلمون، هذه منزلة الرِّجلين في الخلق والنفع، وأما منزلتهما في الشرع فإنهما فيه عضو ذو مكانة مهمة في بدن الإنسان؛ فلذلك رتب على الاعتداء عليهما القصاص في حال العمد: الرجل بالرجل واليمنى باليمنى واليسرى باليسرى، وفي حال الخطأ وشبه العمد رتب على ذلك عوضًا ماليًا، ففي الرجلين كلتيهما الدية كاملة، وفي كل رجل نصف الدية، وفي كل أصبع عشر من الإبل، قال الله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥]. **وفي حديث** عمرو بن حزم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل)[(١)].

عباد الله، ليتأمل الإنسان في نعمة الله عليه بالرجلين حتى يدرك عظم منّة الله عليه بهما، فبرجليه يعيش حياة طبيعية مستقرة؛ يمشي بهما إلى حيث يشاء، ويتحرك كيف يشاء، ويلبس ما يشاء، ويمدهما ويثنيهما، ويرفعهما ويخفضهما، ويستعين بهما في صلاح عيشه الدنيوي كما يريد، ويتجمل بهما بين الناس بلا تعيير ولا نعت انتقاص يكدر خاطره، ويؤذي شعوره.

ولينظر نظرة أخرى إلى من أصيب في رجليه ببتر أو عرج أو عاهة أو ألمٍ كم يجد من العناء والنَّصَب، ويفقد من المصالح والمنافع، ويلاقي من الضرر، ويخسر من المال والعافية، وكم يشتاق أن يكون ذا رجلين صحيحتين حتى يصل بذلك إلى ما يتمناه.

ألا فليستيقظ الإنسان الغافل الصحيح الرجلين بعد هذا ليشكر الله على هذه النعمة، قبل أن لا يذكر قدرها إلا بعد إصابته بها، نسأل الله السلامة للجميع.

وإن من شكر الله تعالى على نعمة الرجلين السليمتين: استعمالهما فيما يحب الله

---

(١) رواه النسائي، وهو صحيح بشواهده.

تعالى، وإبعادهما عما يكره ويسخط. سئل أبو حازم رحمه الله فقيل له: " فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيتَ ميتًا غبطتَه استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتًا مقتهُ كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عز وجل "(١).

أيها الأحبة الفضلاء، إن استعمال الرجلين في مصالح الحياة الدنيوية لا يغفل عنه الإنسان، لكن هناك أعمال صالحة يصل المرء إليها باستعمال نعمة المشي، وهذه هي التي يغفل عنها كثير من الناس، فكان لابد من التذكير بها حتى نسعى إليها.

فمن العبادات التي تؤديها الرجلان:

المشي إلى المساجد لصلاة الجماعة والجمعة، وها أنتم -أحبابي- قد وصلتم إلى هذا المسجد ماشين على أقدامكم أو راكبين سياراتكم فاحمدوا الله على هذه النعمة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة:٩].

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في بيان فضل المشي إلى الصلوات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يلقى الله غداً مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن؛ فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا

(١) حلية الأولياء (٣/٢٤٣).

منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف)[(١)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ؛ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها)[(٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضًا: (وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة)[(٣)].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إذا خرج المسلم إلى المسجد كتب الله له بكل خطوة خطاها حسنة، ومحا عنه بها سيئة حتى يأتي مقامه)[(٤)].

وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها مع الإمام غفر له ذنبه)[(٥)].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: وصل الصفوف في الصلاة، وعدم ترك فُرجة في الصف، ولذلك أجر عظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خياركم ألينكم مناكب في الصلاة، وما من خطوة أعظم أجراً من خطوة مشاها رجل إلى فرجة في

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٣) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بسند حسن.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه ابن خزيمة، وهو صحيح.

الصف فسدَّها)[١].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان كذلك: أداء بعض أفعال الصلاة، ومن ذلك القيام، وخاصة الوقوف الطويل في الصلاة كصلاة الليل، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً)[٢].

وفي فضل القيام في الصلاة قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (صلاة القاعد نصف صلاة القائم)[٣].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: السفر إلى الحج والعمرة والقيام بأعمالهما.

ومن العبادات كذلك: خدمة الوالدين، وقضاء حوائج المسلمين، والسعي على الأرملة واليتيم والمسكين، والشفاعة الحسنة للناس، والمشي إلى نصرة المظلوم.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم: تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دَينًا أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهراً، ومن كظم غيظه ولو شاء أن

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وهو حسن.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبّت الله قدميه يوم تزل الأقدام)[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله تعالى قدميه يوم تزل الأقدام)[٢].

أيها المسلمون، ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: الخروج لطلب العلم النافع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة)[٣]. " أي: من مشى إلى تحصيل علم شرعي قاصداً به وجه الله تعالى جازاه الله عليه بأن يوصله إلى الجنة مسلمًا مكرمًا "[٤].

وقد ضرب علماؤنا السابقون رحمهم الله أروع الأمثلة في المشي إلى طلب العلم وقطعوا المسافات الطوال لإدراك بغيتهم من العلم[٥]. حتى لقد سار جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من المدينة إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنه في الشام من أجل حديث واحد![٦].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان أيضًا: الخروج إلى طلب الرزق من أجل الاستعانة بذلك على عبادة الله، وإعفاف النفس عن الآخرين، وتوفير القوت للأهل

(١) رواه الطبراني في الكبير، وهو حسن.
(٢) رواه أبو نعيم وأبو الشيخ الأصبهاني، وهو حسن.
(٣) رواه مسلم.
(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩/٤٢١).
(٥) ينظر في هذا الموضوع كتاب: الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي.
(٦) جامع بيان العلم وفضله - مؤسسة الريان (١/١٨٦).

والأولاد والتصدق على المحتاجين. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: المشي إلى جهاد أعداء الدين، وفي فضله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار)(١).

عباد الله، ما أجمل أن يمشي المسلم إلى زيارة أخيه المسلم وتفقد أحواله وتجديد عهد المحبة بينهما، فالمشي إلى ذلك عبادة من العبادات، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملَكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تَربُّها؟(٢) قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببتَه فيه(٣).

أما إذا كان المزور مريضًا فالأجر أعظم، والأثر أكبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عاد مريضًا أو زار أخاً له في الله ناداه منادٍ بأن طبتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا)(٤).

ومن حق المسلم على أخيه المسلم: المشي إلى إجابة دعوته، وتشييع جنازته، كما قال عليه الصلاة والسلام: (حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعُدْه

(١) رواه البخاري.

(٢) أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسببها.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

وإذا مات فاتبعه)[١].

ولمواضع العبرة نصيب للرِّجلين من العبادة، فالسير في الأرض للتفكر والنظر في بديع خلق الله، ورؤية مصارع العصاة والحائدين عن الحق عبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام:١١].

ومشي المسلم إلى المقابر للاتعاظ والاعتبار عبادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإن فيها عبرة)[٢].

أيها الأحبة الفضلاء، إن الإنسان إذا انحرف عن الهداية انحرفت قدمه عن الصراط المستقيم، فمشت رجلاه إلى أفعال سخط الله، أو مواضع غضبه تبارك وتعالى، وحينما نتكلم عن المشي بالرجلين إلى الحرام فإن ذلك يشمل من وصل إلى الحرام على قدميه أو على مركب، فلا فرق في ذلك.

فمن مشى إلى قتل نفس بريئة أو أخذ مال معصوم أو ممارسة فاحشة فقد عصى الله وما شكر ربه تعالى على نعمة المشي وغيرها من سائر النعم.

ومن سعى برجليه إلى الفتن واستشرافها فما أدى شكر نعمة المشي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به)[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، وهو حسن صحيح.

(٣) متفق عليه.

إن من سيئات الرجلين: أن يمشي بهما المسلم إلى النميمة أو تفرقة الصف المسلم أو إثارة الحقد والبغضاء بين المسلمين، فما أشد ما ينتظر هذا الماشي من العقاب، فعن ابن عباس قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: (إنهما ليعذبانِ وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)(١).

ومن سيئات الرجلين: الاختيال في المشي تكبراً وزهواً، فالمسلم مأمور بالتواضع في المشي والبعد عن التكبر فيه، قال تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[لقمان:١٨-١٩]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما رجل يمشي في حُلَّة تعجبه نفسه، مرجّل رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)(٢).

وقال ابن إسحاق- لما سرد قصة أبي دجانة وأخذه السيف من رسول الله يوم أحد وتبختره بين الصفين به-: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)(٣).

ومن سيئات الرجلين لدى المرأة: كشف قدميها وما فوقهما من الرجلين لينظر إليهما من لا يحل له النظر إلى ذلك، والمشي في الطرقات والأسواق بإصدار صوت الحذاء أو النعل للفت الأسماع والأنظار إليها ليعلم ما عندها من الحسن والزينة، قال تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾[النور:٣١]. **واللائق** بالمؤمنة

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٦٦).

ستر زينتها إلا لمن أحل الله له النظر إليها، والمشي بين الناس بحياء من غير استدعاء النظر إليها، قال تعالى عن ابنة صاحب مدين: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[القصص:٢٥].

ومن السيئات كذلك: أن يصيب الإنسان بقدمه أو رجله أحداً ظلمًا، ركلاً أو رفسًا، فمن فعل ذلك اقتص منه يوم القيامة.

ومن سيئات الرجلين أيضًا: الذهاب إلى أماكن اللهو والمجون كدُور الرقص والغناء، وكذلك تتبع النساء وملاحقتهن في الأسواق والطرقات، فإن هذا العمل المشين لا يليق بذي خلق كريم، ولا بامرئ يخاف الله العظيم، ويخشى على حرماته.

يذكر بعض أهل الأدب في القرون السالفة أن امرأة قدمت مكة للحج أو العمرة فطافت يومًا بالبيت وحدها، فجعل أحد الماجنين يتتبعها ويريد منها أن تكلمه وهي تأبى، وفي اليوم التالي جاءت لتطوف مع أخيها فجاء ذلك الرجل لملاحقتها، فلما رأى أخاها معها انكف وانزجر، **فقالت متمثلة بقول أحد الشعراء:**

تَعْدُو الذئابُ على مَنْ لا كِلاَبَ له ... وتَتّقي صَوْلَةَ المُسْتأسِدِ الحَامي(١)

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) كتاب الأغاني، للأصفهاني (١/٨٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن استقامة المرء في رجليه، وحفظهما بلزوم طريق الحق، وعدم انحرافهما عنها دليل على محبة الله لصاحبهما، فما أحسن أن يكون المسلم كذلك، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها)[١]. **والمعنى:** أن الله يسدده في هذه الجوارح فلا يقع منه بها إلا الخير.

وأما من لم تستقم رجلاه على صراط الحق فليتذكر أنهما ستشهدان عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، **وعن** أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مما أضحك ؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم ؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي قال: فتنطق بأعماله قال: ثم

(١) رواه البخاري.

يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعداً لكُنَّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل)[١].

عباد الله، ألا من كان منحرف الخطى عن الجادة سالكًا مناهج الغضب فليتب إلى ربه وليكن مثل ذلك القائل الكريم:

لَعَمـرُكَ مـا أَهوَيـتُ كَفّـي لِرِيبَـةٍ ... وَلا حَمَلَتنـي نَحـوَ فاحِـشَةٍ رِجـلي
وَلا قـادَني سَـمعي وَلا بَـصَري لَهَـا ... وَلا دَلَّنـي رَأيـي عَلَيهـا وَلا عَقـلي
وَلَـستُ بِـماشٍ مـا حَييـت لِمُنكَـرٍ ... مِنَ الأَمرِ لا يَمشي إِلى مِثلِهِ مِثلي[٢]

فعلى المسلم العاقل أن يسارع إلى مسالك الخيرات، ومواضع الطيبات، وخصال الصالحات، وليستغل نعمة المشي إلى ذلك قبل أن يندم حينما يُحبس عن ذلك، وليكن له قدوة بأولئك الصالحين الذين يسارعون إلى الخير مع وجود الإعاقة في أرجلهم، فهذا عمرو بن الجموح رضي الله عنه كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم أن لا تمنعوه؛ لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقتل يوم أُحد[٣]، رضي الله عنه وأرضاه.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

---

(١) متفق عليه.
(٢) أمالي القالي (ص: ٢٤١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٠).

حفظ البَطن(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن خَلْق الإنسان آية باهرة على قدرة رب العالمين، وبرهان ساطع على إبداع أحسن الخالقين، فلو فكر الإنسان فيما أودع الله فيه من أمارات كماله، وأدلة توحده وجلاله لأقبل عليه بالعبادة والشكر، ولانقطع إليه بالثناء والحمد، فشغل به عن غيره، وانصرف إليه عن كل شاغل عنه.

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٩/٥/١٤٤٠هـ، ٢٥/١/٢٠١٩م.

وبعون الله تعالى سنقف اليوم متأملين في عضو من أعضاء الإنسان ليدعونا ذلك إلى شكر الله عليه، واستعماله في مراضيه، هذا العضو هو البطن.

انظر -أيها العاقل- بعين بصرك وعين بصيرتك إلى نعمة الله عليك ببطنك، لترى كم فيه من النعم والمنن، وكم فيه من مظاهر رحمة الله بك، وآثار إكرام الله لك. فالبطن لك مستودع الحياة الذي تقوم على ما فيه حياة بدنك وصحته؛ فقد جعل الله تعالى فيه أجهزة متعددة تقوم بدور الحفاظ على نعمة الحياة؛ ففيه الجهاز الهضمي، والجهاز التناسلي، والجهاز البولي، وفي كل جهاز منها أجزاء دقيقة يقوم عليها، ويستمر عمله بها.

انظر كم في بطنك من عجائب الإنشاء ودقة الخِلقة، وعظم وظائفها، واستمرار أعمالها، فتأمل في المعدة، والأمعاء الغليظة والأمعاء الدقيقة، والبنكرياس، والزائدة الدودية والكبد والمرارة والطحال والصِفَاق والكلى والحالبين والمثانة وغيرها، ستجد أن سلامتها سبب لسلامتك وابتهاجك ونشاطك، وأن سقمها طريق إلى عنائك وخسارتك وإعاقتك وتكدر عيشك.

وتأمل كذلك في الوظائف التي يقوم بها الجهاز الهضمي؛ فأنت تأكل وتشرب فتسلم الطعام إلى هذا الجهاز وتنتهي وظيفتك إلى هنا، وهو الذي يتولى بعد ذلك هضمه وتنقيته وامتصاص ما يفيد الجسم منه، وطرد الفضلات الزائدة، وكل ذلك يقوم على عمل دقيق واتقان بديع من غير كسل ولا توقف.

فلم يحتج الغذاء بعد ذلك منك إلى عمل آخر أو قضاء وقت في متابعته والاطمئنان على الانتهاء منه، وتوزيع حصص البدن منه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أيها المسلمون، ولو نظرنا نظرة أخرى إلى بديع خلق الله لعضو البطن فسنرى عجبًا، فمن ذلك: أن الله تعالى لما جعل البطن حاويًا ما به بقاء حياة الإنسان مما يحتويه من الأجهزة والأعضاء فإنه قد اختار أن يكون البطن في منتصف بدن الإنسان من أجل الحفاظ عليه، كما أنه تعالى جعل أكثر أعضائه وأجهزته فيه في مقدمة الجسم ولم يجعلها في ظهره؛ من أجل مصالح كثيرة للإنسان، منها: أن يرى الخطر عليها فيحميها منه، فسبحان الخالق القدير.

إن المرء لو بقي يسرد آيات قدرة الله في كل جزء في البطن مما يذكره الأطباء والحكماء لما كفته خطب عديدة، غير أن الإشارة إلى بعض ذلك تكفي اللبيب ليعتبر فيشكر بارئه العظيم.

أفلا نشكر الله تعالى على نعمة البطن التي منّ بها علينا، فنملأه بالحلال، ونحميه من الحرام؛ فإن الشكر طريق إلى دوام النعمة، وابتعاد النقمة.

عباد الله، لما كان أكثر المهام التي يقوم بها البطن هي استقبال الطعام والشراب وهضمهما وتحويلهما إلى مواد نافعة للجسم، وإخراج ما زاد عن ذلك إلى خارج البدن؛ فإن شكر الله عليه: أن لا يدخل المسلم فيه غذاء إلا من حلال، وأن ينزهه عن كل حرام من مطعوم ومشروب. **قال** تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[النحل:١١٤].

والحرام في المطعوم والمشروب يشمل ما كان حرامًا في أصله مثل أكل لحم الخنزير والميتة، ومهر البغِي وحُلوان الكلب، وثمن الكلب، وشرب الخمر وسائر المسكرات، ويشمل أيضًا كل طعام وشراب مباحين جاءا من طريق حرام كالربا والرشوة والغِش

والسرقة وأخواتها، وسائر أكل أموال الناس بالباطل.

إن اختيار الحلال والتنزه عن الحرام هو من حفظ البطن المأمور به، والحياء الصادق من الله تعالى، **فعن** عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استحيوا من الله حق الحياء)، قال: قلنا: يا نبي الله، إنا لنستحيي والحمد لله، قال: (ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)[١].

فمِن شكر الله تعالى على نعمة البطن: أن لا يدخل إليه المسلم إلا ما أحله الله فيكون ذلك البطن خاليًا من الحرام، فينبت الجسم من آثار ذلك الطعام نباتًا حسنًا، فيكون أثره صلاحَ حال المسلم في دنياه وآخرته.

إن المؤمن يتحرى الحلال في طعمته وشربته، ولا تغلبه شهوته وهواه وحرصه على لذات الدنيا ومصالحها حتى يوصل الحرام إلى بطنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه[٢]. سبحان الله! هكذا بطون المؤمنين النقية لا تقبل لقمة الحرام وإن كانت من غير تعمد.

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن

(٢) رواه البخاري.

وعلى رب الأسرة وعائلها الحريصِ على إطعام أسرته أن ينتبه من أن يصل به حرصه إلى جلب الحرام وإطعام أهله وأولاده منه، ولاشك أن الأسرة الصالحة من زوجة وأولاد يعينون عائل الأسرة من زوج وأب على الحلال، "وهكذا كانت عادة النساء في الأزمنة الفاضلة؛ كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام؛ فإنا نصبر على الجوع والضر، ولا نصبر على النار"(١). **قال** بعض الصالحين: " الدنيا بطنك، فبقدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا"(٢). يعني: يُعرف زهدُ الإنسان بزهده فيما يدخل بطنه؛ فإن كان لا يتحرى ذلك فليس بزاهد، ولو زهد ثوبه ومنظره، وإن كان متحريًا بعيداً عن إدخال الحرام إليه فهو الزاهد حقًا، ولو حسن ملبسه، وبرقت النعمة على وجهه.

عباد الله، إن أكل الحرام له آثار سيئة على صاحبه في الدنيا والآخرة، فلو فكر أَكَلَةُ الحرام بذلك وأيقنوا بما جاءت به النصوص الشرعية من التحذير من ذلك لارتدعوا وسلموا، وقل الفساد في المجتمع؛ إذ إن من أعظم أسباب الفساد المالي والإداري والأخلاقي أكل المال الحرام.

فمن تلك الآثار السيئة: عدم قبول الأعمال الصالحة عند الله وحجب إجابة الدعاء عن آكل الحرام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون:٥١]، **وقال:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

(١) إحياء علوم الدين (٥٨/٢).

(٢) حلية الأولياء (٢٣٣/١٠).

تَعْبُدُونَ﴾[البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمة حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)؟[(١)].

قال ابن رجب رحمه الله: "وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّه لا يُقبل العملُ ولا يزكو إلاَّ بأكل الحلال، وإنَّ أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبولَه، فإنَّه قال بعد تقريره : (إنَّ الله لا يقبلُ إلاَّ طيباً) إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[المؤمنون:٥١]، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[البقرة:١٧٢]، **والمراد بهذا** أنَّ الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً، فالعملُ صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكلُ غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولاً. وما ذكره بعد ذَلِكَ من الدعاء، وأنَّه كيف يتقبل مع الحرام، فهوَ مثالٌ لاستبعاد قَبُولِ الأعمال مع التغذية بالحرام؟ "[(٢)].

وقال أبو عبد الله الناجي الزاهد رحمه الله: "خمسُ خصال بها تمامُ العمل: الإيمان بمعرفة الله – عز وجل –، ومعرفةُ الحقِّ، وإخلاصُ العمل للهِ، والعمل على السُّنَّةِ، وأكلُ الحلالِ، فإن فُقدَتْ واحدةٌ، لم يرتفع العمل.. "[(٣)].

ومن الآثار السيئة لأكل الحرام: سوء المصير يوم القيامة والعقوبة فيه، والإفلاس من الحسنات يومئذ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي

(١) رواه مسلم.
(٢) جامع العلوم والحكم (ص: ١٠٠).
(٣) جامع العلوم والحكم (ص: ١٠١).

يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]. **وقال** صلى الله عليه وسلم: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[١]. **قال** جندب بن عبد الله رضي الله عنه: " إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل "[٢].

فاتقوا الله-عباد الله- فيما تأكلون وتشربون؛ تحروا كسبكم، واقنعوا بالحلال منه ولو كان قليلاً، وتجنبوا أكل المحرمات وشربها، وأتقنوا أعمالكم وانصحوا فيها، وابتعدوا عن الخيانة في الأعمال والوظائف؛ حتى يسلم كسبكم فتطعموا أنفسكم وأهليكم وأولادكم الحلال الطيب المبارك.

أيها الأحباب الفضلاء، إن البطن وعاء محدود فينبغي ملؤه بالطعام والشراب بقدر الحاجة؛ فالشبع الدائم الذي قد يحصل إلى حد التخمة أحيانًا يعود على الجسد بالمضرة، وكم تكلم الحكماء والأطباء عن مفاسد التخمة والإفراط في الأكل، وقبلهم **يقول نبينا** صلى الله عليه وسلم: (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أُكيلات يُقِمن صُلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه)[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان وابن ماجه، وهو صحيح.

إن الأطباء عندما يتكلمون عن أضرار زيادة الأكل فإنما يعنون أن حاجة الجسد من الطعام يسيرة فيكفي منه القليل، والباقي يكون زائداً عن الحاجة فيتحول إلى سموم تضر البدن ؛ إما بحصول أمراض، وإما بحدوث سمنة مفرِطة، وإما تضرر بعض أعضاء الجهاز الهضمي، وقد تصل ببعض الناس في حالات إلى الموت. وكم من إنسان أكل أكلة فأسرف فيها فكانت داءه الذي امتنع بسببه عن كثير من الطعام بعد ذلك. قال الشاعر:

وَرُبّتَ أكلةٍ منعتْ أخاها ... بلذةِ ساعةٍ أكلاتِ دهرِ

وكم من طالبٍ يسعى لشيء ... وفيه هلاكُه لو كان يدري![1]

وأما الأنبياء والحكماء وأطباء القلوب والأرواح فإنهم إذا حذروا من مفاسد الشبع الدائم وكثرة الطعام فغرضهم أن مخالفة ما حذروا منه تؤدي إلى أضرار دينية وأضرار معرفية؛ فالشبع مجلبة للآثام منقصة للإيمان، مقسٍّ للقلب، فإذا ملأ الإنسان بطنه انتكست بصيرته، وتشوشت فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة المتصاعدة من معدته إلى دماغه، فلا يمكنه نظر صحيح، ولا يتفق له رأي صالح، وقد يقع في مداحض فيروغ عن الحق. وكذلك يغلب عليه الكسل والنعاس فيمنعه عن وظائف العبادات، وحينما تقوى قوى البدن وتكثر المواد والفضول فإنه سينبعث غضبه وشهوته وتشتد مشقته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه فيوقعه ذلك في المحارم[2]. كما أن البِطنة تذهب الفطنة، وتزيل صفاء الفكر والرأي، فعلى العاقل البعد عن الشره وشدة الشهوة إلى الطعام؛ فإن الطعام الكثير واللذيذ وإن كان حلو الأوائل

---

(١) زهر الأكم في الأمثال و الحكم (ص: ٢٨١).

(٢) فيض القدير (٤/٢٤٢).

الأوائل لكنه مر العواقب.

قال الشاعر:

وإنّـكَ مَهْـما تُعْـطِ بَطْنَـكَ سُـؤلَهُ وفَرْجَكَ، نـالا مُنتهَـى الـذّمّ أجمعَـا[١]

أيها المسلمون، وللحفاظ على سلامة الإنسان روحيًا وعقليًا وبدنيًا حث الإسلام على التقليل من الأكل، ودعا إلى الصيام؛ فقد شرع الله تعالى صيامًا سنويًا واجبًا هو شهر رمضان، وصيامًا مستحبًا في أيام معلومة من الأسبوع والشهر والسنة، وذلك أن هذا التجويع الشرعي للبدن يعود عليه بالصحة فيريح الجهاز الهضمي من عمله، ويخرج عن الجسد المواد السامة، وهو أيضًا عبادة تذكر العبد بنعمة الله عليه بالطعام، وتحثه على الرحمة بالجوعى والمحتاجين، وتصلح قلبه وروحه. وهذه النتيجة الطيبة يصل إليها العبد الصائم إذا لم يسرف عند سحوره وإفطاره وعشائه، أما إذا فرط في الأكل عند ذلك فلا فائدة كبيرة تعود عليه من الصيام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) ديوان حاتم الطائي (ص: ٤٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، هناك بشارة لكل مسلم أصابه مرض في بطنه-في معدته أو كبده أو أمعائه أو كُلاه أو غير ذلك- فساقه ذلك المرض إلى الموت، هذه البشارة قالها رسولنا صلى الله عليه وسلم، يقول عليه الصلاة والسلام: (المبطون شهيد، والمطعون شهيد)[(١)]. **وفي رواية** لمسلم: (ومن مات في البطن فهو شهيد)، **يعني:** أنه يعطى ما يعطاه الشهيد من الأجر والإكرام يوم القيامة، وما أعظمها من كرامة للمسلم إذا صبر على دائه، واحتسب أجره به عند ربه!

عباد الله، ما مصير بطون العصاة يوم القيامة؟

لقد ذكرت بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما ينال البطون من نار الآخرة، فيقول تعالى عن أهل جهنم وما يدخلونه إلى بطونهم: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[الدخان:٤٣-٤٦]، ويقول عن مقدار هذا الطعام: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[الواقعة:٥١-٥٣]. **ويقول** جل وعلا عن الشراب: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[الحج:١٩-٢٠].

---

(١) رواه البخاري.

فليحذر الإنسان الحريص على نفسه أن يصير هذا المصير، وتكون بطنه وعاء لهذا العذاب المرير.

ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم عن الذي يشرب في آنية الذهب أو الفضة: (الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم)(١).

ويقول عن الذي كان في الدنيا يأمر الناس بالمعروف ولا يفعله، وينهاهم عن المنكر ويرتكبه: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه-يعني: تخرج أمعاءه- فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)(٢).

ألا فلنحفظ-عباد الله- بطوننا عما يضر أرواحنا وأجسامنا، وعما يعود علينا بالشر في دنيانا وأُخرانا، فاللبيب من سمع ووعى، وعما يضره كفّ وانتهى.

نسأل الله السلامة وأن يعيننا على الاستقامة، وأن يوفقنا لأداء شكر فضله علينا بنعمة البطن، وأن يجنبنا كل حرام يصل إليه.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

شكر القلب(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، "القلب" كلمة عظيمة يعبر بها الناس عن وسط الأشياء وخيارها، وأحسنها وأفضلها، وقد أخذوا ذلك التعبير من معرفتهم أهمية القلب في بدن الإنسان، ودرايتهم أثرَه على سائر جسمه.

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٣/٦/١٤٤٠هـ، ٨/٢/٢٠١٩م.

فالقلب هو مركز الحياة في بدن الإنسان وروحه؛ والبدن إنما هو القلب، والروح لا حياة فيها بدون حياة القلب.

والقلب من الناحية البدنية هو عضو عضلي يضخ الدم عبر الأوعية الدموية، ويزوِّد الجسم بالأوكسجين والمغذيات، وبذلك تبقى حياة البدن مرهونة بسلامة القلب؛ فإذا صحّ صحت، وإذا مرض مرضت، وإذا مات ماتت، وبذلك يحتل موقعًا مهمًا في حياة جسم الإنسان؛ لذا يحرص الناس حرصًا شديداً على سلامته من الأدواء، ويخشون عليه المرض أكثر من غيره من الأعضاء، فإذا سقم لم يتهاونوا في الاستشفاء له، ولو بذلوا في ذلك الأموال الطائلة.

وأما من الناحية الروحية فإن القلب هو المؤثر في الروح صحةً ومرضًا؛ فمتى صح القلب بالإيمان وأعماله صحت الروح، ومتى مرض مرضت.

ولهذا كله أولى أطباء البدن القلب عناية عظيمة؛ حرصًا على سلامة بدن الإنسان، وكذلك اهتم الدين بالقلب اهتمامًا كبيراً؛ من أجل سلامة الروح التي بسلامتها حصول السعادة في الدنيا والآخرة.

عباد الله، إن القلب هو محل الخير والشر، فخيره على الجوارح كلها، وشره كذلك، فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما أخبر نبينا الكريم، عليه الصلاة والسلام.

فلا تخفى بعد هذا أهمية القلب وعلو شأنه، خاصة أن القرآن والسنة قد أكثرا في نصوصهما من ذكر القلب وأحواله وهذا يعزز تلك الأهمية، ففي القرآن العظيم ذكر الله تعالى في آيات عديدة أن القلب هو محل الإيمان أو الكفر أو النفاق، ومحل اللين أو الخشوع أو القسوة، ومحل القبول أو الجحود، ومحل الرحمة أو الفظاظة، ومحل الطهارة

أو المرض، ومحل الصبر أو الجزع، ومحل الهداية أو الزيغ. **قال تعالى**: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:١٦]، **وقال**: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[البقرة:١٠]. **وقال**: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨].

وفي السنة الشريفة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القلب هو محل الصلاح أو الفساد، ومحل التقوى، ومحل نظر الله من العبد، ومحل التمييز بين البر والإثم، ومحل عرض الفتن عليه أينكرها أم يقبلها، وهذا يدل على أهمية القلب من الناحية الروحية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(١).

أيها المسلمون، ولما كان القلب في هذه المنزلة السامية من الأهمية والأثر كان على الإنسان أن يشكر الله على نعمته عليه بالقلب الذي يصلح به دينه ودنياه، ويسأله أن يعينه على حفظه من كل شر.

فكيف يكون شكر القلب يا عباد الله؟

إن شكر القلب على وجه العموم: يكون بالحفاظ على حياته وصحته الإيمانية؛ وبهذا يؤدي حق الله تعالى وحق خلقه، فتسرع الجوارح إلى الطاعات، وتبطئ عن السيئات، وتكون السعادة في العاجل والآجل، قال ابن القيم: "والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين [كمال حياته ونوره] **قال تعالى**:

---

(١) رواه مسلم.

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما **قال** في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]. **وقال** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤]. فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك "[١].

ومن وسائل حصول حياة القلب وصحته: حب الحق وإيثاره على غيره، وقبول ما جاء به، فعلى المسلم أن يوطن قلبه على استقبال نور الحق والعمل به، وأن لا يقدم عليه الباطل مهما كان مغريًا.

ومن تلك الوسائل أيضًا: الحرص على كثرة ذكر الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه؛ فإن ذلك للقلب كالماء للسمك. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨]. **ويقول** سبحانه في الأمر بالذكر وذكر فائدته: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢].

ومن ذلك أيضًا: الإكثار من قراءة القرآن قراءةً متأنية متدبرة، تغرس في القلب معاني القرآن وآثاره، وليس قراءة تأتي على الآيات والسور ولا تتجاوز الأبصارَ إلى البصائر، ولا اللسانَ إلى شغاف الجَنان. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤].

ومن وسائل حياة القلوب وصحتها: زرع توحيد الله ومحبته في القلب، وتعاهد

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٢١).

ذلك بالمتابعة والتنمية، فليس هناك "صلاح للقلوب حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ وعظمتُه ومحبَّتُه وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤهُ والتوكلُ عليهِ، وتمتلئَ مِنْ ذَلِكَ، وهذا هوَ حقيقةُ التوحيد، وهو معنى لا إله إلا الله، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى يكونَ إلهُها الذي تألَهُه وتعرفه وتحبُّه وتخشاه هوَ الله وحده لا شريكَ له"(١).

ومن الوسائل أيضًا: الزهد عن الدنيا، والرغبة في الآخرة؛ فمن تعلق قلبه بالآخرة وما فيها، وأعرض عن الدنيا وزينتها صلح قلبه واستقام فأدى بذلك شكر الله تعالى. فهذا من شكر القلب.

أيها الأحبة الفضلاء، إن من جحود النعمة أن يملأ العبد قلبه بمساخط الله، والذنوبُ هي تلك المساخط وهي أمراض القلوب، وليس أضر على القلب من مقارفة الذنب، ولا حياة له إلا بتركه:

رَأَيــتُ الــذُّنُوبَ تُمِيــتُ القُلُــوبَ ... وَقَــد يُــورِثُ الــذُّلَّ إدمَانُهَــا
وَتَــركُ الــذُّنُوبِ حَيَــاةُ القُلُــوبِ ... وَخَــيرٌ لِنفــسِكَ عِــصيَانُهَا(٢)

وهذه الذنوب الواردة على القلب قد تكون ذنوب شهوات تعارض الأمر والنهي، وقد تكون ذنوب شبهات تعارض أخبار الوحي.

فمن الناس من يعمر قلبه بالكفر أو النفاق أو الشك فيما يجب اليقين به، أو حب البدع والميل إليها.

ومن الناس من يملأه بأمراض أخرى مثل: الرياء والعُجب، والحسد والغِل، والكيد والمكر، والقسوة، وحب الفواحش.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب(٤/ ٤٩).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١/ ١٠).

وهذه الأمراض الباطنة لها أثر كبير على أعمال الجوارح، فما في الجوارح من الاعوجاج إنما هو أثر تلك الأمراض القلبية. ولا سلامة لدين الإنسان وراحة دنياه إلا بالسلامة من تلك الأمراض المهلِكة.

فعلى من يريد قبول عمله الصالح أن ينزع من قلبه العجب به، ومراءاة المخلوقين بعمله؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٢-٣].

وعلى من أراد الراحة والسعادة، والسلامة من الظلم والحيف أن ينقي قلبه من الحقد والحسد لإخوانه المؤمنين، وأن يحاول الانتصار على نفسه بتطهيرها من هذا الدغل.

وعلى من أراد التأثر بالقرآن والطريق إلى العمل به، وأراد الرحمة بمن يستحقون الرحمة أن ينزع القسوة من قلبه، ويحل محلها اللين لذكر الله وآياته، والعطف على إخوانه المسلمين، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٢٢-٢٣].

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، ويطهرها من كل سوء.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن القلب إذا شكر الله تعالى؛ فحُلِّي بما يحب الله تعالى من الأعمال الإيجابية، وخُلِّي عما يكره الله تعالى من الأفعال السلبية فقد صار قلبًا حيًّا صحيحًا. "وحياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه"[(١)]. فـ"إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسنَ الحسن بنوره وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح"[(٢)]. وأصبحت حياة القلب هي الطريق إلى الوصول إلى الله تعالى، والتنعم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فمن كان أتمَّ حياة في قلبه كان أتم حياة في دنياه وآخرته.

وبتلك الحياة يصير القلب قلبًا شاكراً، متصفًا بأحسن الصفات، متجملاً بأجمل السمات.

فالقلب الشاكر قلب صالح، وهذا القلب الصالح يعود صلاحه على الجوارح كلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[(٣)].

قال ابن رجب رحمه الله: "فإنْ كان قلبُه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٢٣).

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٢١).

(٣) متفق عليه.

الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها، وتوقِي للشبهات؛ حذراً مِنَ الوقوعِ في المحرَّمات، وإنْ كان القلبُ فاسداً قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب؛ ولهذا يقال: القلبُ مَلِكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيءٍ من ذلك، فإنْ كان الملكُ صالحاً كانت هذه الجنود صالحةً، وإنْ كان فاسداً كانت جنودُه بهذه المثابَةِ فاسدةً، ولا ينفع عند الله إلاّ القلبُ السليم"[(١)].

والقلب الشاكر متى امتلأ بعظمة الله" محا ذلك مِنَ القلب كلَّ ما سواه، ولم يبقَ للعبد شيءٌ من نفسه وهواه، ولا إرادة إلاَّ لما يريدهُ منه مولاه، فحينئذٍ لا ينطِقُ العبدُ إلاّ بذكره، ولا يتحرَّك إلا بأمره، فإنْ نطقَ، نطق بالله، وإنْ سمِعَ، سمع به، وإنْ نظرَ، نظر به، وإنْ بطشَ بطش به"[(٢)].

والقلب الشاكر راغب في الآخرة، زاهد عن الدنيا، فكلما "صح من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها"[(٣)].

والقلب الشاكر موعود صاحبه بالنجاة يوم القيامة؛ لأنه قلب سليم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨، ٨٩].

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/٨).

(٢) المرجع السابق (٢٢/٤٠).

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/٧١).

و "**القلب السليم هو:** "الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق "(١).

فما أحسنَ شكرَ القلب يا عباد الله، وما أجمل أثره على حياة المرء في عاجل أمره وآجله! ألا فاتخذوا قلوبًا شاكرة، تسعدوا في الدنيا والآخرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرا، ولسانًا ذاكرا، وزوجة تعينه على أمر الآخرة)(٢).

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٧).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهو حسن.

حفظُ العَقل(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران:١١٨]، وقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[آل عمران:٧]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى﴾[طه:٥٤]، وقال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[الفجر:٥].

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٠/٦/١٤٤٠هـ، ١٥/٢/٢٠١٩م.

أيها المسلمون، ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة العقل والألباب والنُّهى والحِجْر وهي أسماء لمسمى واحد، معناه: ما يعقل الإنسان وينهاه ويحجره عن المكروهات. وفي هذه العناية القرآنية إشادة بشأن العقل، وبيان لمنزلته السامية، ورتبته العالية في إدراك الأمور، والإفادة من الآيات والعِبر.

فالعقل نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان، فبه يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، وهو وهبة سَنيَّة وهبه إياها ليستعملها فيما ينفعه في عاجل أمره وآجله، لكن أكثر الناس استعملوها في منافع الدنيا، ولم يستعملوها في منافع الآخرة، فأخذوا أدنى الحظين، وفوتوا على أنفسهم أعلاهما.

عباد الله، لقد منح الله تعالى عقل الإنسان شأنًا عظيمًا؛ فجعله مناط التكليف، وعلامة الصلاح للأمر والنهي، فمن ملكه صار مكلفًا، ومن قصر عنه كالأطفال أو فقده كالمجانين سقط عنه التكليف. فكان العقل بهذا أساس الأعمال وينبوعها، والمميز بين الأشياء ومرجعها، فلا تكليف على قاصر حتى يبلغ، ولا على مجنون حتى يعقل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق)[١].

وإذا أردتم أن تعرفوا -أيها الأحباب- فضل الله عليكم بهذه النعمة فانظروا إلى من فقدها كالمجانين وأصحاب الأمراض العقلية.

زوروا مشافي الأمراض النفسية، وانظروا إلى المجانين في الشوارع، واحمدوا الله على نعمته، واسألوه دوام فضله.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان، وهو صحيح.

ومما يبين لنا عظم هذه النعمة وأهميتها في الشريعة الإسلامية كذلك: أن الجناية على العقل حتى يخرج عن حد التكليف توجب الدية كاملة كدية النفس؛ لأن العقل أشرف المعاني والأعضاء، وهو من أعظم آلات السعادة وصلاح الحياة.

ومما يدل على أهمية العقل أيضًا: أن الله تعالى جعله طريقًا إلى تدبر آياته، والتفكر فيما أودع في خلقه من بديع مصنوعاته، وجعله كذلك وسيلةً إلى الاعتبار بما جرى من العاقبة الحسنة لأهل طاعته، ومن العاقبة السيئة لأهل معصيته. قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر:٤٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

ومما يدل على أهمية العقل كذلك: أن الله تعالى عاتب المشركين الذين ألغوا عقولهم، وحجبوا تفكيرهم، فصاروا أُسراء لتقليد آبائهم المشركين، حتى منعهم ذلك من اتباع الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠].

عباد الله، إن العقل عقلان: عقل تكليف، وعقل علم وخبرة، وهذا الثاني قدر زائد على الأول، فالأول غريزي، والثاني اكتسابي نتج عن إدراك العلوم والمعارف، وانفتح بالتجارب والخبرات، وأهله هم الذين نسميهم الأذكياء أو العباقرة .

وأما عقل التكليف فهو نور يعرف به المكلف الخيرَ من الشر، والنفع من الضر، والحق من الباطل، غير أن بعض الناس استعمل ذلك النور فنجا، وبعضهم الآخر أطفأه فمشى في ظلام دامس فهلك.

ونعني بهذا أن هناك من صرف عقله عن الآخرة وأعمله في جلب مصالح دنياه، ودفع مضارها، سواء كان طريقه إلى ذلك صحيحًا أم غير صحيح، وهذا حال الكافرين برب العالمين.

ومن الناس من أعمل عقله في الهدف الذي خُلق لأجله وهو عبادة الله تعالى، وهذا حال المسلمين، **غير أنهم في ذلك صنفان:**

الصنف الأول: من وظف عقله في التفكير في جلب مصالح الآخرة ودفع مضارها، مع أخذ ما تيسر له من أسباب العيش الدنيوي، جاعلاً الآخرة هدفه الرئيس في حياته، والدنيا تتبع ذلك، فهذا أعقل الناس وأصلحهم وأتقاهم وأنجحهم.

والصنف الثاني: من أعمل عقله في كيفية الوصول إلى خيرات الدنيا وملذاتها، صارفًا جُلّ تفكيره في ذلك، مكتفيًا من الإسلام ببعض الشعائر، فأضحى مغلبًا أمر دنياه على أمر آخرته، وهذه حياة أكثر المسلمين، حيث صار العمل للدنيا هو المستولي على الجهد والوقت والتفكير، وهم بهذا يخسرون خيراً كثيراً حينما جعلوا الآخرة في هامش اهتمامهم وعملهم.

أيها الأحبة الكرام، هناك عقول ذكية وألباب مشرقة، لكن في أحوال الدنيا وشهواتها فحسب، فهذه عقول خاسرة حين أظلمت في مصالح الآخرة ومنافعها، فهي ربحت الدنيا لكنها خسرت الآخرة.

فكم من ذكي ألمعي، ومخترع عبقري هداه عقله الواسع وذكاؤه الخارق إلى مجاهل ومسالك في أمور الدنيا لم يصل إليها أحد قبله، فصار صاحب اكتشافات وحقائق ونظريات، وأوصله عقله وذكاؤه إلى مقامات رفيعة في شؤون الحياة، لكنه لم يوصله إلى خالقه ويعرفه دين ربه الحق، فماذا استفاد من ذلك العقل الكبير والذكاء الوقّاد لحياته الأبدية؟! فبئس العقل الناجح دنيويًا، المخفق أخرويًا!

وكم من إنسان مسلم لديه معرفة محدودة بمصالح الدنيا، ودراية ضئيلة بمعارفها وعلومها، ولكنه يعرف ربه، فيؤدي حقه، ويستعد للقائه بزاد التقوى، فهذا هو العاقل حقًا وليس ذلك المبدع والمخترع الكافر.

ولكن ما أجمل أن يكون لدى الإنسان عقل كبير في العمل للآخرة، والعمل للدنيا أيضًا، يفيد بذلك نفسه عند الله، ويفيد غيره من الناس في هذه الحياة.

عباد الله، إن العقل لا يسلم من أعداء يحيدون به عن الطريق المستقيم، ويعدلون به عن إعمال تفكيره فيما ينجيه عند ربه العظيم، ويصلح له حياته الدنيا صلاحًا غير مشوب بالباطل والأكدار:

فالعدو الأول هو الهوى، وهو "ميل النفس إلى ما تستلذه الشهوات من غير داعية الشرع"[(١)]. بحيث يصير الإنسان عبداً مطيعًا لكل ما تشتهيه نفسه من الباطل. وأصحاب العقول المعبدة للهوى لا يفكرون إلا بملذات أجسادهم وشهواتها العاجلة، وليس لديهم تفكير في أسباب النجاة في الآخرة، فهم في سُكر الهوى والشهوة، فإذا جاءهم ملك الموت صَحَوا.

---

(١) كتاب الكليات. لأبي البقاء الكفوي (ص: ١٥٤٢).

ولا يخفى أن " الهوى عن الخير صاد، وللعقل مضاد ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكا، ومدخل الشر مسلوكا. قال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع" . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

يَـا عَـاقِلًا أَرْدَى الْهَـوَى عَقْلَـهُ مَالَـك قَـدْ سُـدَّتْ عَلَيْـك الْأُمُـور
أَتَجْعَـلُ الْعَقْـلَ أَسِـيرَ الْهَـوَى وإنَّـمَا الْعَقْـلُ عَلَيْـهِ أَمِـير "[١]

فليحفظ المرء عقله من سلطان الهوى الذي إذا دخل في رعيته هلك، قال بعض أهل العلم: "والعقل والهوى متعاديان؛ فالواجب على المرء أن يكون لرأيه مُسعفا، ولهواه مسوِّفا، فإذ اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه؛ لأن في مجانبته الهوى إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر"[٢].

وقال آخر: "ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهنا يمتاز العقل من الهوى"[٣].

"**قيل لبعض الحكماء:** أوصنا بأمر جامع، قال: احفظوا وعوا أنه ليس من أحد إلا ومعه قاضيان باطنان أحدهما: ناصح، والآخر: غاش، فأما الناصح فالعقل، وأما الغاش فالهوى، وهما ضدان فأيها مِلت معه وَهى الآخر - يعني: ضعف -"[٤].

والعدو الثاني للعقل: المعلومات الخاطئة، التي تشكلّه في بوتقة انحراف، وتسقيه

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ١٩-٢٠). بتصرف.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان (ص: ٥).
(٣) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني (١/ ٦٩).
(٤) العقل وفضله، لابن أبي الدنيا (ص: ٦٢).

أسباب عطبه، ومادة انحرافه، حتى يختل توازنه الفكري، ويفسد سلوكه العملي، ويضل بذلك عن جادة الحق. وتلك المعلومات المضلة قد تأتيه من معلِّم أو وسيلة إعلامية مرئية أو مسموعة أو مقروءة، أو جليس مشوش الفكر.

ولو بقي المرء خِلواً من ذلك لكان جهله وبُعده عن تلك المعلومات المسمومة خيراً له؛ ولهذا ندم بعض الخائضين في الفلسفة وعلوم الضلال بعدما ضلت عقولهم في خضمها، ونصحوا الناس بالبعد عنها، وتمنوا لو ماتوا على عقائد العجائز (١). وكم يحرص أعداء الحق اليوم على بثِّ الشبهات لتضليل العقل المسلم، وتشويه أفكاره الصحيحة، وتشكيك صاحبه بثوابت دينه. ألا فليحفظ المسلم عقله وعقول أهله وأولاده من عادية الشبهات، وحملات التضليل والتشكيك؛ فإن الاستجابة لها وأدٌ للعقل، وطمس لأنواره، وسبيل هلاكه.

والعدو الثالث للعقل: البيئة الفاسدة، التي تعج بالفساد والمفسدين، فكم تُكدر من عقول نقية، وتشوّه من صور ذهنية، وتزرع فيها من أفكار منحرفة، وتصورات مهلكة، حتى يغدو العقل بها أسير شهوات، أو حبيس شبهات مضلات. خصوصًا في هذا الزمن المُرّ الذي تقل فيه البيئات الصالحة، ويندر فيه الجلساء الصالحون.

فعلى الإنسان أن يحذر على عقله وعقول أهله وأولاده أضرار الهوى والمعلومات الخاطئة، والبيئة الفاسدة؛ فإنها أجنحة الشر الثلاثة التي تطير بالعقول إلى متاهات الغواية، وآفاق اللوثة الفكرية.

وليجعل مكانها التقوى والعلم النقي والبيئة الصالحة؛ فإنها قوارب النجاة للعقول

---

(١) ينظر مقالات بعض هؤلاء في شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ص: ٢٠٨).

في أمواج الانحراف العقلي الذي يعيشه عالم اليوم.

أيها المسلمون، لقد حافظ الإسلام على العقل البشري محافظة شديدة، واعتنى به اعتناء عظيمًا؛ فكان العقل من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع السماوية على حفظها، وهي الدين والنفس والمال والعرض والعقل؛ وذلك أن العقل موضع استقامة دنيا الإنسان ودينه، وسبب لسلامة ما حوله من ضرره.

فقد حرمت الشريعة الإسلامية على المسلم المفسدات العقلية التي تؤدي إلى الإخلال بالعقل فيصبح صاحبه كالمجنون لا يعرف الضار من النافع، ولا الزوجة من الأم أو البنت. وهذه المفسدات العقلية الحسية هي الخمور والمخدرات وما قام مقامها من المسكرات. فقد جاءت النصوص في القرآن والسنة بتحريم الخمر ويقاس عليه ما ماثله في الإسكار أو زاد عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة٩٠-٩١]. **وقال** النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مسكر خمر، وكل خمر حرام)[(١)]. **وقال** صلى الله عليه وسلم: (إن الله لعن الخمر وعاصرها، ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها، وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها)[(٢)].

معشر العقلاء، إن آفة السكر هي أم الخبائث، ومفتاح كل شر، وبوابة الهلاك؛ فكم حصل بسببها من سفك للدماء المعصومة، وإتلاف للأموال الخاصة والعامة، وانتهاك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم، وهو حسن.

للأعراض المصونة حتى على المحارم، وكم قضت على طاقات نافعة وعقول ناضجة، وأشقَتْ من أسر سعيدة، وكم أذلت من عزيز، وأفقرت من غني، وأهانت من كريم، وصغّرت من عظيم، وأمرضت من صحيح، وفرّقت بين الأقارب والأحبة والأصدقاء.

وغير خافٍ على كل ذي حجا نظيف أن المسكرات إهلاك للفرد والمجتمع في مجالات شتى: إهلاك ديني، وإهلاك أخلاقي، وإهلاك اقتصادي، وإهلاك صحي ونفسي. وقد تحدث الناس عن أضرارها ووجوب تجنبها على اختلاف أديانهم وتخصصاتهم العلمية.

لذلك وجدنا بعض الدول العالمية الكبرى غير المسلمة حاربت الخمر في بعض الأوقات وأنفقت في سبيل ذلك أموالاً وقدرات كثيرة، لكنها لم تفلح؛ لعدم وجود الوازع الداخلي لدى المتعاطي. أما شعوب الإسلام فقد رباها الإسلام على ترك المسكرات طاعةً لله، وسلامة للدين والدنيا، فقلّ تعاطي المسكرات بين أهلها. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عند نزول آية تحريم الخمر قال: (فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القِلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل). وهكذا يصنع التسليم لحكم الله تعالى.

نسأل الله أن يحفظ عقولنا من كل سوء، وينيرها بأنوار الهداية، وأن يصرف عنها أسباب الانحراف والغواية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

عباد الله، إن الإنسان إذا استعمل عقله استعمالاً صحيحًا قاده إلى معرفة خالقه والعمل بشرائعه، والسير على طريق مرضاته، واستفاد من آيات الله تعالى المسطورة كثرةَ تلاوةٍ وتدبراً وعملاً، ومن آيات الله المنشورة في هذا الكون نظراً وتفكراً واهتداء، وانتفع من مواضع العبرة انكفافًا عن أسباب الهلاك، وإقبالاً على سبل النجاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة١٦٤].

ومن استعمل عقله استعمالاً صحيحًا ظهر على أقواله وأفعاله الصوابُ والاستقامة، وصار من أهل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وغدا محبوبًا عند أهل السماء وعند أهل الأرض.

وأصبح لديه نور يسلك بضيائه إلى منافع دنياه ومصالح عيشه من أسهل الطرق وأسلمها، وأضحى منشغلاً بأسباب نجاته غير منشغل بما يعني الناس ولا يعنيه.

وإذا زاد عقله في الإشراق والاتساع أصبح ينظم حياته الدينية والدنيوية، فيسير

على خطط واقعية مرسومة بعيدة عن الفوضى والعشوائية، مستفيداً من أخطاء الماضي؛ لئلا يعود إليها في المستقبل، متعظًا بمواعظ الأيام ومرور الزمان ومن تجارب الآخرين وعقولهم.

فالعقل منظِّم الحياة ومديرها، فإذا تشبع بمعارف صحيحة وإضاءات سليمة كانت مخرجاته صائبة مفيدة.

أيها المسلمون، إن العقل إذا اكتمل واستنار عند صاحبه أثمر له معرفة استغلال الفرص وكيفية الاستفادة منها؛ فقد أدرك بتجاربه وتجارب غيره التي أضافها إلى عقله أن الفرص أطياف تمر، وأنفاس تخرج لا تعود مرة أخرى إلا أن يشاء الله، فعندما يجد الفرصة أو يعيش فيها فإنه يستفرغ حاجته منها ولا تفارقه إلا وقد نال منها ما يريد.

فيا أيها المسلم العاقل، عمرك فرصة، وفراغك فرصة، ورخاؤك فرصة، وأمنك فرصة، وقدرتك فرصة، وأمرك بيدك في بعض شؤونك فرصة، وامتلاك الوسائل الميسرة والمؤثرة فرصة؛ فلا تضيعن منك هذه الغنائم وتمر عليك وأنت نائم غير مكترث بها.

يا أهل الحجا، إن العقل إذا اكتمل واتسع عرف صاحبه كيف يخرج من المضائق، ويفك عنه قيد المآزق، وكيف يتعامل مع المواقف الشديدة التي تطيش فيها الأحلام، فينقُب عقله الفسيح جُدَد الأزمات وحصونها العتيدة ليصل إلى مخارج من قبضتها بالأسباب المباحة والوسائل الصحيحة المتاحة.

وبعد هذا علينا –عباد الله– أن نشكر الله تعالى على نعمة العقل، ونستعملها في الفضائل وطمس معالم الرذائل، ونحفظها من جميع المفسدات الحسية والمعنوية،

ونحصنها بالوعي التام والثقافة النظيفة، والمراقبة الكاملة لخالقها وواهبها سبحانه وتعالى

وعلينا أن نعلم أن العقل البشري له حدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها بتفكيره؛ لأنه إذا سبح في غيره جوّه تاه وتحير، وتفرق وتضرر.

فمن منحه الله منحة العقل فقاده إلى الخير، وعَقَلَه عن الشر فما أعظم ما مُنح، وما أحسن ما به مُدِح.

يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ ... عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ[1]

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ٣).

حفظ الفرج(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق الله تعالى الحياة الدنيا، وبثّ فيها أنواعًا من الكائنات الحية التي تعيش فيها من الإنس والجن والطير والحيوان، وكتب لها الاستمرار على ذلك إلى أمد معلوم، وحينما كانت هذه الحياة قائمة على قانون السببية فإن الله تعالى قد جعل بين ذكور الأحياء وإناثهم ميلاً مشتركًا يكون سبب استمرار بقائهم إلى ذلك الأمد المحدد،

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١/٧/١٤٤٠هـ، ٨/٣/٢٠١٩م.

ولولا ذلك لانقرضوا وتعطلت الحياة من أهلها.

والإنسان كائن حي خلقه الله تعالى وركّب فيه الشهوة الجنسية من أجل التكاثر والتناسل وغيرهما من المصالح. وتلك الشهوة جزء طبيعي من المخلوق الإنساني ومظهر كمال فيه، وعنصر قوة ومدح، وفقده نقص وذم وضعف.

غير أن العالم الإنساني لما كان أرقى عوالم المخلوقات، وهو المكلَّف مع الجن بالتكاليف الشرعية من بين سائر المخلوقات؛ فإن الشرائع السماوية قد ضبطت شهوته الجنسية، ونظمت قضاءها، وجعلت لها طرقًا سليمة من العواقب الوخيمة في العاجل والآجل، وذلك التنظيم الرباني لتلك الشهوة الإنسانية سمو للإنسان عن عالم الحيوان والبهائم الذي لا ضوابط ولا حدود فيه لقضاء الوطر الجنسي.

أيها المسلمون، إن حاجة الإنسان البالغ الصحيح إلى قضاء هذه الشهوة كحاجته إلى الطعام والشراب؛ فلذلك شرع الله تعالى له الوسيلة النظيفة الصحيحة لتلبية تلك الرغبة الفطرية بسلوك سبيل الزواج الشرعي، الذي تتحقق به مصالح كثيرة في الدين والدنيا والآخرة.

فالزواج هو الطريق الآمن، والدواء الناجع، والوسيلة السليمة إلى قضاء هذه الشهوة الإنسانية، وهو مصلحة عامة للمجتمع كله؛ فبه تحفظ الأعراض، ويقضى على بعض الأمراض، وتصان الحرمات، وتتكاثر المجتمعات، وتبنى الحياة وتنشط في مجالاتها المختلفة، ويتحصن الرجال والنساء من الحرام الذي إذا ارتُكب أفضى إلى كوارث وآفات كثيرة.

فلأجل ذلك ينبغي تيسير طرقه، وإعانة أهله، وتشجيع الأُسر والمجتمعات عليه،

وعلى الشباب الحرص على طلب الرزق وتوفير مورد مالي يعينهم على الزواج والنفقة بعده، وعلى أولياء الأمور وقريبات المخطوبة من أم أو أخت وغيرهما أن لا يطالبوا برفع سقف المهور، بل عليهم أن يقبلوا الميسور ولا يطلبوا المعسور، ويخففوا من نفقات الحفلات التي لا فائدة كبيرة فيها. ولو نظر الناس نظرة فاحصة عاقلة لرأوا أن تلك الحفلات وما ينفق فيها وما يرافقها من نفقات الزينة الكثيرة قد حرمت بعض الشباب والشابات من الزواج فأوقعتهم في قيود الحزن والعنوسة، وألجأت بعضهم إلى الحرام. فليدع المجتمع كثيراً من تلك المظاهر؛ حرصًا على تسهيل طريق العفاف، وحفظًا للمجتمع من آثار الحرمان من الزواج.

عباد الله، أحيانًا قد يبتلى الرجل أو المرأة بتأخر الزواج؛ فالرجل لقلة ماله، والمرأة لعدم مجيء خاطب، فمن كان كذلك فعليه أن لا ييأس ولا يجزع؛ فالحياة مازال فيها بقية. وهذه الحال إذا صبر عليها المبتلى بها، ولزم حصن العفة أجر أجراً عظيمًا. وفي هذا الظرف شرع الإسلام الصيام إطفاءً لأُوار الشهوة المتقدة، وتخفيفًا لحدتها المستعرة. **قال** النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[1]. وهذا الصيام الذي يحقق هذه النتيجة من قطع الشهوة هو الصيام الذي فيه تخفيف من الأطعمة والأشربة عند الإفطار والسحور ليلاً، والتقليل من النوم نهاراً.

أيها المؤمنون، من أنعم الله عليه من الرجال أو النساء بالزواج فليحمد الله على هذه النعمة التي تعفه وتصونه عن الحرام والعناء، وليعرف كل من الزوج والزوجة الحقوق الزوجية حتى تدوم العشرة والوئام بينهما، فيتم العفاف وسائر مصالح الزواج،

(١) متفق عليه.

وليسعَ كل زوج إلى إعطاء الآخر حقوقه، خاصة حق الفراش؛ لئلا تتكدر العلاقات فيسلك أحدهما طريق الحرام، أو يصير إلى دائرة الضيق والأسى.

وعلى الزوجة أن ترضى بما شرع الله للرجل من المباحات؛ فإذا كان الزوج راغبًا في التعدد وعنده القدرة الكاملة لذلك من مال وقوة شهوة وتقوى تمنعه من الظلم بين الزوجات فلا تكن عائقًا له في هذا الطريق المشروع، أما إن كان عاجزاً عن ذلك في ماله أو بدنه أو قلة عدله فليصبر على زوجة واحدة فذلك خير له ولها، ولا يبحث عن مشكلات جديدة لنفسه ولزوجته وأولاده.

أيها المسلمون، إن حفظ الفرج عن الحرام هو من العفاف الذي يعد خُلقًا من أنقى الأخلاق، وأدبًا من أرقى الآداب، وسمواً إنسانيًا عاليًا، وعبادة من العبادات التي ترفع منزلة العبد عند ربه، وتنشر له بين الناس سمعة حسنة، وسيرة عطرة. والعفاف وعدم إرخاء الذيل للحرام طهارة ونقاء، وجمال وبهاء، ومظهر برّاق يشير إلى قوة النفس وانتصارها على أهوائها، وتأبِّيها على إغراء شهواتها.

وهو خلق عظيم من أخلاق الإيمان، ودرجة رفيعة من درجات الإحسان، وميزان يُعرف به المؤمن من الفاسق، والصالح من الطالح، والسامي من الداني، والكريم من اللئيم.

وهو حصن الفضائل، وسد منيع أمام الرذائل، وصِمَام أمان للنفس والأسرة والمجتمع والأمة.

أيها الأحبة الفضلاء، إن الحياة ما تزال بخير ما كان العفاف وإحصان الفروج هو السمة البارزة لها، وهذه الحياة الطاهرة هي التي يجب أن تكون بين المسلمين، ولكن

ضعف الأخذ بالإسلام، وكثرة عشّاق الحرام، وانتصار قوى الباطل في هذا الزمان أدى ذلك كله إلى خدش جدار العفة، وتلطيخ ثوب الصيانة النقي داخل المجتمعات المسلمة، فظهرت مظاهر غابت فيها العفة، وحضر فيها البعد عن تحصين الفروج.

بل زاد حجم الرزية واتسع خرق البلية حينما جاهر بالفواحش أهلها، وعدّوها مفخرة من المفاخر، وسعوا إلى ترويجها بين الناس، والعاصي يهون ذنبه مادام مستوراً، فإذا جاهر وفاخر فقد كشف عن نفسه ستر المعافاة وانحدر إلى مهاوٍ مخيفة، وذهب إلى عواقب أليمة.

فمن مظاهر الحرام المتعلقة بالفروج:

الزنا، وهو جريمة كبيرة، وخطيئة بشعة، تواترت الشرائع على تحريمها، والعقول النقية على استبشاعها، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]، **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[١].

ومن الفواحش: إتيان الذكور، وهو خبيثة من الخبائث، وقذارة من القذارات التي أهلك الله بسببها أمة من الأمم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٢-٨٣]، **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من عمل عمل قوم لوط) قالها ثلاثًا[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن حبان والبيهقي والنسائي، وهو صحيح.

ومـن الفـواحش: معـاشرة المـرأة حـال الحـيض أو النفـاس أو في الـدبر، والعـادة السرية، واكتفاء المرأة بالمرأة، وإتيان البهائم.

فما أسوأ هذه الجرائم من جرائم، وأكبرها من مآثم، وأدنى نفوس مرتكبيها، وأهون حال منتهكيها!

فمن قارف من تلك المآثم مأثمة، واستلبت عقله منها خطيئة فليتب إلى ربه، ولا ييأس من رحمة الله، وليقطع من قلبه أعلاق التعلق بتلك الفاحشة، وليبعد عن نفسه سبل العودة إليها.

أيها المسلمون، إن الوصـول إلى تلـك الفـواحش جاء عـبر أسباب أدت إليهـا، فكانت تلك المعاصي هي نهاية طريق البؤس، وغاية خطوات الشقاء. فمن تلك السبل المظلمة إلى تلك النهاية المؤلمة:

إطـلاق البـصر مـن الرجـال إلى النـساء ومـن النـساء إلى الرجـال، في الـشوارع والطرقات والأسواق والإدارات والشاشات والمصحف والمجلات. وكم للقلب في هذا السبيل من هدايا سامة، وللديانة من جروح دامية، ألم يؤدب الله أهل الإسلام ذكوراً وإناثًا بقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾[النور:٣٠-٣١]؟

ومن تلك السبل: خلوة الرجل بالمرأة، وفي هذا الظرف الخالي يحضر الشيطان للتزيين والوسوسة حتى يحصل التعلق، وربما ساق إلى ما بعد ذلك، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يخلون أحدكم بامرأة؛ فإن الشيطان ثالثهما)(١). وهذه الخلوة المحظورة سواء

(١) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

كانت في البيوت أم الإدارات الوظيفية، أم غرف الأطباء، أم فوق سيارات الأجرة والباصات، أم في غيرها، وكم حصل من مصائب بسبب هذه الخلوة المحرمة.

ومن تلك السبل كذلك: سفر المرأة بلا محرم، وخاصة سفرها إلى الأماكن البعيدة عن أهلها وبقاؤها هناك لدراسة أو وظيفة أو زيارة أو نحو ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها)[١].

ومن تلك السبل: قلة تحفظ النساء على حجابهن وحشمتهن، ومن مظاهر ذلك: الخروج بالألبسة الشفافة أو الضيقة أو المزينة أو القصيرة، والاختلاط بالرجال، وقلة الحياء في مخاطبة الرجال.

وإنها لمصيبة عظيمة على الرجال والنساء معًا؛ فإن ظهور النساء بتلك المناظر تجذب الرجال إليهن، وتشعل فتيل الشهوة التي إن لم تحرق تلفح وتجرح، فأين غيرة أولياء النساء الذين يسمحون لنسائهم بالظهور بين الرجال وهن على تلك الحال من الفتنة؟ ولقد قال الحكماء: إذا ضعفت الغيرة عند الرجال قلت الصيانة عند النساء.

ومن تلك السبل: البيئة السيئة والصحبة غير الصالحة، والإنسان يتأثر بمن حوله، فالمرأة حينما تكون في بيئة لا تحافظ على العفاف، أو عندما تصحب نساءً لا دين لديهن ولا خُلق يمنعهن من الحرام فقد تنجر وراءهن إلى نهايات مأساوية، وكذلك الرجل عندما يعيش في بيئة منحرفة، ويجلس مع أصدقاء منحرفين فسينحرف وسيأخذ بيده رفقاءُ السوء ليكون شريكهم في الحرام، وكم أفسد جلساءُ السوء من رجال أعفَّاء، وأبعدت جليسات الشر من نساء عن الصيانة والحياء!

---

(١) متفق عليه.

عباد الله، ولا ننسى -ونحن نتحدث عن أسباب الانحراف عن العفة وحفظ الفروج- إفسادَ الإعلام السيء للذكور والإناث كباراً وصغاراً بما يعرض من مسلسلات تروج للفاحشة، وأغانٍ ورقص يقدح زناد الشهوة، ويشجع على العلاقات خارج العش الزوجي، ويهوِّن من شأن الفواحش والجرائم الخلقية.

كما لا ننسى أيضًا ما أفرزته الثورة التقنية الحديثة عبر وسائل التواصل الاجتماعي من فيسبوك وواتساب وتلجرام وإيمو وغيرها من وسائل التواصل؛ فإن هذه الوسائل حينما أساء بعض الناس استعمالها صدعت جدار الفضيلة، وأوقعت بعض الناس في الرذيلة، وخدشت الحياء والعفة، وقربت الفاحش من الفاحشة، وقضت على الستر والصيانة، ويسّرت طرق الجريمة، وعرضت الأعراض لنهش الرذيلة، وساقت ذوي الاستعمال المعوج إلى عواقب وخيمة، ونهايات أليمة. وكم أخرجت تلك الوسائل من مخبّأة من كِناس حيائها، وسرقت العفيفة من حصن عفافها، وساقتها إلى سوق مآسيها ومصائبها.

وكم سلبت تلك الوسائل من بعض الرجال دينَه وماله وعفته، وأخلاقه وطهارته وصحته. وكم من مستور ومستورة، صارت فضائحهم عبر هذه الوسائل معروفة مشهورة.

كم من بيت سعيد أشقته، وعرض نقي نجسته، وخلق حسن قبّحته، وجمع كريم زوجي وأسري فرّقته. كم زوجة انتهت حياتها الزوجية على شاشة جوالها، وبنت سعيدة بين أبويها وإخوانها وأخواتها اختلستها من بينهم علاقات محرمة عبر الجوال حتى أبعدتها عنهم بلا رجعة.

كم سالت من دموع ودماء، وأُريقت من عفة وحياء، وفضحت من نفوس وأُسر، ورفعت من نِعم، وحلّت من نقم، وكل ذلك جاء عبر شاشة جوال لم يحسن صاحبه التعامل معه.

أفلا يكفي العاقلَ والعاقلة ما يصل إليه من أخبار الضحايا من الذكور والإناث الذين سقطوا على تخوم تلك الوسائل صرعى وجرحى؟

ألا يعلم العاقلة والعاقلة أنه قد يكون بين سعادة العفة وشقاء الفاحشة رسالةٌ أو صورة أو مقطع صوتي أو مرئي أو مكالمة؟

ألا يعلم العاقلة والعاقلة أن شرك الفاحشة وعلاقات الرذيلة ومتابعة صفحات الجريمة يصعب الفكاك منه لمن أحكمت قيوده فيه، فما أسهل دخول مصيدة الفواحش وما أصعب الإفلات منها، وما أحلى طعم أوائل الحرام، ولكن ما أمرَّ عواقبها!

فهل من متعظ؟

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن حفظ الفرج عن الحرام -خاصة في هذا الزمان- مهمة جسيمة، وعبادة عظيمة، وعمل يعقب الخيرات الكثيرة، ويصرف عن أضرار عديدة، في الدنيا والآخرة.

ولحفظ الفرج عن الحرام وسائل توصل إليه، وتعين عليه، يحسن بالذكور والإناث معرفتها؛ حتى يكون ذلك سبيلاً إلى تحقيق تلك الغاية الحميدة، وعونًا على سلوك تلك الطريق السديدة.

فمن تلك الوسائل:

الخوف من الله تعالى في السفر والحضر، ومراقبته في السر والعلن، أكثر من خوف الناس ومراقبتهم، والحياء منه تعالى، وقوة الإيمان، فهذه العبادات الباطنة هي الحارس الأمين، والحصن الحصين أمام طغيان الأهواء والشهوات.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)[(١)].

---

(١) متفق عليه.

"راود بعضُهم أعرابيةً، وقال لها: ما يرانا إلا الكواكبُ، قالت: فأين مُكوكِبُها؟"[١]. ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

ومن وسائل الحفظ: مجاهدة النفس ومصابرة الشهوة وإغراءاتها، والانتصار على أهوائها؛ فإن الشهوة في جو الإغراءات كالحيوان المفترس إذا لم تحبس بالصبر أفسدت أيما إفساد، فالعاقل لا يعطي نفسه كل ما اشتهت، ولا يبلغها كل ما تمنت.

وإنّكَ مَهْما تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤلَهُ وفَرْجَكَ، نالا مُنتهَى الذّمّ أجمعَا[٢]

ومن وسائل الحفظ: تربية النفس على العفاف والغيرة، وكراهية تدنيس الأعراض، وتلطيخ السمعة، والأسرة الكريمة والبيئة الحسنة.

والجلساء الصالحون لهم أثر كبير في الحفاظ على هذين الخلقين الكريمين، فمن كان لديه غيرة كاملة فلن يدنس أعراض الناس خشية على عرضه. وفي المجتمعات المحافظة تبرز هذه الشيمة النبيلة حتى لدى تاركي الصلاة والبعيدين عن التدين.

ومن وسائل الحفظ: النظر في العواقب والعقوبات المترتبة على مقارفة الفواحش وسلوك طرقها، ففي الدنيا تجر تلك المآثم على أهلها الفضيحة وسوء السمعة، وابتعاد الناس عن أهلها، والأمراض النفسية والجنسية وغيرها، والحرمان من الزواج، واستحقاق الزاني البكر للجلد، والزاني الثيب للرجم حتى الموت.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢٠/١٩).

(٢) ديوان حاتم الطائي (ص: ٤٣).

(٣) رواه البيهقي والحاكم، وهو صحيح.

وأما في الآخرة إذا مات الإنسان من غير توبة فسيلقى لعنة الله وعذابه. **عن** أبي هريرة قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: ما أكثرُ ما يُدخِل الجنة؟ قال: (التقوى، وحسن الخلق) وسئل: ما أكثر ما يدخل النار؟ قال: (الأجوفان: الفم والفرج)(١).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة... فذكر الحديث إلى أن قال: (فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا ارتفعت ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، وإذا أخمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة... الحديث. وفي رواية: فانطلقنا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات، قال فاطّلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عُراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا... الحديث، وفي آخره: (وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني)(٢).

أيها الفضلاء الكرام، ومن وسائل حفظ الفرج: النظر في العواقب الحسنة للعفاف وحفظ الفروج، فهناك عواقب حسنة في الدنيا، وأخرى في الآخرة؛ ففي الدنيا يكسب العفيف الراحة والصحة وحسن السمعة والأمان والسلامة، وفي الآخرة ينال كثرة الأجور رضوانَ الله وجنته.

قال تعالى: ﴿...وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[المعارج:٢٩] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[المعارج:٣٥].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه، وهو حسن.

(٢) رواه البخاري.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت)[٢].

ومن الوسائل أيضًا: أن يقنع الإنسان بالحلال، ويبعد نفسه عن التشوف إلى الحرام، فمن كان متزوجًا فليقنع بزوجه؛ الزوجة تقنع بزوجها، والزوج يقنع بزوجته؛ لأن الرجل الذي لا يقنع فلن تكفيه نساء الدنيا، والمرأة إذا لم تقنع بزوجها فلن يكفيها رجال الدنيا كلهم، فمن رضي بالحلال ارتاح وسعد، وعوفي في دينه ودنياه.

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

أحكام الحَمْل والسِّقْط(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، هناك موضوع مهم نحتاجه في حياتنا الزوجية، يكثر السؤال عن مضامينه من قِبَل النساء والرجال؛ لذلك سنتكلم هذا اليوم -بعون الله- عن هذا الموضوع؛ حتى نكون على معرفة به؛ فلا نقع في المحرمات، ولا نترك الواجبات المتعلقة بهذا الموضوع، **فنقول:**

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في: ١٩/٢/١٤٤١هـ، ١٨/١٠/٢٠١٩م.

لقد قضى الله تعالى في توالد بني آدم أن لا يخرج الإنسان إلى هذه الحياة إلا بعد أن يمر بمرحلة يبقى فيها في بطن أمه تسعة أشهر في الغالب، وهناك يتم تكوينه ابتداء من النطفة وانتهاء بنفخ الروح فيه وتكامل أعضائه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون:١٣-١٤].

ومع إنشاء خلق الإنسان في بطن الأم يتم رسم مستقبله الدنيوي والأخروي، من غير أن يدري به صاحبه، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكت: رزقه وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد)[(١)].

إن هذه المرحلة التكوينية للجنين-باعتبار المكان- تنفرد بها الأم دون الأب، حيث يمتد حمل الأم لعدة أشهر تحصل فيها أمور عديدة تتعلق بالجنين وبأمه.

وفي هذه الأمور للإسلام أحكام شرعية لابد من معرفتها؛ حتى تكون الحامل وزوجها على علم وبصيرة فيها، ولكي يعرف ما هو المشروع فيعمل، وما هو المحظور فيترك.

معشر المسلمين، اتفق العلماء على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فقد تحمل المرأة ستة أشهر ثم تضع ويعيش وليدها أحيانًا، والدليل على هذه المدة قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف:١٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ

---

(١) متفق عليه.

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[البقرة:٢٣٣]. **قال** ابن القيم: " وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر "[١].

وأما أكثر مدة يبقى فيها الحمل في بطن أمه فقد اختُلِف في ذلك، لكن الأقرب إلى الترجيح طبًّا: " أن أقصى الحمل هو المدة المعهودة تسعة أشهر، والتي قد تزيد بضعة أسابيع، وهو الذي ينبني عليه الأحكام الشرعية، وإذا ادعت المرأة وجود حمل تجاوز المدة المعهودة يلزم أن تثبت ذلك بالبينة الموجبة لتصديق قولها كأن تشهد النساء بوجود هذا الحمل وظهور علاماته الواضحة... ويمكن للقضاة في هذا الزمان الاعتماد على الأجهزة الطبية الحديثة التي تحدد عمر الجنين بدقة، إضافة إلى البصمة الوراثية التي تحدد الأبوين "[٢].

ومن الأحكام المهمة التي ينبغي للحامل معرفتها: أن الدم الخارج من المرأة أثناء حملها ليس دم حيض، بل هو دم علة وفساد، فتكون الحامل فيه مستحاضة وليست حائضًا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في سبي أوطاس: (لا يقع على حامل حتى تضع، وغير حامل حتى تحيض حيضة)[٣]. فقد جعل الحيض دليلاً على براءة الرحم، فدل على أنه لا يجتمع معه. **وقال** صلى الله عليه وسلم لعمر في حق ابنه عبد الله – لما طلق زوجته وهي حائض –: (مُرْهُ فليراجعها، ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً)[٤]. فجعل الحمل دليلاً على عدم الحيض كالطهر. وعلى هذا لا تترك الحامل الصلاة لما تراه من

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢١١).

(٢) ينظر: أقل وأكثر مدة الحمل، دراسة فقهية طبية (ص: ١٢).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وهو صحيح.

(٤) رواه مسلم.

الدم؛ لأنه دم فساد، لا حيض، كما لا تترك الصوم والاعتكاف والطواف ونحوها من العبادات، ولا يمنع زوجها من وطئها؛ لأنها ليست حائضاً(١).

غير أن بعض العلماء ذكر أن الحامل إذا نزل منها دم فيصح أن يكون حيضًا إذا توفر فيه شرطان: أن يكون في وقت حيض تلك الحامل، وأن يكون له صفة دم الحيض لا دم الاستحاضة.

إلا إذا كان ذلك الدم قبل الولادة بيوم أو يومين فهو دم نفاس.

ومن أحكام الحمل أيضًا: أن بعض الحوامل تخرج منها إفرازات أثناء الحمل، وحكم هذه الإفرازات أنها على قسمين: الأول: أن تخرج من المسلك الذي يخرج منه الولد، فهذه إفرازات طبيعية طاهرة، وسوائل يخلقها الله عز وجل في هذا المكان لحكمة، الثاني: أن تخرج من مخرج البول، فهذه تخرج من المثانة في الغالب، وتكون نجسة. وسواء خرجت من هذا المكان أو المكان السابق فإن الحكم: أنها تنقض الوضوء إذا كانت الحامل متوضئة. لكن إن كانت تلك الإفرازات بصفة مستمرة لا تنقطع فإن على الحامل أن تتوضأ، وتصلي على حالها(٢).

ومن الأحكام كذلك: أن على الحامل إذا أدركها رمضان وتستطيع صيامه فيجب عليها ذلك، فإن سبّب لها الصيام مشقة فخافت على نفسها أو على جنينها فيجوز لها الإفطار كالمريض، **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع الصوم)(٣). ومتى ذهب عذرها فعليها أن

---

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨/٣١١)، الفقه الإسلامي وأدلته (١/٥٣٨).

(٢) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١١/٢١٥)، فتاوى نور على الدرب (١٦/٢٦٤).

(٣) رواه أحمد والنسائي والبيهقي، وهو حسن.

تقضي ما أفطرت، وليس عليها إطعام، على القول الراجح(١).

عباد الله، إن المرأة إذا طلقت وهي حامل صح طلاقها؛ إذ لا فرق في الطلاق بين أن تكون المرأة حاملاً وغير حامل. فإذا تم طلاق المرأة حاملاً ترتبت على ذلك أحكام، منها: العدة، والنفقة والسكنى.

فمن كانت حاملاً فطلقت أو مات عنها زوجها فإن عدتها تنتهي بوضع حملها، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق:٤].

فإذا طلقت الحامل طلاقًا رجعيًا فراجعها زوجها قبل أن تلد صحت مراجعتها، وإن بقيت حتى ولدت فلا ترجع إلى زوجها إلا بعقد ومهر جديدين. أما إن كان الطلاق بائنًا فإنها لا ترجع إلى زوجها المطلّق إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره.

وأما النفقة والسكنى فإن الحامل إذا طلقت -طلاقًا رجعيًا أو بائنًا- فإنها تستحق النفقة والسكنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق:٦].

وأما الحامل المتوفى عنها زوجها فيسقط وجوب نفقتها بموت زوجها عند جمهور الفقهاء، وتكون النفقة مما يستحقه الحمل من الإرث، أو على نفسها(٢).

ومن الأحكام المتعلقة بالمرأة الحامل: حكم تنظيم النسل، باستعمال بعض وسائل منع الحمل، فقد ذهب الفقهاء المعاصرون في بعض المجامع الفقهية إلى أنه "لا يجوز

---

(١) ينظر: فقه السنة (١/٤٤١)، مجموع فتاوى ابن باز (١٥/١٧٢).

(٢) ينظر: المجموع، النووي (١٧/١٥٤)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦/٢٧٤)،فتاوى الشبكة الإسلامية (٣/٣٩٩٣) (٤/٣٦١٦).

تحديد النسل مطلقاً، ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الفقر؛ لأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾. أما إذا كان منع الحمل لضرورة محققة؛ ككون المرأة لا تلد ولادة عادية، وتضطر معها إلى إجراء عملية جراحية لإخراج الولد، أو كان تأخيره لفترة ما لمصلحة يراها الزوجان؛ فإنه لا مانع حينئذ من منع الحمل أو تأخيره عملاً بما جاء في الأحاديث الصحيحة، وما روى عن جمع من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من جواز العزل.. بل قد يتعين منع الحمل في حالة ثبوت الضرورة المحققة"[١].

أيها الإخوة الفضلاء، إن بعض الأزواج قد يبتلى بتأخر حمل زوجته أو بحصول العقم من أحدهما، وهذا بلاء يجب على أهله الصبر عنده، واحتساب الأجر عند الله تعالى. كما أن عليهم بعد ذلك حسن الظن بالله في رزقهم بالولد، وشفائهم مما هم فيه؛ فكم من إنسان عوفي من ذلك بعد سنين ورزقه الله البنين والبنات. وعليهم الإكثار من الاستغفار والدعاء؛ فإن الله تعالى قد قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح:١٠-١٢]. **وقال** عن نبيه زكريا: " ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم:٤-٩].

---

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (١/٢٦١).

غير أن بعض الناس لا يستطيع الصبر فيلجأ إلى ما يسمى بالتلقيح الصناعي، أو أطفال الأنابيب، وهذه نازلة عصرية تكلم العلماء والأطباء المسلمون الثقات عن حكمها شرعًا، وبينوا أن هناك طرقًا عديدة للحصول على الولد منها، فمنها المحرم، ومنها المباح، فمما ذكروا: أنه تباح هذه الوسيلة في **صورتين: الأولى:** أن تؤخذ بذرة الزوج وتحقن في الموضع المناسب من مهبل زوجته أو رحمها تلقيحاً داخلياً. **والثانية:** أن تؤخذ النطفة من الزوج، والبويضة من زوجته، ويتم التلقيح خارجياً، ثم تزرع اللُّقيحة في رحم الزوجة. مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة(١).

عباد الله، قد تحمل بعض النساء وهي غير راغبة في الحمل؛ إما لكونه من حرام، وإما لطلاقها من أبيه، وإما لخوف ولادته مشوهًا، وإما لأسباب أخرى، فلتجأ بعضهن إلى إجهاض جنينها. وهذه جناية كبيرة، وفعل محظور شرعًا.

أما إذا كان الجنين قد تخلّق أو نفخت فيه الروح فهو ذنب عظيم؛ لأنه قتل لنفس حرم الله قتلها، وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم بدية الجنين خمسًا من الإبل، فمن فعلت ذلك فعليها هذه الدية، وحملها الوزر الكبير.

غير أنه يجوز الإجهاض في حالة واحدة، وهي: ما إذا كانت هنالك ضرورة محققة معتبرة شرعاً، مثل أن يكون الإبقاء على الحمل يشكل خطراً محققاً على حياة الأم، ولا يثبت ذلك إلا بتقرير من أطباء مأمونين موثوق بخبرتهم. فإن كانت هذه المرأة قامت بعملية الإجهاض دون أن تكون هنالك ضرورة محققة معتبرة شرعاً مثل ما ذكرنا فيجب عليها أن تتوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، وأن تكثر من الاستغفار والأعمال الصالحة؛ لعل الله سبحانه وتعالى يغفر لها ويتوب عليها ويمحو عنها سيئاتها(٢).

---

(١) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ١١٤)، فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/ ٢٥٥٩) (٢/ ٢٢٣).

(٢) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٤/ ١٩٦)، فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/ ٥٧٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٢/ ٥٧).

ومن الأحكام المتعلقة بالحمل: ميراث الحمل، فإذا مات رجل عن زوجة حامل، فإن على ورثة الميت أن ينتظروا ولادة زوجته حتى يتبين حاله[(١)]؛ لأنه قد يسقط ميتًا، وقد يولد ذكراً أو أنثى أو توأمًا: ذكرين أو أنثيين، أو ذكراً وأنثى؛ لأن هذه الأحوال تؤثر على نصيب الوارثين زيادةً أو نقصانًا أو حرمانًا.

فإن استعجل الورثة قدروا لهذا الحمل هذه الحالات الست.

فإن ولدت الحامل جنينها حيًا -وتعرف حياته بصراخه أو بكائه أو بحركته- فإنه يرث، حتى ولو مات بعد إحدى هذه العلامات لحياته بلحظات فإنه يرث، وترثه أمه وبقية ورثته.

إن من المسائل التي يكثر السؤال حولها: هل المرأة التي ولدت حملها بعملية قيصرية تعد نفساء -من ناحية الطهارة والصلاة والصيام والمعاشرة- أو لا تعد نفساء؟

والجواب عن ذلك: أن النفاس هو الدم الخارج عقب الولادة أو قبلها بيوم أو يومين، فمتى رأت المرأة التي ولدت الدم من قُبلها فهي نفساء، سواء ولدت ولادة طبيعية أم بعملية قيصرية. أما إذا لم تر دمًا منها، فليست بنفساء، ويجب عليها حينئذ الصلاة وصيام رمضان إن كانت صحتها تتحمل الصيام[(٢)].

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٣/ ٦٥).

(٢) ينظر: فتاوى الشبكة الإسلامية (٣/ ٢٤٣٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن بعض النساء الحوامل قد يبقى جنينها في بطنها حتى تلده عند تمام أشهر حمله، وقد لا يبقى كذلك، وإنما يسقط من بطنها بقصد منها أو بغير قصد. والسقط هو: الجنين يسقط من بطن أمه قبل تمامه، ذكراً كان أو أنثى(١).

فإن حصل ذلك فإن هناك أحكامًا تتعلق بالسقط، وأحكامًا تتعلق بأمه.

فنقول: إذا سقط الجنين قبل تمام أشهره في بطن أمه؛ فهو:

إما أن يسقط حيًا ثم يموت فهذا حكمه حكم من ولد لتمامه في الأحكام: فيسمى، ويغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين، ويرث ويورث، والجناية عليه كالجناية على النفس(٢).

وإما أن يسقط ميتًا، فإذا سقط ميتًا فله ولأُمِّه **حالتان:**

الحالة الأولى: أن يكون هذا السقط لا يظهر فيه خلق إنسان؛ من إصبع أو رأس أو يد، أو غير ذلك، وهذا يتأتى بأن يكون ولد لشهر أو شهرين أو ما بينهما.

وفي هذه الحالة تكون الأحكام الآتية:

فبالنسبة للسقط فإنه يلف في خرقة ثم يدفن كرامة لبني آدم، ولا يغسل ولا يصلى

---

(١) القاموس الفقهي (ص: ١٧٥).

(٢) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/ ٤١).

عليه(١)، ولا يلقى في دورات المياه كما تفعل بعض النساء عن جهل منهن.

وأما أمُّ هذا السقط، فإن الدم الخارج منها ليس دم نفاس، بل هو دم استحاضة(٢)، فيكون حكمها حكم الطاهر؛ فيجب عليها فيه الصلاة، وإن كانت في رمضان وقدرت على الصيام وجب عليها الصيام، ويحل لزوجها معاشرتها إن أطاقت ذلك فإن تركت الصلاة، ظنًا أنها نفساء فعليها أن تقضيها(٣).

الحالة الثانية: أن يسقط وقد ظهر عليه بعض خلق إنسان، وهذا يحصل إذا كان قد مضى على الجنين واحد وثمانون يومًا فصاعداً(٤). **وأما نفخ الروح** فلا يكون إلا بعد أربعة أشهر، كما دل عليه حديث ابن مسعود السابق(٥).

وفي هذه الحالة تكون الأحكام الآتية:

أما السقط الذي قد نفخ فيه الروح وظهرت عليه بعض علامات خلق الإنسان فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ويقبر في مقابر المسلمين، على الراجح(٦). **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والسقط يصلى عليه، ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة)(٧).

---

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية(١٦/١٢٢) (١٨/٢٧٣).

(٢) ينظر: فتاوى الشبكة الإسلامية (٣/٢٨٨٩).

(٣) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٣٤٥٨).

(٤) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٨٦٩).

(٥) المغني، ابن قدامة (٢/٣٩٣).

(٦) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦/١٢٢) (١٨/٢٧٣)، فتاوى الشبكة الإسلامية (٣/٢٨٠٧)، أحكام الجنائز (ص: ٨١)، الفقه الإسلامي وأدلته (٢/٦٠٩).

(٧) رواه أبو داود، وهو صحيح.

وتستحب تسميته عند بعض الفقهاء[١].

وأما أمُّ هذا السقط فإنها تكون نفساء فلا تصلي ولا تصوم ولا يعاشرها زوجها حتى تطهر من دمها، ثم عليها بعد أن تطهر قضاء الصيام.

عباد الله، وبعد هذا أحب أن أقول:

إن الحامل تجد في حملها مشقة عظيمة؛ فكم تعاف بعض محبوباتها من طعام وشراب وطيب وزينة، وكم تبقى مثقلَة بحملها تسعة أشهر، وكم تذهب إلى المستشفيات والعيادات؛ لما يعتريها من ألم وأمراض، وكم تعمل أشياء تكرهها، وتترك أشياء تحبها؛ حرصًا على سلامة جنينها، فإذا اقترب موعد ولادتها ذاقت صنوف الأوجاع والآلام.

وعند هذه المكاره نقول: على المرأة الحامل -وهي تقاسي هذه الآلام- أن تحتسب أجر ذلك عند الله، فلها بصبرها أجر عظيم.

كما نقول لها: ها أنت قد ذقت ويلات الحمل فتذكري أمك التي حملتك، فاشكريها على ما قدمت لك، واحرصي على برها.

كما نقول لكل زوج رأى ما تعانيه زوجته أثناء حملها، وآلمته تلك المعاناة: ها أنت قد عشت آلام حمل زوجتك في حملها وولادتها، فتذكّر أباك وأمك: تذكر كم عانى أبوك أثناء حمل أمك بك، وتذكر أمك كم تعبت حتى أخرجتك إلى هذه الدنيا، فالبِّرَّ البرَ بالآباء والأمهات عباد الله.

---

(١) ينظر: المغني (٢/٣٩٣)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١١/ ٣٣٠).

أخـيراً نقـول للمـرأة الـذي ذهـب جنينهـا بـسقوطه قبـل تمامـه، وحزنـت عليـه، واحتسبت ذلك عند الله: أبشري بخير ينتظرك عند الله، أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (والذي نفسي بيده، إن السقط ليجر أمه بسَرَرِهِ إلى الجنة إذا احتسبته)[١].

نسأل الله أن يغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا، وأن يصلحنا ويصلح زوجاتنا وذرياتنا، إنه سميع قريب.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية...

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وهو صحيح.

بين قصتي يوسف وموسى عليهما السلام
(قراءة تدبرية مقارنة)[(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن قراءة القرآن المبنيةَ على التأمل والتدبر والفهم والوعي هي التي تصنع القارئ المنتفع بكلام الله تعالى، وتجعل حبه للقرآن عظيمًا، وتلذذه به كبيراً، وتمنحه كثرة التردد على آياته، وحب البحث فيها، ومعرفة ما تكنّه من المعارف

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني: ١٤/٨/١٤٤٠هـ، ١٩/٤/٢٠١٩م.

والهدايات والأعمال.

إن من القِصص المؤثرة التي ذكرها القرآن الكريم: قصة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام، التي انفردت عن سائر قِصص القرآن بمزايا كثيرة، منها: التفصيل في أحداثها، وخلوص سورة كاملة في شأنها، حتى لم تذكر معها قصة سواها.

وفي مجال القَصص القرآني نجد من أنبياء بني إسرائيل الذين كثر حديث القرآن عنهم: نبي الله موسى عليه السلام، فهو أكثر نبي فصل القرآن قصته، وذكر أحواله المختلفة، وتناول جوانب متعددة من حياته الأسرية، وحياته الدعوية.

ومن يتأمل في قصة يوسف وقصة موسى -خاصة الجوانب التي ذكرت من قصة موسى في سورة القصص -يلاحظ وجوهًا متقاربة، وأحوالاً متشابهة.

إن يوسف عليه السلام هو ابن يعقوب الملقب بإسرائيل عليه السلام، وقد كان ليعقوب اثنا عشر ابنًا، نشأت عنهم اثنتا عشرة قبيلة من بني إسرائيل، فجاء موسى بن عمران من نسل أحد أبناء يعقوب وهو لاوي بن يعقوب عليه السلام، وكان بين موسى ويعقوب آباء، كان يعقوب هو الجد الرابع أو الخامس لموسى، كما ذكر بعض أهل العلم(١).

عباد الله، تبدأ القصة -في حديثنا عن المقارنة بين القصتين- بالإلقاء لكلا النبيين الكريمين؛ فيوسف أُلقي في الجب_ يعني: البئر-، وموسى ألقي في اليم-يعني: نهر النيل-. وقد ألقت يوسف في الجب أيدٍ تريد أن تتخلص منه، وألقت موسى في اليم يدٌ تريد أن تخلِّصه باليم. فأيدي الإلقاء في الجب أيدٍ كارهة ليوسف وهي أيدي إخوته

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٧٣).

الذين حسدوه لمزيد حب أبيهم له، فأرادوا الخلاص منه بهذا الفعل المشين.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[يوسف:١٠]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥].

وأما يد الإلقاء في اليم فهي يدٌ مُحِبَّة رحيمة حانية أرادت أن تخلص موسى من أيدي جنود فرعون الذين يسعون وراء مواليد بني إسرائيل من الذكور لقتلهم؛ لأن فرعون قد أُخبر عن طريق بعض الكهنة -كما قيل- بأن زوال ملكه سيكون على يد غلام من بني إسرائيل. فألهمَ اللهُ أمَ موسى أن ترضعه حتى يشبع ثم تلقيه في اليم، ففعلت ذلك عن ثقة بالله تعالى، وتصديق بوعده الذي لا يتخلف برده إليها حياً.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧].

وبعد الإلقاء في الجب واليم جاء الإنقاذ لهما إلى بر الأمان؛ فيوسف عليه السلام أنقذته أيدٍ تجارية فباعته بثمن بخس دراهم معدودة، حتى وصل إلى عزيز مصر، فعاش في قصره رقيقًا.

قال تعالى عن يوسف: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:١٩-٢١].

وأما موسى فوصل إلى أيدٍ ملكية وهم آل فرعون الذين يقتلون الأطفال، ولكنهم لما كانوا جنوداً مأمورين لم يستعجلوا في قتل موسى حتى تصدر إليهم الأوامر بذلك من قبل فرعون؛ فلذلك حملوا موسى إلى قصر فرعون، فلما رآه فرعون وزوجته تباينت نظرتهما إليه؛ ففرعون أراد التخلص منه على طريقته المعهودة من أجل غايته المقصودة، وأما زوجته فإنها حينما لم يكن لها ولد فقد تملكتها عاطفة الأمومة فطلبت إبقاءه وتربيته في قصرها؛ رجاء أن يكون قرة عين لها، فنفذ فرعون طلب زوجته فأبقى موسى حيًا.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[القصص:٨-٩].

ونلاحظ في هذا الفصل من فصول حياتي هذين النبيين الكريمين **أموراً:**

الأول: أنهما كليهما من أولاد يعقوب.

الثاني: أن كليهما فُقِد عن أسرته.

الثالث: أن كليهما ناله الإلقاء في الماء.

الرابع: أن كليهما لم يدم طويلاً في الماء بل أنقذ منه.

الخامس: أن كليهما وصل إلى قصر في مصر؛ فيوسف استقر في قصر عزيز مصر، وموسى استقر في قصر ملك مصر فرعون.

السادس: أن كل مستقبل مكرِم لكل منهما في ذينك القصرين رجا نفعه أو اتخاذه ولداً، فقد نطق العزيز وامرأة فرعون بجملة متفقة، قال تعالى عن العزيز: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[يوسف:٢١]، وقال عن امرأة فرعون: ﴿لا تَقْتُلُوهُ

عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[القصص:٩].

أيها المسلمون، ومما اشترك فيه يوسف وموسى عليهما السلام: حزن الوالدين الشديد على فقدهما؛ فيوسف قد احتال إخوته على أبيهم لأخذه للعب معهم، وهم عازمون على التخلص منه، فألقوه في الجب، ثم عادوا إلى أبيهم فأخبروه الخبر الكاذب بهلاك يوسف بين براثن الذئب ومخالبه، فأدخلوا على أبيهم يعقوب بذلك حزنًا عميقًا استمر معه سنين عدداً، حتى ذهب بصر يعقوب من شدة الحزن والبكاء على يوسف. قال تعالى: قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٦-١٨].وقال تعالى أيضًا بعد فقد بنيامين في مصر: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨١-٨٥].

وأما أُمّ موسى فقد حزنت على فراقه حزنًا كبيراً، حتى أصبح قلبها فارغًا من شواغل الدنيا إلا من ذِكْر موسى، ومن شدة وجدها عليه وشوقها إليه فقد قاربت أن تخبر أن لها ولداً مفقوداً، ولكن الله ربط على قلبها فلم تبح بسرها.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص:١٠].

أيها الأحباب الكرام، ومما اشترك فيه هذان النبيان الكريمان أن الله قد وعد والديهما بنجاة ولديهما وعودتهما إليهما سالمين، وكانا على يقين من حياتهما بعد فقدهما؛ ولذلك أرسلا أولادهما للبحث عنهما، قال تعالى عن يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٦-٨٧]. وقال عن أم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧] .

وقال أيضًا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١].

إخواني الفضلاء، إن من الملاحظ في هذا الفصل من القصتين أن الله تعالى قد جعل سببين مختلفين لعودة يوسف وموسى لأسرتيهما؛ فأما سبب عودة يوسف إلى أبيه فهو الرحلة التجارية لإخوة يوسف، والتي تخللتها أحداث منها: أخذ يوسف لأخيه بنيامين محتجزاً مكرمًا لديه حتى يصل به إلى أبيه يعقوب بعد أن عرف أن أصحاب القافلة هم إخوته. وبعد محاورة وأحوال جرت بين يوسف وإخوته في مصر عاد يوسف إلى أبيه الأسيف عليه فاجتمع به في مصر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا

فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٨٨-٩٤].

وأما سبب عودة موسى إلى أمه فهو حاجته للارتضاع؛ إذ لم يقبل ثدي امرأة غير ثدي أمه، وكان ذلك بقدرة الله تعالى وحكمته ورحمته بأم موسى، فقال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[القصص:١٢-١٣].

والملاحظ في هذا الفصل من القصتين أيضًا: أن القرآن الكريم وصف حال عودة يوسف وفصل فيها، بخلاف قصة عودة موسى، ولعل من أسباب ذلك: طول مدة فقدِ يوسف، وأثر ذلك على يعقوب وصحته، وأما موسى فقد بقي مدة يسيرة ثم عاد إلى أمه، فيعقوب عليه السلام فرح فرحًا عظيمًا بحياة يوسف ومعرفة مكان وجوده فرجع إليه بصره بعد عماه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٦-٩٨].

أيها الإخوة الفضلاء، ومما اشترك فيه النبيان الكريمان: أن كليهما وصل إلى بيت مُلك، وإلى يد امرأة؛ فأما يوسف فعاش في ذلك البيت مولى، لكنه لقي من صاحبه الإكرام والإنعام، غير أن نعمته لم تسلم من كدر في آخر عهده بذلك البيت؛ إذ ابتلي بامرأة العزيز حيث راودته عن نفسه، ثم آل أمره بسبب تمنعه عنها إلى دخول السجن.

قال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١]، ثم قال: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

وأما موسى فعاش في قصر فرعون كما يعيش أبناء الملوك في نعمة وعناية، ولقي من امرأة فرعون الاحتفال والحفاوة والحب والحنان والخير الكثير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[القصص:٩].

أيها الأحباب الفضلاء، لقد وصف الله تعالى كلا الرسولين الكريمين بآية واحدة متفقة الألفاظ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢]، إلا أنه زاد في وصف موسى لفظ: "واستوى" فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[القصص:١٤]. **والسبب:** أن موسى أوحي إليه في سن الأربعين من عمره وهي سن كمال القوة واستوائها، وأما يوسف فأوحي إليه قبل ذلك، كما قيل، ولذلك لما زاد موسى بالسن والقوة زيد في وصفه بقوله: "واستوى". وقيل في سبب الزيادة بوصف الاستواء: أن موسى ورد في الأحاديث وصفه بكمال القوة البدنية وطول القامة؛ فلهذا زيد وصفه بالاستواء لذلك السبب(١)، والله أعلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) ينظر: أسرار التكرار في القرآن (ص: ١١١)، التحرير والتنوير (٢٠/٢٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، ومما اشترك فيه النبيان الكريمان يوسف وموسى عليهما السلام: التنعم الكبير، والبلاء الكثير.

فيوسف مرت حياته بطورين: طور البلاء والرق، وطور التنعم والعز؛ ففي الطور الأول: ابتلي بعداوة إخوته حتى ألقي في الجب، وابتلي ببيعه حتى صار رقيقًا في بيت العزيز، وابتلي بمراودة امرأة العزيز، مما أدى به ذلك إلى دخول السجن ولبثه فيه سنوات، وبعد هذا كله جاء الطور الثاني وهو طور التنعم والعز، وسيأتي في نهاية القصة.

وموسى كذلك مر بطورين مخالفين لطوري يوسف، فقد ابتدأت حياته بالتنعم والعز في بيت فرعون، ثم جاء الطور الثاني: طور البلاء، فقد ابتلي بقتل القبطي من غير عمد؛ انتصاراً لرجل من بني إسرائيل، حتى آل الأمر إلى تآمر الملأ عليه من أجل قتله، فخرج عن مصر إلى مدين فاستقر فيها ثماني سنوات أو عشراً بعيداً عن أهله وبلده. قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[القصص:١٥]، ثم قال

تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:١٨-٢١].

عباد الله، وأما النهاية لقصتي هذين النبيين الكريمين فهي أنه قد صار كل منهما في مهمة عامة كانت هي خاتمة فصول قصته؛ فيوسف عليه السلام خرج من السجن إلى الجاه العريض، والعز المنيف، والتمكين في أرض مصر، بعد مرور فصول من الابتلاء عليه.

فصار عقب الابتلاء على خزائن مصر، فجاءت الحاجة بأهله من الشام حتى اجتمعوا إليه في مصر وخروا له سجداً، وبذلك تحققت رؤياه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:٩٩-١٠١].

وأما موسى عليه السلام فقد رجع من مدين إلى مصر رسولاً من الله إلى فرعون وقومه، فدعاهم إلى دين الله، فأبى فرعون قبول دعوته، فخرج موسى ببني إسرائيل

من مصر فتبعهم فرعون وجنوده، فأهلك اللهُ فرعون ومن معه في اليم، ونجى موسى وبني إسرائيل، فسار بهم في صحراء سيناء في طريقه إلى بيت المقدس، إذ كان قد طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ويقاتلوا الجبارين فيها، لكن بني إسرائيل أبوا عليه ذلك، فضرب الله عليهم التِّيه في سيناء أربعين سنة، وفي تلك المدة مات موسى عليه السلام. وهذه النهاية من قصة كليم الله تناولتها آيات كثيرة من القرآن العظيم في سورة القصص وغيرها.

أيها المسلمون، في هاتين القصتين تجلى الحب والبغض، والألفة والعداوة، والإحسان والإساءة، والقرب والبعد.

وظهر في القصتين: حنان الأبوة والأمومة وحزنهما، ونفع الأُخوّة وضرها.

وصُوِّر في القصتين: الحزن والفرح في أحوال مختلفة؛ حزنُ الفقد والفراق، وفرح العودة والتلاق، وحزن البلاء، وفرح النجاة منه، وحزن العداوة، وفرح إذابتها.

أحبابنا الفضلاء، من هذه المقارنة بين هاتين القصتين نتعلم:

أن الابتلاء عنصر ملازم للحياة الإنسانية، غير أن الله تعالى يبسط على الصالحين من عباده أجنحة لطفه وعنايته، ويسخر لهم من عباده من يخففون عنهم شدة وطأته.

ونتعلم من هاتين القصتين: أن الفرج يعقب الشدة طالت الشدة أم قصرت، وأن المحن تخفي في طواياها المنح، ورب أمر أحزنَ أولُه، أفرح آخرُه.

ونتعلم من هاتين القصتين: أن الثقة بالله تعالى، وحسن الظن به طريق إلى المطالب الحميدة، والخروج من المآزق الشديدة.

ونتعلم من هاتين القصتين: أن مفارقة الولد لوالديه تحزنهما حزنًا شديداً، وهذا يستدعي كمال بر الأولاد بالوالدين، وحسن رعايتهما، والقيام بحقهما.

ونتعلم من هاتين القصتين: أن الأخت قد تنفع أخاها، والأخ قد يضر أخاه في جو العداوة والحسد.

ونتعلم من هاتين القصتين: أن اختيار الله لعبده خير من اختيار العبد لنفسه، والموقف الصحيح في ذلك: أن يرضى المسلم بما قدره الله عليه، ويحسن الظن بالله، ويثق بحسن بلائه، فمن فعل ذلك خف بلاؤه، وقل عناؤه، وقرب فرجه، وتيسر مخرجه، وأُجر على مصائبه، وسما في مناقبه.

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه....

وإنك لعلى خلق عظيم(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

هذه جملةُ ثَناء من رب السماوات والأرض، فعلى من يُثني الملك الدّيان، وبماذا أثنى؟

لقد أثنى الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم، ومدحه في

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في ٤/٣/١٤٤١هـ، ١/١١/٢٠١٩م.

هذه الآية بهذا العمل الكريم.

وتأملوا -أيها الفضلاء- في هذه الجملة القرآنية الأنيقة -في لفظها ومعناها- في أي قالب جاءت، وأيَّ ثوب بلاغي اكتست؟

إن هذه الجملة البليغة تفيد بلوغ رسول الله محمد عليه الصلاة أعلى درجات الخلق الحسن؛ فقد صَدَرت هذه التزكية من الله تعالى الذي شهادته أكبر شهادة، وقوله أصدق قول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾[الأنعام:١٩]. وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢].

وصُدِّرتْ هذه الجملة بـ إن واللام، وهما تفيدان التوكيد، الذي يشعر برسوخ قدم رسول الله في أرض الأخلاق النبيلة.

كما أنها لما جاءت للإعلام بتمكّن رسول الله من الخلق العظيم فإنها ذُكرتْ بحرف الجر (على) الدال على الاستعلاء والتمكن. فلم يقل الله تعالى: وإنك لذو خلق، وإنما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فجاء بحرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء" فدل هذا اللفظ على أنه مستعلٍ على هذه الأخلاق، ومستولٍ عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالسيد بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور"(١). يوجهه إلى حيثما يريد.

وكذلك ذكر الله تعالى صفة المدح بلفظ التنكير فقال: ﴿خُلُقٍ﴾، ولم يقل: الخلق، والسبب أن التنكير هنا يفيد التعظيم؛ لبيان عظمة ما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم من كمال الخلق الكريم.

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٣٠/٧١)، بتصرف يسير.

ولم يُكتفَ بهذا، بل نعت هذا الخلق الحسن بالعظمة الكبيرة الدالة على قوة تمكنه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الحسنة؛ ولذلك جاء الوصف بالعظمة على صيغة (فعيل) التي هي من صيغ المبالغة.

أرأيتم ما أعظم هذا الثناء، من رب الأرض والسماء، على سيد الأنبياء، عليه الصلاة والسلام.

صلى وسلمَ ذو الجلالِ عليكَ يا — مَن نورُ طلعتهِ يشقُّ الغيهبا
صلى وسلمَ ذو الجلالِ عليكَ ما — أحلاك ذِكراً في القلوبِ وأعذبا
صلى وسلمَ ذو الجلالِ عليكَ ما — أوفاكَ للمتذمِّينَ وأحسبا
صلى وسلمَ ذو الجلالِ عليكَ ما — أزكاكَ في الرسلِ الكرامِ وأطيبا
صلى وسلمَ ذو الجلالِ عليكَ ما — برقتْ خلائقك الكريمةُ في الرُّبا

عباد الله، إذا أثنى الله تعالى على نبينا صلى الله عليه وسلم في كتابه الكريم بعموم خلقه العظيم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]؛ فإنه قد أثنى عليه أيضًا في القرآن في مواضع أخرى ببعض أنواع هذا الخلق:

ففي سورة التوبة أثنى عليه بكثرة الرأفة والرحمة بالأمة، والحرص على أن لا يصيبها عَنتٌ ولا مشقة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

وأثنى عليه في سورة آل عمران بالرفق واللين، وأمره بمشاورة المؤمنين والاستغفار لهم والعفو عنهم، والتوكل عليه تعالى، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

فامتثل رسول الله هذه الأوامر الخلقية من غير تردد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعمل بأوامر القرآن، كما جاء في حديث سعد بن هشام بن عامر، قال: أتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: " كان خلقه القرآن، أما تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤](١).

ومعنى كان خلقه القرآن: "أنَّه كان تأدَّب بآدابه، وتخلَّق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمه القرآنُ كان فيه سخطه"(٢).

"فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلاً له وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته. فترجمت أم المؤمنين -لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول وحسن تعبيرها- عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن"(٣).

أيها المسلمون، إن الأخلاق الحسنة كانت سجية نبينا الكريم التي لا يفارقها، وسيرته العطرة التي عُرف بها، قبل نبوته وبعدها، فلم يكن أحد يساويه أو يفوقه في تلك الشمائل العظيمة، والخِلال العذبة الكريمة.

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) جامع العلوم والحكم (١٨/١٤).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢/٢١٨).

حتى لقد كان خلقه الفاضل هو الذي تميز به بين قومه قبل بعثته؛ وشُهرَ به مع كل من خالطه؛ فلذلك غدَوا يلقبونه بالصادق الأمين، وينزلونه في منازل التبجيل المنزلَ السامي المكين.

وبعد أن أرسله الله تعالى رسولاً للعالمين ازداد بالوحي أخلاقًا إلى أخلاقه، وفضائل إلى فضائله.

فكانت أخلاقه السامية طريقًا إلى إيمان بعض الناس به، والاستجابة إلى ما يدعوهم إليه، وصارت كذلك سببًا من أسباب ثبات من أسلم له على الدين الحق.

عباد الله، إننا لو قلبنا صفحات السيرة النضرة لسيد البشرية صلى الله عليه وسلم، لوجدنا أن أخلاقه المشرقة كانت عنوانه الدائم مع جميع الناس: قريبهم وبعيدهم، ومسلمهم وكافرهم، ووليِّهم وعدوهم.

كما أنها لم تكن شيمته في حال الرضا، وعازبة عنه في حال الغضب، ولكنها كانت هي صفته القائمة، وحليته الدائمة في كل مقام، وعلى كل حال، ومع كل فئة.

إن الإنسان قد يكون حَسنَ الأخلاق خارجَ البيت مع الناس، لكنّ أخلاقه قد تضيق في بيته مع أهله وأولاده. أما نبينا صلى الله عليه وسلم فلم يكن كذلك، بل كان خلقه حسنًا في منزله وخارجه.

كيف لا وهو القائل عليه الصلاة والسلام: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[(١)].

(١) رواه ابن حبان وابن ماجه، وهو صحيح.

وقد صدق -عليه الصلاة والسلام- هذا القولَ مع زوجاته رضي الله عنهن بتواضعه وحسن معاشرته وطيب تعامله، وجميل أقواله، فعن عائشة أنها قالت: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخّابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح)(١).

قيل لها رضي الله عنها: ماذا كان يعمل رسول الله في بيته؟ قالت: (كان بشراً من البشر؛ يَفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه)(٢). **وفي رواية:** (يخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته).

ويقول خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا لعانًا ولا سبَّابًا، كان يقول عند المعتبة: (ما له ترب جبينه)(٣).

عباد الله، وأما أخلاقه صلى الله عليه وسلم مع الناس فإنه كان فيها على أسمى الدرجات، حتى أصبح بها مضرب المثل، وقدوةَ الأواخر والأُوَل.

فمن سأل عن حلمه فسيجيبه عفوُه عن المسيء إليه، وصبره على الجافي معه، وتركه الانتصارَ لنفسه، وبعده عن الانتقام ممن آذاه. فعن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أنّه قال: (كنت أمشي مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وعليه برد نجرانيّ غليظ الحاشية فأدركه أعرابيّ فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتّى نظرت إلى صفحة عاتق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد أثّرت بها حاشية البرد من شدّة جبذته ثمّ قال: يا محمّد، مُرْ لي من مال اللّه الّذي عندك. فالتفت إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثمّ ضحك ثمّ

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

(٣) رواه البخاري.

أمر له بعطاء)[(١)].

ومن سأل عن صبره صلى الله عليه وسلم فسيحدثه عن بعض أمثلته صبره على ما لقي من المشركين في مكة والطائف من الضرر والعناء، وصبره على ما ناله من المنافقين واليهود في المدينة من الطعن والأذى، وصبره على ما وجده من الأعراب من الشدة والجفاء، وصبره على ما أصابه يوم أحد من آلام الجراح وسيلان الدماء.

ومن سأل عن تواضعه ولين جانبه فسيخبر عنه أكله كما يأكل الناس، وجلوسه كما يجلسون، وركوبه ما يركبون من غير تميز عنهم في ذلك، وإجابته دعوة الداعين من أصحابه من غير انتقاء، وشفاعته للموالي والجواري عند أسيادهم، ومشاركته أصحابه في الأعمال العامة كما في بناء المسجد وحفر الخندق، وعيادته مرضاهم، وتشييعه جنائزهم، ومواساته لهم، ومداعبته للأطفال، وسلامه عليهم، وتحنيكهم عند ولادتهم.

ومن سأل عن رحمته فسيجيبه حزنه على إعراض قومه المشركين، وعدم دعائه عليهم، وترك الموافقة على استئصالهم وقد فعلوا به ما فعلوا من الأذى؛ فإنه لما ناداه ملك الجبال قائلاً: يا محمّد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين -يعني الجبلين-، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا)[(٢)].

أرأيتم إلى أي مدى وصلت رحمته وحلمه صلى الله عليه وسلم؟

ومن سأل عن رحمته فستتحدث عنها التشريعاتُ التي لم يوجبها شفقة بأمته؛ كالسواك مع كلّ صلاة، وتخفيفه صلاته متى ما سمع بكاء صبي في المسجد حتى لا

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

يشق على أمه، وإقباله وفرحه بأولاد بناته في المسجد وخارجه، وبكاؤه على من مات من أبنائه.

فصلاة ربي وسلامه على نبينا الرؤوف الرحيم.

أيها المسلمون، وأما أخلاقه مع أعدائه فقد كانت هي الطريقَ إلى تعامله معهم تعاملاً حسنًا؛ فإنه لم يخرج عن الخلق الكريم معهم، مما أثّر ذلك على بعضهم حتى ازدادوا له تعظيمًا، وأقبل بعضهم إليه منقاداً مسلما.

فقد كان صلى الله عليه وسلم يسلك معهم مسلك الصفح والعفو، والصبر وضبط النفس، حتى إذا لم تجد هذه الأخلاق موقعًا فيهم تعامل معهم بما يأمر به العدل والعزة.

ففي مكة كم أساء إليه المشركون، وتعدوا في معاملته حدودَ الخلق الكريم الذي يأمر به الجوارُ والقرابة وعاداتُ العرب الكريمة في ذلك الوقت.

ومع ذلك كله ترفّع عن الانتصار لنفسه، حتى توّجَ ذلك الخلقَ السامي يوم فتح مكة حينما قال: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟) قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء)(١).

فلما مد بساط العفو عنهم أقبل المئات منهم على اعتناق دين الإسلام.

صلَّى عليك اللهُ يا علَمَ الهدى … عددَ الحصى والرمل والأوراقِ

ومن خلقه الكريم مع أعدائه: وفاؤه بعهده معهم، فلم يُخلف وعداً وعده، ولم ينقض معهم عقداً عقده،

---

(١) السيرة النبوية (٥/ ٧٤).

فعن أبي رافع- رضي الله عنه- قال: بعثتني قريش إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أُلقي في قلبي الإسلام. فقلت: يا رسول الله، إنّي والله لا أرجع إليهم أبدا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنّي لا أَخِيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد، ولكن ارجع، فإن كان في نفسك الّذي في نفسك الآن، فارجع) قال: فذهبت، ثمّ أتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأسلمت)(١).

أيها الأحبة الفضلاء، يقول الإمام ابن القيم -ملخِّصًا أخلاقَ رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ومما يحمد عليه -صلى الله عليه وسلم- ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه صلى الله عليه وسلم علم أنها خير أخلاق؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً،...وكان أرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم...وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً على نفسه، وأشد الخلق ذباً عن أصحابه وحماية لهم ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهي عنه، وأوصل الخلق لرحمه"(٢).

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا برسولنا مقتدين، وبأخلاقه الكريمة متخلِّقين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) جلاء الأفهام (٤٠/٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، ها أنتم سمعتم فصولاً يسيرة من أخلاق نبينا صلى الله عليه وسلم، وركبتم على صهوات الخيال فمضيتم إلى زمنه عليه الصلاة والسلام، فتأملتم في تلك المواقف البهيجة التي أنبأت عن سمو أخلاقه الكريمة، وسموق شمائله العظيمة.

ولا ريب أنكم على يقين جازم بأنه قدوتنا وهادينا، فما يسعنا إذاً والأمر كذلك إلا أن نعمل بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر:٧]. وبقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١].

فأخلاقه صلى الله عليه وسلم تدعونا إلى أن نقتدي به فيها، فنكون به متأسين، وعلى طريقه فيها سالكين.

إن تلك الخلائق الكريمة لنبينا صلى الله عليه وسلم تأمرنا أن نتبعه في صدقه وأمانته، وصبره ووفائه، وحلمه وعفوه، وإحسانه وإيثاره، وتواضعه ورحمته، وورعه وزهده، وغير ذلك من خلائقه السامية، وشمائله العالية.

فنكون صادقين أمناء، صابرين أوفياء، عافين حلماء، محسنين مؤثِرين، رحماء متواضعين، ورعين زاهدين.

فالله الله -عباد الله-في التمسك بالأخلاق الحسنة في بيوتنا وخارجها، في حال رضانا وفي حال سخطنا، في أفراحنا وفي أحزاننا.

ولنستعن في ذلك بتذكر الجزاء العظيم على حسن الخلق يوم لقاء الله تعالى.

ومن ذلك أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء)[١].

ومن ذلك أيضًا: أن منزل ذي الخلق الحسن من المؤمنين في أعلى الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيم ببيت في أعلى الجنّة لمن حسن خلقه)[٢].

نسأل الله أن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيء الأخلاق لا يصرف عنا سيئها إلا هو.

هذا وصلوا وسلموا على خير الورى...

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي، وهو حسن.

الرؤى وتعبيرها

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، في رحلة مستقبلية لم يُعِدْ لها صاحبها، ونُقلة روحية يحلِّق المرء بها، في عالم لم يصل إليه زمانه، وحالٍ لم يحنْ بعدُ أوانُه، تطير إليه الروح والأجفانُ مطبَقة، والأبواب مغلقة، وأعضاءُ الجسد ساكنة، والسُّباتُ يفرض سلطته الصامتة على المكان ومَن فيه.

ومن هنالك تنطلق روح النائم في آفاق رحبة لا تحدُّها حدود، ولا تقيدها نواميس

الطاقة الإنسانية المحدودة، فتجد هنالك ما يَسرُّها ويُضحِكها، أو يسوؤها ويُكمِدها، أو يتمثّل لها ما يَشغل بالَ صاحبها طَوال نهاره.

إنه عالم الرؤى والأحلام الذي يلجه كلُّ إنسان منا في منامه، ويرى من خلاله أشياءَ من الخير والشر، والحقِّ والباطل، ويشاهد أحداثًا وأحوالاً ضُربتْ له مثلاً يدل على أمور ليحذرها أو يعملها أو ستحصل في قادم الأيام.

ولا شك أن موضوع الرؤى وتعبيرها موضوع ذو أهمية كبيرة لنا جميعًا على اختلاف طبقاتنا وأعمارنا ومعارفنا؛ فما من أحد إلا ويرى في منامه أحلامًا ورؤى.

ومما يدل على أهمية هذا الموضوع أيضًا: أن الله تعالى ذكره في القرآن في سور وآيات متعددة؛ فقد ذكره في سور: يوسف -في عدة مواضع-، وفي الأنفال والصافات، والفتح.

كما وردت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عشراتُ الأحاديث التي تتحدث عن آداب الرؤى وأحكامها، وما يتصل بها.

ومما يدل على أهميته كذلك: أن الرؤيا الصادقة قد تحمل بشرى للمؤمن؛ فتزيده ثباتًا على الطريق المستقيم، ومسارعة إلى الخيرات فيه، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[يونس:٦٢-٦٤].

وعن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: (هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له)(١).

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

وبشرى يوسف في رؤياه حينما قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[يوسف:٤]، فتحققت له تلك البشرى التي حملتها له أجنحة الرؤيا بعد حين.

والرؤيا الصالحة قد تتضمن ما يشجع ويحث على عمل صالح؛ كجهاد عدو، أو تأليف كتاب نافع(١)، وغير ذلك.

ففي ليلة وقعةِ بدر أرى اللهُ رسولَه في المنام قلَّةَ عدد عدوه، فشجع ذلك المسلمين على قتاله، وأذهب ما في قلوبهم من خوفه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الأنفال:٤٣].

والرؤيا الصالحة قد تدعو إلى الاطمئنان وكمال التصديق، كما في الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب صلح الحديبية وأخبر بها أصحابه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:٢٧].

والرؤيا قد تكون تحذيراً من ترك عمل صالح، أو تخويفًا من فعل يجرُّ على صاحبه شراً عاجلاً أو آجلاً، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان الرجل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على النبي صلى الله عليه وسلم، قال: وكنت غلامًا شابًا

---

(١) كما حصل لبعض العلماء كالآلوسي في تأليف تفسيره "روح المعاني".

عزبًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت في النوم كأن ملَكَين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطيِّ البئر، وإذا لها قرنانِ كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملَك فقال لي: لم تُرَعْ. فقصصتها على حفصة فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نِعْمَ الرجلُ عبد الله لو كان يصلي من الليل، قال سالم –ابنه- فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً)[١].

عباد الله، إن ما يرى النائم من المرائي ليس نوعًا واحداً، **بل ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: رؤيا بشرى من الله تعالى؛ تؤثر على بشرة الرائي فرحًا وسروراً بما تتضمنه من إيصال خير إليه، أو دفع شر عنه.

النوع الثاني: رؤيا تحزين من الشيطان، بأن يريه عدوُّ الله في منامه ما يحزنه أو يخيفه، فيصبح ضجِراً كئيبًا أو مرتاعًا قلِقًا.

النوع الثالث: رؤيا من حديث النفس، وهو أن يترآى للنائم في نومه ما أحدثه في يقظته، أو انشغل به باله تفكيراً وعملاً، فيحضره ذلك في منامه، وهذا لا عبرة به.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه)[٢].

وقال أيضًا: (إن الرؤيا ثلاث: منها: أهاويل[٣] من الشيطان ليحزن بها ابن آدم،

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم

(٣) أهاويل: جمع أهوال، والهول: الفزع والأمر المخيف.

ومنها: ما يهمُّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها: جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ[(٢)] أَحْلامٍ﴾[يوسف:٤٤] نوع آخر من الرؤى وهو ما لم يكن له تأويل، أو كان فيه أشياء مختلطة غير متناسبة تمنع من صحة تعبيرها، وجاء ذلك "

من خواطر وخيالات تتراءى للنائم في دماغه، ولا معنى لها، وتنشأ من اضطراب الهضم، وتلبُّكِ المعدة، وتعب النفس أحياناً"[(٣)].

أيها الأحباب الكرام، إن الرؤى تختلف باختلاف رائيها؛ فهناك رؤيا نبي، ورؤيا مؤمن صالح، ورؤيا مسلم مقصِّر، ورؤيا فاسق، ورؤيا كافر[(٤)].

فرؤيا الأنبياء أصدق الرؤى؛ لأنها درجة من درجات الوحي، ولكونهم أصلح الناس وأصدقهم قولاً وعملاً، فمن مرائي الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم: رؤيا إبراهيم ذبحَ ابنه إسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢].

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: (أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) الأضغاث: جمع الضغث، وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٦٣).

(٣) التفسير المنير للزحيلي (١٢/ ٢٧٦).

(٤) ينظر في هذا التقسيم: فتح الباري (١٢/٣٦٢)، ضوابط تعبير الرؤيا (ص: ١٢).

من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[(١)].

وأما رؤيا الصالحين فهي في المرتبة الثانية بعد الأنبياء؛ لكمال إيمانهم وصدقهم، فتكون رؤاهم أقرب إلى الصدق، وتحتاج إلى تعبير.

وأما رؤى المسلمين المقصرين وهم الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فمن رؤاهم ما يكون بشرى من الله، ومنها ما يكون من الشيطان وتحزينه وتلاعبه.

وأما رؤى الفسقة، وهم الذين غلب عليهم الكذب والفساد وسائر العصيان، فهم مع الكفار يندر صدق رؤاهم، ويكون الغالب عليهم أضغاث الأحلام. قال بعض العلماء: " من كثر كذبه لم تصدق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه، فكان ما يراه أضغاث أحلام "[(٢)].

أيها المسلمون، إننا بحاجة إلى معرفة الآداب الإسلامية المتعلقة بالرؤى والأحلام؛ حتى يحصل لنا بذلك الخير، ويندفع عنا الشر.

فمن رأى رؤيا يحبها فليحمد الله عليها؛ لأن ذلك من جملة نعم الله عليه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها)[(٣)].

وعليه أن يستبشر بها ويحدث بذلك، ولكن يختار في تحديثه بها: من يحبه، وينصحه، والعالِمَ بتعبيرها، فأما قصُّ ما رأى على من لا يحبه فإنه: " لا يأمن أن يعبره على غير وجهه حسداً، وليغمه أو يكيده: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا

(١) متفق عليه.

(٢) قاله الغزالي. فيض القدير (٤/ ٤٥).

(٣) رواه البخاري.

لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف:٥]"(١).

"أما العالم فإنه يؤولها له على الخير مهما أمكنه، وأما الناصح فإنه يرشده إلى ما ينفعه ويعينه عليه، وأما اللبيب وهو العارف بتأويلها فإنه يعلمه بما يعول عليه في ذلك أو يسكت، وأما الحبيب فإنْ عرف خيراً قاله، وإن جهل أو شكّ سكت"(٢).

قال صلى الله عليه وسلم: (فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ وَلاَ يُخْبِرْ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ)(٣).

وقال أيضًا: (ولا تحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا)(٤).

وعند أبي داود وابن ماجه بسند صحيح قال عليه الصلاة والسلام: (وَلاَ يَقُصُّهَا إِلاَّ عَلَى وَادٍّ، أَوْ ذِي رَأْيٍ).

وأما إذا رأى المرء منا في نومه ما يكره فإن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أرشدنا إلى جملة آداب نعملها؛ ليحفظنا الله تعالى من شر تلك الرؤى المزعجة. فيستحب لمن رأى ما يكره: أن يستعيذ بالله من الشيطان؛ لأن ذلك من تحزينه، ومن شر ما رأى؛ لأنه من جملة المكروهات التي يستعاذ منها، ويبصق عن يساره أو ينفث ثلاثًا حين ينتبه؛ تحقيراً للشيطان، ويتحول عن جنبه؛ تفاؤلاً بتحول الخوف إلى أمن، ويقوم يصلي؛ لتهدأ نفسه من فزع رؤياه، وليدعُ الله.

كما أن من الآداب كذلك: أن لا يحدث بها أحداً؛ حتى لا يخيف حبيبًا ولا يحزنه، ولا يُفرِح عدواً ويُشمِته.

---

(١) فيض القدير (٤/٤٥).

(٢) فتح الباري (١٢/٣٦٩).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي، هو صحيح.

ويوقن بأن رؤياه لا تضره، بعد عمل هذه الآداب؛ ثقة بالله، واتباعًا لرسوله.

عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنها هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنها هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضره)[١].

وفي الصحيحين عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: إنْ كنت لأرى الرؤيا تُمرضُني، فلقيت أبا قتادة فقال: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه فلينفث -حين يستيقظ- ثلاث مرات،-وفي رواية: فإذا حلم أحدكم حُلْما يخافه فليبصق عن يساره[٢]- ويتعوذ من شرها؛ فإنها لا تضره). **وفي رواية:** فليتعوذ منه)[٣] يعني: الشيطان.

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن -الراوي عن أبي قتادة-: "كنت أرى الرؤيا أُعْرَى مِنْهَا، غَيْرَ أَنِّي لاَ أُزَمَّلُ[٤]، حتى لقيت أبا قتادة فذكرت ذلك له.."[٥]، وقال أيضًا: "وإن كنت لأرى الرؤيا أثقلَ عليَّ من الجبل، فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أُباليها"[٦].

عباد الله، أحيانًا يقول بعضهم: لقد رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النوم قال لي كذا أو عمل معي كذا، فهل يكون ذلك صحيحًا؟

---

(١) رواه البخاري.

(٢) البخاري.

(٣) البخاري.

(٤) يعني: تصيبني الحمى وأرتعد لخوفي من ظاهرها، غير أني لا أُغطى كما يغطى المحموم.

(٥) مسلم.

(٦) متفق عليه.

نقول: يحتمل أن يكون ذلك رؤيا صحيحة أو غير صحيحة؛ فإذا رأى أحداً وقال أو قيل للرائي: إن هذا رسول الله فأمره بما يخالف الشريعة الإسلامية؛ فهذه رؤيا غير صحيحة، أو رأى شخصًا فقال: إنه رسول الله، ولكن صفاته الخِلْقية لا توافق صفة رسول الله؛ فهذه أيضًا ليست رؤيا صحيحة.

أما من رأى النبي صلى الله عليه وسلم على صفات خَلْقه الواردة فإنها رؤيا صحيحة.

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي)[1]. **والمعنى:** أن من رآه في المنام على صفته الحقيقية فقد رآه حقًا؛ فإن الشيطان لا يستطيع أن يتشبه به على صورته الحقيقية.

وكيف نعرف أنه النبي عليه الصلاة والسلام؟

نعرف ذلك بمطابقة صفات مَن رأينا بصفات رسول الله المأثورة عنه في الأحاديث الصحيحة، ومن تلك الصفات الخلقية لرسول الله أنه: كان وسطًا بين الطويل والقصير، أبيض مُشْرَبًا بحمرة، ضخمَ رؤوس العظام، شديدَ سواد العينين، طويلَ أهدابها، واسع الفم، برَّاق الثنايا، حسنَ الأنف، ضخم اليدين، كثَّ اللحية، أسود الشعر لم يبلغ شيب رأسه ولحيته عشرين شيبة، وكان شعره وسطًا بين الجعودة والاسترسال، يبلغ شعر رأسه شحمةَ أذنيه.

فمن رآه على هذه الصفة فقد رأى الحق.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن الرؤيا التي يهم الإنسانَ أمرُها، ويشغل بالَه محتواها تحتاج إلى تعبير؛ فكم من امرئ ظل مشغولَ الخاطر، مشتت التفكير بسبب رؤيا رآها.

فكم شغلت ملكَ مصر رؤياه حتى جمع علماء مملكته وكهنتها فلم يعرفوا تأويلها حتى وصل إلى يوسف عليه السلام فعبرها له، فوقع الأمر على حسب تأويله. وكذلك كانت الحال مع الفتيين اللذين كانا مع يوسف في السجن.

إن تعبير الرؤى علم لا يتقنه كل أحد، بل يمهر فيه أفراد قليلون تعلموا هذا العلم، ووهِبوا معه استعداداً فطريًا له، مع المعرفة الجيدة بشرع الله تعالى.

قيل للإمام مالك: "أيعبر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب؟! وقال: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهًا فليقل خيراً، أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال: إنها على ما تأوِّلتْ عليه؟ فقال: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة؛ فلا يتلاعب بالنبوة"(١).

وقال بعض أهل العلم: "وعلم تأويل الرؤيا من علوم الأنبياء وأهل الإيمان، وحسبك بما أخبر الله من ذلك عن يوسف عليه السلام، وما جاء في الآثار الصحاح فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم"(٢).

قال الله تعالى عن تعليم يوسف عليه السلام هذا العلم: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٢١]، **وقال** عن شكر يوسف لهذا

(١) تفسير القرطبي (٩/١٢٦).

(٢) قاله ابن عبد البر. التمهيد (٢٤/٤٩).

العلم وغيره من سائر ما أنعم الله عليه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١].

عباد الله، ليست كل رؤيا نراها تحتاج إلى تعبير، وإنما تعبر الرؤى التي لها شأن. فمن رأى ما يسره، أو ما أشكل عليه فهمُه، وأراد معرفة ما وراء تلك الرؤى فعليه أن يستعبر لرؤياه، لكن عليه أن يبحث عمن يجيد علم التعبير، ويتحرى أهل هذا الفن المتقنين فيستعبرهم عما رأى.

وإن من الغلط الكبير الذي يقع فيه بعضنا -معشر المسلمين- أن يقص أحدنا رؤياه على كل إنسان، أو على من لا يحسن هذا العلم، ومن الخطأ أيضًا: أن يزيد بعض الناس على الرؤيا أشياء لم تكن فيها، وذلك حينما يقصها على المعبِّر.

ومن الإثم العظيم: أن يدعي بعضهم أنه رأى في منامه كذا وكذا وهو في ذلك كاذب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تحلَّمَ بحُلْم لم يَره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل)(١). وذلك التكليف نوع من العذاب.

أيها المسلمون، كما أن هناك تساهلاً لدى بعض الرائين في قص رؤاهم على كل أحد، فهناك في المقابل نجد جراءة عجيبة عند بعض الناس في المسارعة إلى تعبير المرائي من غير أن يكون أهلاً لذلك، يحمله على هذا جهلُه بمقام علم التعبير، أو حبُّه للشهرة، وقلة العلم وضعف التدين، أو الغفلة بأن القول في التعبير داخل في الفتوى، والفتوى توقيع عن الله، قال الله تعالى: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٤١]. وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ...﴾[يوسف:٤٦]. فإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي للإنسان أن يقحم نفسه في تأويل الرؤى بغير علم، ولو كان ذلك على سبيل المزاح مع صاحب الرؤيا.

---

(١) رواه البخاري.

لهذا على من يتصدى لتعبير الرؤى أن يتصف بصفات معينة[١] تجعله أهلاً لهذه المهمة العظيمة، **فمن تلك الصفات:**

أن يكون عالماً حاذقاً بعلم تأويل الرؤى، ذا تقوى وصلاح، ومعرفة كافية بشرع الله، وأن يكتم على الناس عوراتهم وأسرارهم، فلا يحدِّث برؤاهم إن كان فيها بعض الخصوصيات، وأن يلم إلمامًا كاملاً بالرؤيا وما يحتف بها، وأحوال رائيها، عند تعبيرها؛ فإن ذلك له أثر في إصابة التأويل.

وعليه إذا رأى من الرؤيا مكروهًا على الرائي أن يصمت، أو يقول: خيراً رأيت، أو يحثه على بعض الصالحات كالتقوى والصبر والحذر، ونحو ذلك.

بقي أن نقول: هل إذا عبرت الرؤيا وقعت على تفسيرِ أولِ عابر لها؟

الصواب في هذه المسألة: أنها لا تقع على حسب ما يقول كل من عبرها، وإنما تقع على قول من أصاب تعبيرها، ووفِّق لصواب تأويلها[٢].

فيا عباد الله، لنحرص على أن نكون من أهل الصلاح والتقوى حتى يبشرنا الله برؤى صالحة تثبتنا على دينه، وتنير لنا سبيل الوصول إليه، ولنتأدب بآداب الرؤيا، وآداب تعبيرها.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أوليائه المؤمنين المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم صلوا وسلموا البشير النذير...

---

(١) ينظر في بعض هذه الصفات: ضوابط تعبير الرؤيا (ص: ١٦).

(٢) ينظر التفصيل في هذه المسألة في: الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين (ص: ٤٠٥-٤١٦).

قسمة المواريث كما صوّرتها سورة النساء(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن من سور القرآن الطوال: سورة النساء، هذه السورة الكريمة التي سلكت أسلوب الإطناب في ذكر الأحكام الشرعية، والتفصيل في المسائل الفقهية خاصة ما يتعلق بالأسرة المسلمة.

ومن تلك الأحكام التي أطالت الحديث عنها، بل انفردت في تفصيل مسائلها

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١١/١٠/١٤٤٠هـ، ١٤/٦/٢٠١٩م.

دون غيرها من سور القرآن الكريم: أحكام المواريث وقسمة التركات. فذكرت في ذلك إحدى عشرة آية: ما بين آيات قصيرة وآيات طويلة.

ومما لا ريب فيه أن المال قوام الحياة، وسبيل إلى تحقيق المصالح ودفع المكاره فيها، ولا قيام للعيش الكريم إلا بذلك، والإنسان إذا مات لم يعد بحاجة إلى ذلك المال، فماذا يصنع بماله بعد وفاته؟

تعالوا لننظر التصرف فيه في الماضي والحاضر، عبر الأمم:

أما قبل الإسلام في حياة أهل الجاهلية فقد كانوا يورّثون الأقوياء ويحرمون الضعفاء، فمال التركة كان يتوزعه الأبناء الكبار ويمنعه النساء والأبناء الصغار، وكانوا يورِّثون بالتبني والحِلْف، فلما جاء الإسلام لم يقر هذا الظلم، قال بعض المفسرين: " وكانوا في الجاهلية لا يورثون بالبنوة إلا إذا كان الأبناء ذكوراً، فلا ميراث للنساء؛ لأنهم كانوا يقولون: إنما يرث أموالنا من طاعن بالرمح، وضرب بالسيف. فإن لم لن تكن الأبناء الذكور ورث أقرب العصبة: الأب ثم الأخ ثم العم وهكذا، وكانوا يورثون بالتبني وهو أن يتخذ الرجل ابن غيره ابناً له فتنعقد بين المتبني والمتبنى جميع أحكام الأبوة. ويورثون أيضًا بالحلف وهو أن يرغب رجلان في الخُلة بينهما فيتعاقدا أن دمهما واحد ويتوارثان، فلما جاء الإسلام لم يقع في مكة تغيير لأحكام الميراث بين المسلمين؛ لتعذر تنفيذ ما يخالف أحكام سكانها، ثم لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي معظم أقارب المهاجرين المشركون بمكة صار التوريث: بالهجرة، فالمهاجر يرث المهاجر، وبالحلف، وبالمعاقدة، وبالأخوة التي آخاها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾[النساء:٣٣] الآية من هذه السورة. وشرع الله وجوب

الوصية للوالدين والأقربين بآية سورة البقرة، ثم توالد المسلمون ولحق بهم آباؤهم وأبناؤهم مؤمنين، فشرع الله الميراث بالقرابة، وجعل للنساء حظوظًا في ذلك، فأتم الكلمة، وأسبغ النعمة، وأومأ إلى أن حكمة الميراث صرف المال إلى القرابة بالولادة وما دونها"(١).

وأما في العصر الحاضر لدى غير المسلمين فالاشتراكية والرأسمالية في ذلك على طرفي نقيض؛ فالاشتراكية لا تعمل بنظام التوريث للأقارب، والرأسمالية أتاحت للمرء الحرية في أن يوصي بماله من بعده لمن يشاء؛ فظهر من وقف ماله على كلبه أو هرّته أو عشيقته، وحرم أقاربه منه!

إن ديننا الإسلامي الحنيف قد ضبط نظام الميراث ضبطًا عادلاً، وقنن له قانونًا ثابتًا، وجعل له أحكامًا معلومة. فنظام الإرث في الإسلام نظام مالي مضبوط مفروغ منه، غير قابل للزيادة والنقصان، فقد تولى الله تعالى بعلمه وحكمته تبيينه بنفسه في كتابه، ولم يدع تقسيمه على أيدي البشر.

ثم قام رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بتقسيم المواريث كما ذكر الله تعالى، ليكون ذلك هو النموذج العملي الأعلى للعمل بآيات الفرائض، كما جاء عنه-صلى الله عليه وسلم- بعض الأقضية الفرضية التي كانت متممة لما جاء في القرآن، وكلٌّ وحي من عند الله. **فعن** هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال للابنة النصف، وللأخت النصف، وأتِ ابن مسعود فسيتابعني، فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٧).

الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم[١].

ومثل قوله -عليه الصلاة والسلام-: (ألحقوا الفرائض بأهلها، فما تركت الفرائض فلأولى رجل ذكر)[٢]. **يعني:** لأقرب ذكر.

أيها الأحباب الفضلاء، حينما نتأمل نظام قسمة الميراث في الإسلام فإننا نلاحظ الآتي:

أولاً: أنه جعل توزيعه داخل أسرة الميت وأقاربه؛ لأنهم أولى بذلك من الأبعدين.

ثانيًا: أنه جعل له أسبابًا محددة لا تزيد، وهي النسب الصحيح، والمصاهرة، والولاء -كما كان سابقًا-. فلا يدخل فيه ولد زنى، ولا متبنى، ولا لقيط، ولا حليف.

ثالثًا: أنه جعل الأنصبة مقدرة، وتوزيعها على أهلها مقدراً كذلك.

رابعًا: أنه رتب الزيادة والنقصان والحرمان من الإرث على حسب القرب والبعد من الميت.

خامسًا: أنه لم يُعطِ الميراث لشخص واحد، بل جعله شركة بين الورثة حسب القرب والبعد.

سادسًا: أنه لم يفرق في استحقاقه بين الذكورة والأنوثة، والصغر والكِبر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والمتزوج وغير المتزوج، والبار والعاق، بل يعطى الوارث حقه من الميراث: ذكراً كان أم أنثى، صغيراً أم كبيراً، غنيًا أم فقيراً، صحيحًا أم عليلاً،

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

متزوجًا أم غير متزوج، باراً أم عاقًا. إلا أنه منعه عند اختلاف الدين، وقتلِ الوارث مورثَه، فلا توارث بين مسلم ولا كافر، ولا إرث من مقتول لقاتله؛ والقتل المانع من الإرث هو ما أوجب قصاصًا أو دية أو كفارة، وما عدا ذلك لا يمنع.

وأما مسألة المفاضلة بين الذكر والأنثى فليست كائنة في كل أبواب الإرث، بل هي حاصلة في باب واحد وهو أن يكون الذكر والأنثى مشتركين ببنوة أو أخوة من أبوين أو أب. فهنا يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، وهذا من عدل الله تعالى وحكمته؛ فإن حاجة الذكور إلى المال أعظم من حاجة الإناث؛ فالذكور هم المكلّفون شرعًا بالإعطاء والنفقة، وأما الإناث فإنهن آخذات معطى لهن؛ فالرجل هو من يدفع المهر، وهو المكلف بالنفقة على أهله في المطعم والمشرب والملبس والمسكن والدواء وغير ذلك من نفقات الحياة.

ومع هذا فهناك مسائل كثيرة في غير هذا الباب ترث الأنثى فيها مثل الذكر؛ مثل موت الميت عن: بنت وأب، فللبنت النصف، والباقي للأب وهو النصف.

ومسائل يكون للأنثى فيها أكثر من الذكر؛ مثل موت الميت عن: بنت وأم وأب، فالبنت لها النصف والأم لها السدس، والأب له السدس فرضًا والباقي تعصيبًا.

فما أحسن شرع الله وأعدله، وأقومه وأكمله!

أيها المسلمون: نعود إلى الآيات القرآنية التي ذكرها الله تعالى في سورة النساء في بيان قسمة المواريث، ونتأمل ما فيها من أحكام هذا الموضوع، وسنسوقها على حسب ترتيبها من السورة.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[النساء:٧].

فهذه الآية الكريمة تمهيد وإجمال لما سيأتي تفصيله من الأنصبة في الآيات الآتية، وقد بين تعالى في هذه الآية علة الميراث وهي القرابة دون التفريق بين الرجال والنساء وكثرة المال وقلته.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء:٨].

إن النفوس البشرية مطبوعة على حب المال، وهي تعشق الاستحواذ عليه خاصة مال الإرث، فقدّم الله هذه الآية بين يدي آيات توزيع التركة ليكون ذلك دعوة إلى ترك الشح، وحثًا على إكرام المحتاجين. ففيها الندب إلى إعطاء هؤلاء المذكورين على سبيل الاستحباب وإكرامهم بالمال والمقال، قال بعض العلماء: " هذا على الندب؛ لأنه لو كان فرضًا لكان استحقاقًا في التركة، ومشاركة في الميراث لأحد الجهتين معلوم وللآخر مجهول. وذلك مناقض للحكمة، وسبب للتنازع والتقاطع "(١).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء:٩].

وفي هذه الآية وعظ للأوصياء خصوصًا وللناس عمومًا بالإحسان إلى اليتامى. " أي: افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم، قاله ابن عباس "(٢).

قال بعض المفسرين: "ومن هذا ما حكاه الشيباني قال: كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبد الملك، فجلسنا يومًا في جماعة من أهل العلم فيهم ابن الديلمي، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان. فقلت له: يا أبا بشر، ودي ألا يكون لي ولد.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٤٩).

(٢) تفسير القرطبي (٥/٥١).

فقال لي: ما عليك! ما من نَسَمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت، أحب أو كره، ولكن إذا أردت أن تأمن عليهم فاتق الله في غيرهم، ثم تلا الآية. وفي رواية: ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه، وإن تركت ولداً من بعدك حفظهم الله فيك؟ فقلت: بلى، فتلا هذه الآية: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ إلى آخرها"(١).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]. هذه الآية زاجرة زجراً شديداً للذين يظلمون اليتامى في أموالهم كمال الإرث، سواء كان الظالمون أوصياء أم غيرهم، حيث ذكرت المصير الأخروي المخزي لآكلي أموال اليتامى بالباطل.

عباد الله: ثم شرعت الآيات الكريمات من الخامسة إلى الثامنة في تفصيل أنصبة الوارثين وبيان أهل الميراث ومقدار ما يعطاه كل واحد منه، والدعوة إلى العمل بذلك، والوعيد الشديد لمن تجاوز حدود الله في هذا الأمر العظيم.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١١].

و"**هذه الآية** ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الأحكام، وأم من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظيمة القدر حتى إنها ثلث العلم، وروي نصف العلم... وإذا

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٥١).

ثبت هذا فاعلم أن الفرائض كان جل علم الصحابة، وعظيم مناظرتهم، ولكن الخلق ضيعوه. وقد روى مطرف عن مالك، قال عبد الله ابن مسعود: من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبم يفضل أهل البادية؟ "[١].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً فقال: (يقضي الله في ذلك) فنزلت آية المواريث، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى عمها فقال: (أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك)[٢].

والناظر في هذه الآية يرى أنها قد صُدّرت بالوصية؛ دعوة للاهتمام بموضوع الوصية. كما أنها أوصت الوالدين بالأولاد لتبين أن رحمة الله بهم أعظم من رحمة والديهم.

كما أنه قد قدّم ذكر الأولاد قبل غيرهم من الوارثين لأنهم أقرب الناس إلى الميت.

وقد اشتملت هذه الآية على بيان ميراث الأولاد-بنين وبنات-، وميراث الولدَين.

كما ذكرت أن ذلك الاستحقاق يكون بعد إخراج مال الوصية ومال الدين.

وقد بين أهل العلم أن هناك حقوقًا خمسة تتعلق بتركة الميت، وهي على النحو الآتي:

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٥٦).

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وهو حسن.

الأول: مؤونة تجهيز الميت من قيمة كفن وقبر ونحو ذلك.

الثاني: الحقوق المتعلقة بعين التركة كدينٍ برهنٍ.

الثالث: الحقوق المرسلة، وهي قسمان: حقوق للآدميين كدين بلا رهن، وإيجارات.

وحقوق لله: كزكاة مال ونذر وكفارة.

الرابع: الوصية.

الخامس: الإرث.

وإنما قدم تعالى ذكر الوصية قبل الدين مع أن ترتيبها بعده -كما سبق- لأسباب منها: كون الوصية حظ مساكين وضعفاء، وأما الدين فهو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال"(١).

أيها الإخوة الكرام: ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[النساء:١٢].

وفي هذه الآية تم بيان أحكام ميراث الزوج والزوجة والزوجات، وميراث الإخوة لأم.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٧٤).

والمتأمل في هذه الآية والآية التي قبلها يجد أموراً مهمة، **منها:**

الأول: أنه تعالى كرر ذكر الأمر بإخراج مال الوصية ومال الدين قبل توزيع الإرث أربع مرات؛ فذكر ذلك عقب ميراث الأولاد والوالدين، وعقب ميراث الزوج من زوجته، وبعد ميراث الزوجة من زوجها، وبعد ميراث الإخوة لأم. وهذا يشير إلى وجوب الاعتناء بأداء الوصايا والديون قبل قسمة المواريث.

الثاني: ذكرت الآيتان الأنصبةَ الستة المقدرة في الإرث كلها وبينت أهلها، وهذه الأنصبة هي: الثلثان، والنصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن.

الثالث: ختمت الآية الأولى منهما بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ لبيان أن هذا التوزيع لمال الإرث مبني على علم الله المحيط بكل شيء وحكمته البالغة، فلا يسعنا إلا قبول ذلك والتسليم له. وختمت الثانية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ فذكر " وصف العلم والحلم هنا لمناسبة أن الأحكام المتقدمة إبطال لكثير من أحكام الجاهلية، وقد كانوا شرعوا مواريثهم تشريعاً مثاره الجهل والقساوة؛ فإن حرمان البنت والأخ للأم من الإرث جهل بأن صلة النسبة من جانب الأم مماثلة لصلة نسبة جانب الأب. فهذا ونحوه جهل، وحرمانهم الصغار من الميراث قساوة منهم "[1].

الرابع: ذكرت الآية الثانية تحريم الإضرار بالوصية في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾، فلا يجوز للموصي أن يوصي وصية فيها إضرار بورثته، ومن صورها: الوصية بالزيادة على الثلث دون رغبة الوارثين، ومنها الوصية لوارث من الورثة.

الخامس: ومن أجل التأكيد والحث على لزوم الأحكام التي ذكرتها هاتان الآيتان

(١) التحرير والتنوير (٤/٥٤).

فقد ابتدأ الله الآية الأولى منهما بالإيصاء المضاف إليه فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾، وختم الآية الثانية به كذلك فقال: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. ولا يؤتى بالوصية إلا في الأمور التي ينبغي عدم التفريط فيها.

أيها الأحبة الفضلاء: ولما كان بعض الناس لا يلتزم بالأوامر الشرعية إلا بذكر الثواب على فعلها وذكر العقاب على تركها أو التحايل فقد جاء ذكر الآيتين السابعة والثامنة عقب الآيتين الأُوليين فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[النساء:١٣-١٤].

والمعنى: " أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه؛ هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها"(١). فمن أطاع الله ورسوله في هذه الأحكام وغيرها من شرائع الإسلام فهو من أهل الجنة، ومن عصاه فيها بأن جحدها وأنكرها وأوجب في الناس بديلاً عنها ليكون شرعًا مكان شرع الله فقد كفر بالله واستحق الخلود في نار جهنم.

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **أما بعد:**

أيها المسلمون: والآية التاسعة هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

هذه الآية الكريمة فيها بيان تكريم الله تعالى للنساء، فقد كن في الجاهلية لا يرثن، بل كانت الزوجات منهن يورثن كالمال. روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾. الآية . قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته: إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية في ذلك".

وروى وكيع عن سفيان عن علي بن بذيمة، عن مقسم، عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها، فجاء رجل فألقى عليها ثوباً كان أحق بها، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾"(١).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند حسن عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته وكان لهم ذلك في

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٤).

الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾(١).

أحبابي الفضلاء: والآية العاشرة قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾[النساء:٣٣].

" وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة"(٢).

" وكانت الوراثة في الجاهلية بالرجولية والقوة، وكانوا يورِّثون الرجال دون النساء، فأبطل الله عز وجل ذلك...، وكانت الوراثة أيضًا في الجاهلية وبدء الإسلام بالمحالفة...ثم صارت بعد المحالفة بالهجرة"(٣)، ثم أبطل الله ذلك كله، وأبقى الإرث على حسب ما بين تعالى في الآيات السابقة من سورة النساء.

عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ . ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ . قال كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلا النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له﴾"(٤).

وقال سعيد بن المسيب: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

(١) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (ص: ٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٦٠٥).

(٣) تفسير القرطبي (٥/٧٩).

(٤) رواه البخاري.

وَالأَقْرَبُونَ﴾ في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم ويورِّثونهم، فأنزل الله تعالى فيهم: أن يُجعل لهم نصيب في الوصيّة، وردّ الله تعالى الميراث إلى الموالي من ذوي الرحم والعصبة، وأبى أن يُجعل للمدعين ميراث من ادعاهم ويتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبًا في الوصية"(١).

أيها المسلمون: والآية الأخيرة هي الآية الأخيرة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النساء:١٧٦].

وقد اشتملت هذه الآية على حكم ميراث الكلالة، وهو من مات وليس له ولدٌ ولا والد-يعني: لا أصل له ولا فرع، والوارثون له الإخوة والأخوات من الأبوين أو من الأب فقط، فبينت الآية ميراثهم مفردين ومجتمعين.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمى علي فتوضأ، ثم صبّ علي من وَضوئه فأفقتُ، قلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئًا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾[النساء: ١٧٦]"(٢).

فيا عباد الله، علينا أن نحمد الله على دين الإسلام، دين العدالة والنظام، وإعطاءِ

---

(١) أسباب النزول، للواحدي (ص: ١٤٣).

(٢) رواه مسلم.

الحقوق وحفظها، كما أدعو إخواني المسلمين إلى المسارعة إلى تقسيم التركات عقب موت الميت كما بين الله تعالى في كتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام في سنته، وأن يحذروا المماطلة من أجل تضييع حقوق الوارثين، وأن يبتعدوا عن ظلم النساء والصغار في حقوقهم من الميراث.

كما أحث على العناية الكبيرة بعلم المواريث، فهو علم عظيم القدر، كثير النفع، والجهل به يؤدي إلى تضييع الحقوق وإحداث المشكلات في المجتمع.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

غنائم الأذكار(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إذا عرضتْ للناس أرباح مالية، أو سمعوا عن غنائم دنيوية، فإنهم سيسابقون إليها، ويحرصون على الظفر بها؛ لأن وراءها منالاً كبيراً للرغبات، ومصالح تجلب لهم راحة ونعيماً، وتدفع عنهم أضراراً ومضائق. ولا حرج في ذلك مادامت تلك

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في: ٢/١١/١٤٤٠هـ، ٥/٧/٢٠١٩م.

الغنائم والأرباح مشروعة.

غير أن المحزن هو ذلك التسابق الكثير إلى شهوات الدنيا، مع التباطؤ الكبير في العمل للجنة. فهناك تقاعس واضح من كثير من الناس عن أرباح الآخرة، وغنائمها الثمينة، التي لا تساويها غنائم الدنيا بل ولا تدانيها؛ فأرباح الدنيا وغنائمها قليلة وناقصة وفانية ومنغصّة، وأما غنائم الآخرة وأرباحها فهي كثيرة وتامة وباقية ولا نغص يلحقها.

عباد الله، إن من أرباح الآخرة التي ينبغي لنا أن نسارع إليها، ونسابق إلى فضلها: ذكرَ الله عز وجل.

ذكر الله تعالى الذي هو خير الأعمال وأزكاها وأرفعها وأحبها إلى الله تعالى، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ؟ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ غَدًا فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ). قَالُوا: بَلَى. يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: (ذِكْرُ اللهِ)[(١)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله)[(٢)].

ذكر الله تعالى الذي هو أكبر الطاعات وأعظم القربات، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا

(١) رواه أحمد، وابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وابن حبان، وهو صحيح.

أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:٤٥].

ذكر الله تعالى الذي هو حصن حصين من الشيطان اللعين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن) فمن تلك الكلمات الخمس قوله: (وآمركم بذكر الله كثيراً، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سِراعًا في أثره حتى أتى حصنًا حصينًا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله)(١).

ذكر الله تعالى الذي هو حياة، والغفلة عنه موت، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت)(٢).

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبِهِمْ   وأجسامُهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشة من جسومهمْ   وليس لهم حتى النشورِ نشور"(٣)

فالغافلون أدركهم الشيطان فأمات أرواحهم وقلوبهم؛ ولهذا فإن الذاكرين يعيشون حياة حقيقية ملؤها السعادة واليقين، وتحفها الطمأنينة والراحة، وأفعالهم بيضاء لصفاء قلوبهم بذكر الله تعالى، أما غيرهم -ممن يعيشون الغفلة- فأموات في صورة أحياء، وأشباح بلا أرواح، ليس لهم من الحياة إلا حركة الأجسام التي عشعشت فيها الغفلة وفرّخت فيها العناءَ والكآبة؛ ولذا فأعمالهم مظلمة؛ نتيجة سواد قلوبهم، وما صلاح الظاهر إلا بصلاح الباطن، وما فساده إلا بفساده.

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم(٢/٤٢٩).

أيها الأحبة الفضلاء، إن المتتبع لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل الذكر يجد غنائم كثيرة الخيرات تتضمنها أذكار قليلة الكلمات، مما يحث على قولها والعمل بها.

فحري بنا أن نعرف تلك الأذكار حتى نعمل بها لننال خيرها وفضلها.

الغنيمة الأولى: عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عِدْل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطّت خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر)(١).

فتأملوا -رحمكم الله- في هذه الغنيمة اليومية الكبيرة التي تضمنها هذا النص المبارك بقول **ذكرين من الأذكار:**

الذكر الأول: قول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) في يوم مائة مرة، **والجائزة:** أولاً: أن ثواب هذا الذكر مثل ثواب من حرر عشر أنفس من الرق، وثانيًا: تكتب لصاحبه به مائة حسنة، وثالثًا: تمحى عنه مائة سيئة، ورابعًا: يقيه من الشيطان يومه ذلك، "يعني : أن الله تعالى يحفظه من الشيطان في ذلك اليوم فلا يقدر منه على زلة، ولا وسوسة ببركة تلك الكلمات"(٢). وخامسًا: أن

---

(١) متفق عليه.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٢/ ٨١).

قائله أتى بشيء عظيم، بل بأفضل شيء في باب الذكر، ولاشك أن الجزاء على العمل الصالح العظيم عظيم.

وقوله: (لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)، **قال** النووي-رحمه الله-: " هذا فيه دليل على أنه لو قال هذا التهليل أكثر من مائة مرة في اليوم كان له هذا الأجر المذكور في الحديث على المائة، ويكون له ثواب آخر على الزيادة، وليس هذا من الحدود التي نُهي عن اعتدائها ومجاوزة أعدادها، وأن زيادتها لا فضل فيها أو تبطلها كالزيادة في عدد الطهارة وعدد ركعات الصلاة. ويحتمل أن يكون المراد الزيادة من أعمال الخير لا من نفس التهليل. ويحتمل أن يكون المراد مطلق الزيادة؛ سواء كانت من التهليل أو من غيره أو منه ومن غيره، وهذا الاحتمال أظهر، والله أعلم. وظاهر إطلاق الحديث أنه يحصل هذا الأجر المذكور في هذا الحديث من قال هذا التهليل مائة مرة في يومه، سواء قالها متوالية أو متفرقة في مجالس، أو بعضها أول النهار وبعضها آخره، لكن الأفضل أن يأتي بها متوالية في أول النهار ليكون حرزاً له في جميع نهاره"[(١)].

الثاني من الأذكار التي تضمنها هذا الحديث: قول: (سبحان الله وبحمده) في يوم مائة مرة، والجائزة: تكفير العدد الكثير من الذنوب، ولو كانت تلك الذنوب في الكثرة مثل زبد البحر أي: الرغوة التي تعلوه عند هيجانه.

أيها المسلمون: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) جملة عظيمة تتضمن تكرار كلمة التوحيد، التي فيها إقرار بتفرد الله

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/١٧).

بالألوهية، وإقرار بأن الملك كله لله، وإقرار بأن الحمد المطلق هو لله، وإقرار بعظمة قدرة الله على كل شيء. وهذه معانٍ عظيمة إذا تمكنت من القلب مضامينُها أصلحته، فصلحت بذلك الجوارح.

ولعل في الإرشاد إلى تكرار هذه الجملة مائة مرة حِكَمًا: **منها:** أن ترسخ تلك المعاني في النفس، فإذا سها الذهن عند قول بعضها فلا يسهو في بعضها الآخر؛ فلذلك لابد لقائل هذا الذكر الكريم أن يستحضر معانيه، وتظهر عليه آثاره في الأقوال والأفعال.

والجملة الأخرى: (سبحان الله وبحمده) ومعناها: أسبِّح الله حامداً له تعالى.

وهذا ذكر عظيم فيه التلفظ بتنزيه الله تعالى عن كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله، ويرافق ذاك التلفظَ حمدُ الله تعالى على ذلك الكمال الذي لم يتلبس بنقص.

وفي تكرار هذا الذكر هذا العدد أيضًا ما يعمق في النفس معاني التنزيه والحمد لله سبحانه، ولكن لمن استحضر ما يقول.

والناظر في الجزاء المترتب على هذين الذكرين في الحديث يجده جزاء عظيمًا يدل على سعة رحمة الله بعباده، وكثرة إكرامه لهم، فهو جزاء بإعطاء حسنات كثيرة، وتكفير سيئات غزيرة، وسلامة من وساوس الشيطان وكيده، وكل هذا حاصل بقول كلمات يسيرة!.

إن هذا الكرم الإلهي قد يُجَرِّمُه المرء الذي يقول هذا الذكر، ثم يعمد بعد ذلك إلى ركوب ما شاء من المحرمات الكبيرة بينه وبين الله وبينه وبين الخلق اغتراراً بتكفير التهليل والتسبيح لخطاياه، بحيث يجيء عقب ذنوبه الكبار ليقول هذا الذكر محواً لتلك السيئات، ولم يكتف بذلك، بل يعود إلى جرائره مرة أخرى وهكذا دواليك! ليس الأمر كذلك. قال بعض أهل العلم: " هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل

الشرف في الدين والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العِظام، فلا تظن أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح "(١).

عباد الله، **والغنيمة الثانية:** عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قال حين يأوي إلى فراشه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله الله، والله أكبر، غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر)(٢).

لا شك أن قبيل النوم وحين الخلود إلى فراشه يعتري الإنسانَ الخمول والفتور والغفلة وشدة الإرهاق، وهذه أحوال قد تبعد كثيراً من المسلمين عن ذكر الله، والمداومةِ على الورد المشروع قبيل المنام، فجاء هذا التحفيز النبوي بذكر هذه الغنيمة الغالية حتى يختم الإنسان يومه وبقية ليلته بذكر الله تعالى؛ إذ ما أحسن أن ينام الإنسان على طاعة! فلعل الأجل ينزل به حين نومه فلا يستيقظ أهله إلا على جثة هامدة، فيكون من الخير له أن مات على ذكر الله، ومن مات على شيء بعث عليه.

ثم انظروا -معشر المسلمين- إلى هذه الألفاظ التي تضمنها هذا النص ما أعظمها؛ فقد اشتملت على التوحيد والثناء على الله، وعلى التسليم والتفويض له تعالى، وعلى الحمد والتنزيه والتكبير.

والجائزة: غفران الذنوب، فينام الإنسان حينئذ وقد محا عن صحيفة أعماله ذنوبه وسيئاته.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٤١).

(٢) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

أيها الإخوة الكرام، **والغنيمة الثالثة**: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال إذا أوى إلى فراشه: الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منَّ علي فأفضل، فقد حمد الله بجميع محامد الخلق كلهم)[(١)].

إن حمد الله تعالى عبادة من أعظم العبادات التي تدل على حب العبد لربه، ورضاه بما أعطاه له وقدره عليه، والحمد معبر عن نفس تشكر ولا تجحد، وتعترف بالفضل ولا تنكر.

ومن مكافأة الله لمن كانت هذه حاله: أن يديم الرب تعالى على صاحبها نعمه، ويعطيه زيادة على ذلك. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:٧].

ولا ريب أن ظفر العبد بالكفاية والإيواء والشراب والطعام نعمةٌ عظيمة، ومنّة جسيمة، تستوجب حمد الله الكثير، وشكره الغزير على ذلك؛ إذ كم من إنسان غير مكفي، وكم من إنسان لا يجد مأوى، وكم من إنسان يعيش في أحضان الجوع والظمأ!.

فمن حمد الله في تلك الساعة من ليله فقد بلغ غاية عظيمة في الحمد، ومن بلغ تلك الغاية التي ذكرها الحديث كان له أجر لا يعلم عظمته إلا الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره، وحسن عبادته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البيهقي والحاكم، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، **والغنيمة الرابعة**: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)(١).

ما أحسن هذا الترغيب النبوي بهذا الذكر العظيم، وما أجمل تناسق كلماته المثنَّاة المسجوعة الآتي بعضها في قالب التضاد الجميل!

وما أعظم هذا التشويق الذي كُسيَ بالإجمال والإبهام، ثم تلاه التفصيل والتبيين!

إن هذا التمهيد الفذ لهذا الذكر بهذا الأسلوب الرائع يجعل النفوس تتوق إلى سماع ذكر هاتين الكلمتين اللتين اتصفتا بهذا الوصف البديع، ويجعلها تتسابق إلى امتثال ذلك.

إن الذي أوتي جوامع الكلم، وانقادت له البلاغة قاصيها ودانيها؛ يحثنا على هذا الذكر ويسهله لنا بأنه فقط كلمتان، وليس كلامًا كثيراً يشق على اللسان ترديده، وحتى لا يتبادر إلى الذهن أن هذه الخفة لهاتين الكلمتين تعني قلة أجرهما؛ فإنه ألحق الجملة الأولى بجملة ثانية تبين أنهما مع خفتهما لفظًا في اللسان فهما ثقيلتان أجراً في ميزان

---

(١) متفق عليه.

الأعمال.

ثـم رغّـب فيهما بأنهما محبوبتان إلى الرحمن، وهذا يدفع المسلم إلى المسارعة إلى قولهما؛ لأنه يحب ما أحب الله تعالى، والله يحب أهلهما كذلك.

ثـم بعد أن اشرأبّت الأعناق، وتشنَّفت الآذان لمعرفة هاتين الكلمتين أخبر بأن هاتين الكلمتين الحبيبتين الخفيفتين نطقًا الثقلتين أجراً هما: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

إنهما كلمتان تتضمنان تنزيه الله تعالى مقرونًا بحمده على كماله، ومصحوبًا بوصفه بالعظمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض)(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)(٢).

قال بعض أهل العلم في شرح هذا الحديث: "فقوله: (كلمتان) فيه ترغيب وتخفيف، وقوله: (حبيبتان) فيه حث على ذكرهما لمحبة الرحمن إياهما، وقوله: (خفيفتان) فيه حث بالنسبة إلى ما يتعلق بالعمل، وقوله: (ثقيلتان) فيه إظهار ثوابهما. وجاء الترتيب بهذا الحديث على أسلوب عظيم وهو: أن حب الرب سابق، وذكر العبد وخفة الذكر على لسانه تالٍ، وبعد ذلك ثواب هاتين الكلمتين إلى يوم القيامة".

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

"وفي الحديث حث على المواظبة على هذا الذكر وتحريض على ملازمته؛ لأن جميع التكاليف شاقة على النفس وهذا سهل، ومع ذلك يثقل في الميزان كما تثقل الأفعال الشاقة، فلا ينبغي التفريط فيه. **وقوله:** (حبيبتان إلى الرحمن).. والمراد أن قائلها محبوب لله، وخص الرحمن من الأسماء الحسنى للتنبيه على سعة رحمة الله، حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل، ولما فيها من التنزيه والتحميد والتعظيم"(١).

عباد الله، وبعد ذكر هذه النصوص النبوية الأربعة المتضمنة لبعض غنائم الأذكار ينبغي لنا أن نقف وقفة تأمل نسبر بها غور ذلك الترغيب النبوي، **ونبحث عن بعض مقاصده وغاياته:**

إن من غايات هذه الأذكار: إشغال المسلم بذكر الله؛ حتى لا يغفل عن ربه وخالقه المنعم عليه، ومن غاياته: إبعاده عن إلهاء المسلم نفسه بباطل، أو إشغالها بما لا فائدة فيه.

فيكون يوم المسلم وليلته معمورينِ بذكر الله، مسجِّلينِ له في صحيفة أعماله حسناتٍ كثيرة، وماحيينِ سيئات عديدة.

وفي هذه الأذكار لفت الانتباه إلى العناية بتكفير الخطايا، وأنها من أولويات ما يُعنى به المسلم.

وفي هذه الأذكار لفت الانتباه أيضًا إلى دوام حمد الله وشكره على النعم كلها، خاصة النعم الدائمة لدى الإنسان في يومه وليله، والتي قد يؤدي الاستمرار عليها إلى نسيانها، فنعمُ السكنى والغذاء والكفاية قد يغفل كثير من الناس عن شكرها، ولا

---

(١) فتح الباري(١/٤٧٣) (١١/٢٠٨).

يشكرون إلا على النعم الحادثة التي قد لا تدوم.

وفي هذه الأذكار دعوة إلى ممارسة تربوية وهي التعود على أداء عبادةٍ ما في وقت معين تكثر غفلة الناس عنها في ذلك الوقت. كما أن في ذلك تعويداً للمسلم على ترتيب وقته وملء كل جزء منه بما يناسبه.

وفي هذه الأذكار لفتة مهمة وهي أن التحفيز إلى الطاعات مما يجذب النفوس إليها، فينبغي الاعتناء بذلك في التربية والترغيب إلى الخير.

ألا فلنحرص -معشر المسلمين- على هذه الغنائم الأخروية، فنذكر الله تعالى بها، ولنحضر قلوبنا عند قولها، وليكن لها أثر في صلاح جوارحنا وقلوبنا، ولنطرد بها عن نفوسنا سِنة الغفلة، ولنعمرها بيقظة المسابقة إلى الخيرات.

ولنعلم أن هذه الأذكار سهلة يسيرة، ولا تحتاج وقتًا طويلاً لتلاوتها، ولا جهداً كبيراً للفراغ منها، فالموفَّق من لزمها، وصارت من برنامجه اليومي الذي لا يدعه ولو تزاحمت لديه الأعمال، وضاقت عليه الأحوال.

نسأل الله أن يوفقنا إلى لزوم هذه الأذكار ونحوها.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية....

النوم وآدابه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن الله تعالى قد أودع في خلقه آيات دالة عليه، يَهدي بها عباده إليه، فتشهد تلك الآيات الباهرة، والبيِّنات الظاهرة بأنه الرب المتفرد بالخلق والإيجاد، والرزقِ والإمداد، وأنه الإله الواحد الذي لا ينازعه مألوه في استحقاق العبادة، ولا يشاركه فيما هو له منها بقلةٍ ولا بزيادة.

فتنطق تلك الآيات المودَعَة في الكون بكمال قوَّته وقدرتِه، وبديعِ صنعه وحكمته، وتمامِ إبداعه في خَلْقه، وعظيمِ رحمته بعباده. فسبحانه من خالق عظيم، ومبدع حكيم، ورازق كريم، ومعبود رحيم!

ألا وإن من آيات الله بين أحياء خلقه: آيةَ النوم، وهي آية عظيمة من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته، فانظر -أيها الإنسان- في هذه الآية تجد أن " حالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان؛ إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يسترد به قوة مجموعه العصبي، بعد أن يعتريه فشلُ الإعياء من إعمال عقله وجسده، فيعتريه شِبهُ موت يخدِّر إدراكه، ولا يعطِّل حركاتِ أعضائه الرئيسة، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافيًا لاسترجاع قوته، فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة "(١).

وقد "جَبَلَ الله العباد [على النوم]، واضطرهم إليه، ولا قِوام لأبدانهم إلا به؛ إذ هو راحة لهم من السعي والنصب، فهو من أعظم نِعَمِ الله على عباده، فإذا نام المؤمن بقدر الحاجة، ثم استيقظ إلى ذكر الله ومناجاته ودعائه، كان نومُه عوناً له على الصلاة والذكر "(٢).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[الروم:٢٣].

لقد تحدث الأطباء والعلماء-معشر المسلمين- عن فائدة النوم للإنسان فذكروا "

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٣٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (٤٨/٤).

أن النوم ضروري؛ لكي ينسى الدماغ بعض الأفكار التي يجدها متطفِّلة، وأنه لو لم يحدث ذلك لشُحن الدماغُ بذكريات لا تطاق، ولأدى ذلك إلى الهلاوس والهذيان في يقظته". و" الدماغ يقوم خلال النوم بتصفية حساباته والتخلص من المعلومات غير الملائمة".

كما ذكروا أيضًا: "أن إحدى وظائف النوم الهامة هي حل المشكلات والمعضلات، فكثير من العلماء يجد الحلول لمشكلة أعضلت عليه خلال النوم". قال بعضهم: " ومهما أخذني أدنى نوم كنت أرى المسائل بأعيانها في نومي، واتضح لي الكثير من المسائل".

"**ويؤكد العلماء** أن للنوم الهادئ وظيفةً مصححة ومرمِّمة وشافية للدماغ، والنوم له دور أساسي يمكِّن الدماغ من القيام بوظائفه على أكمل وجه أثناء اليقظة".

"**ونجد في النوم** أمناً وأماناً من القلق والخوف؛ لذا فقد غشى الله جنود المسلمين بالنعاس أمنة لهم في غزوة بدر، وربط على قلوبهم ليبعد عنهم القلق والخوف، وقد كانوا قلة أمام أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾[الأنفال:١١]"(١).

عباد الله، بعد هذا أفلا نشكر الله تعالى على نعمته علينا بالنوم؟

إننا حينما نصاب أحيانًا بالأرق، ولا نجد إلى النوم سبيلاً، أو عندما نتفكر في أولئك الذي أسهرتهم الأمراض أو الهموم أو المخاوف أو الجوع الشديد، أو تشعب البال في غايات لم يستطيعوا الوصول إليها فطار عن عيونهم المنام، وحلّت في أجسادهم الأسقام؛ عندها سندرك حقاً عظمةَ مِنَّة الله علينا بنعمة النوم. **قال** الشاعر:

فبِتُّ أريدُ النومَ لا أستطيعه ... وقد تمنع النومَ الهمومُ الطوارقُ

(١) ينظر: روائع الطب الإسلامي (١/ ٥٤-٥٦) بتصرف.

أليس من النعمة عليك -أيها المسلم- أن تنام قرير العين بغير استخدام أدوية مساعدة على النوم، كما يستعملها ناس آخرون لزمهم الأرق، وبَعُدَ عن أعينهم النوم الطبيعي؟!

أيها الأحباب الكرام، إن النوم مظهر ضعف، ودليل حاجة؛ ولهذا تنزه الله عنه فقال عن نفسه المقدسة: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وأما الإنسان فهو مخلوق ضعيف؛ فإذا أقبل على شؤون عيشه، وجدّ فيها أصابه التعبُ والفتور، والإعياء والذبول، وكسا قواه العقليةَ والبدنية الإرهاقُ والإجهاد، فعند ذلك يقلّ إنتاجه، ويصيب عملَه التخبطُ وكثرة الأخطاء؛ فكم من حوادث سيرٍ تحصل، وأعمالٍ دينية ودنيوية لم تُتقن، وسبب ذلك قلة النوم، أو حاجة الإنسان إليه وهو يدافعه عن نفسه؛ فلهذا كان من رحمة الله به أن سخر له النوم ليجد به الراحة بعد تعبه، ويتجدد له النشاط بعد كَلَله.

وهذه الحال الدالة على ضعف الإنسان إنما هي في هذه الدنيا، أما في الآخرة فليس فيها نوم، لا في الجنة ولا في النار؛ فأما أهل الجنة فإنهم لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، وهم لا يموتون[(١)]، ولأن الضعف حالة من حالات الإنسان في الدنيا، وأما في الجنة فهو سالم من ذلك الضعف، بل هو في أكمل قواه، كما أنه ينافي كمال النعيم الذي أبيح لأهل الجنة أن يتناولوا منه ما شاءوا بلا انقطاع.

وكذلك أهل النار لا ينامون؛ لأن النوم يخالف ما يستحقونه من دوام العذاب

---

(١) حادي الأرواح (ص: ٢٧٨).

والعقاب.

أيها المسلمون، إن الإسلام قد عُني بأمر النوم عناية كبيرة؛ فذكر له آدابًا وأحكامًا، يكسب المسلم العامل بها الثواب، وينال من خلالها الراحة والصحة في منامه.

بل إن المسلم الساعي حال يقظته في عمل الصالحات إذا نام واحتسب ذلك النوم مقويًا ومعينًا له على طاعة ربه؛ فإن نومه ذلك يصير عبادة يؤجر عليها. **كما قال** معاذ بن جبل رضي الله عنه: "وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي"(١). **وفي رواية:** "فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي"(٢).

معناه : أني أنام بنية القوة، وإجمام النفس للعبادة، وتنشيطها للطاعة، فأرجو في ذلك الأجر كما أرجو في قومتي، أي: صلواتي، و" أنه يطلب الثواب في الراحة كما يطلبه في التعب؛ لأن الراحة إذا قصد بها الإعانة على العبادة حصل الثواب"(٣).

إن من نظر في هدي رسول الله عليه الصلاة والسلام في النوم؛ فإنه سيجد قدوة حسنة في هذه الظاهرة الطبيعية اليومية، قال ابن القيم رحمه الله: " من تدبر نومه ويقظته -صلى الله عليه وسلم- وجده أعدل نوم وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى؛ فإنه كان ينام أول الليل، ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم ويستاك ويتوضأ ويصلي ما كتب الله له، فيأخذ البدن والأعضاء والقوى حظها من النوم والراحة، وحظها من الرياضة، مع وفور الأجر، وهذا غاية صلاح القلب والبدن والدنيا والآخرة. ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٩٥)، فتح الباري(٨/ ٦٢).

المحتاج إليه منه، وكان يفعله على أكمل الوجوه؛ فينام إذا دعته الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب، ولا مباشر بجنبه الأرض، ولا متخذٍ للفرش المرتفعة، بل له ضجاع من أَدَم حشوُهُ ليفٌ، وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خده أحياناً"(١).

عباد الله، من آداب النوم التي دعا إليها الإسلام: التبكير، فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا(٢). وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أهمية التبكير في النوم، فذكرت أن "النوم المبكر والاستيقاظ المبكر يجعل الإنسان صحيحاً وغنياً وحكيماً، وإن ساعة النوم قبل منتصف الليل تساوي ثلاث ساعات بعده"(٣).

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام أيضًا: إطفاء النَّار والأنوار، وإغلاق الأبواب، وتغطية الآنية التي فيها طعام أو شراب،، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمِّروا الطعامَ والشراب، ولو بعُودٍ تعرضه عليه)(٤). وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون)(٥).

وهذا من حرص الإسلام على سلامة الإنسان، فمن كان لديه عند نومه نار

(١) زاد المعاد (٤/٢١٩).

(٢) متفق عليه.

(٣) روائع الطب الإسلامي (١/٥١).

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

مشتعلة فليطفئها، وأبواب مفتوحة يخشى منها دخول ما يؤذيه فليغلقها، أو أطعمة أو أشربة مكشوفة فليغطها.

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام: النوم على وضوء، وإزالة ما على اليدين من آثار دسومة اللحم ونحوه، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة)[(١)].

و " تؤكد أبحاث علم الصحة أن على المرء -إن أراد النوم الهادئ- أن يغتسل قبل أن ينام، أو أن يغسل وجهه ويديه وأن ينظف أسنانه بالمعجون والفرشاة. وهذه أمور تتوافق مع الهدي النبوي "[(٢)]. السابق ذكره.

وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ نَامَ وَفِي يَدِهِ غَمَرٌ- أي: دسم ووسخ وزهومة من اللحم- وَلَمْ يَغْسِلْهُ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ)[(٣)][(٤)].

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام: عدم النوم في مكان خَطِرٍ؛ كأن ينام المرء على سطح منزل غير مسوَّر، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ بَاتَ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَيْسَ لَهُ حِجَارٌ-أي: ستر وحاجب- فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ)[(٥)]. **وسبب النهي:** أن الإنسان في نومه لا يشعر فقد ينقلب من ذلك المكان إلى الأسفل فيضر نفسه، أو قد

---

(١) متفق عليه.

(٢) روائع الطب الإسلامي (١/٦٣).

(٣) أي وصله شيء من إيذاء الهوام؛ لأن الهوام وذوات السموم ربما تقصده في المنام؛ لرائحة الطعام في يده فتؤذيه. عون المعبود (١٠/٢٣٧).

(٤) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٥) رواه أبو داود، وهو صحيح.

يقوم ومازالت آثار النوم عليه ويريد أن يمشي فيسقط.

فما أحرصَ الإسلامَ على سلامتك أيها المسلم!

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام كذلك: نفض الفراش وتسمية الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللَّهَ؛ فَإِنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ)(١).

"**ومعناه:** أنه يستحب أن ينفض فراشه قبل أن يدخل فيه؛ لئلا يكون فيه حية أو عقرب أو غيرهما من المؤذيات"(٢).

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام: الإتيان بأذكار النوم التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي كثيرة، ومنها: قراءة آية الكرسي، والمعوِّذات، والأدعية الأخرى المأثورة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكر الحديث – فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فلن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان)(٣).

ومن الأدعية: ما جاء في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري.

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتيت مضجعك... قل: اللّٰهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. فإن متَّ متَّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول).

ومن آداب النوم التي دعا إليها الإسلام: النوم على الشق الأيمن، والحذر من النوم على البطن أو على الظهر، ففي حديث البراء السابق قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن).

"فالنوم على الشق الأيمن هو الوضع الصحيح؛ لأن الرئة اليسرى أصغر من اليمنى، فيكون القلب أخف حِملاً، وتكون الكبد مستقرة لا مُعلَّقة، والمعدة جاثمة فوقها بكل راحتها، وهذا أسهل لإفراغ ما بداخلها من طعام بعد هضمه"[(١)].

"**وأنفع النوم** أن ينام على الشق الأيمن؛ ليستقر الطعام بهذه الهيئة في المعدة استقراراً حسناً؛ فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً، ثم يتحول الشق الأيسر قليلاً ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد، ثم يستقر نومه على الجانب الأيمن؛ ليكون الغذاء أسرع انحداراً عن المعدة، فيكون النوم على الجانب الأيمن بداءةَ نومِه ونهايتَه، وكثرةُ النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب، وبسبب ميل الأعضاء إليه فتنصب إليه المواد. وأردأ النوم النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم"[(٢)].

---

(١) روائع الطب الإسلامي (١/ ٦٧).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٢٠).

و"**النوم على الظهر** يسبب التنفس الفموي؛ لأن الفم ينفتح عند الاستلقاء على الظهر؛ لاسترخاء الفك السفلي. لكن الأنف هو المهيأ للتنفس؛ لما فيه من أشعار ومخاط لتنقية الهواء الداخل، ولغزارة أوعيته الدموية المهيأة لتسخين الهواء. وهكذا فالتنفس من الفم يعرض صاحبه لكثرة الإصابة بنزلات البرد والزكام في الشتاء، كما يسبب جفاف اللثة ومن ثم إلى التهابها"(١).

فلنحمد الله -معشر المسلمين- على نعمة هذا الدين العظيم الذي يحرص على صحة المسلم وسلامته، والذي يتجدد العلم كلَّ يوم شاهداً بصدق من جاء به من عند ربه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) روائع الطب الإسلامي (١/٦٦).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن النوم الذي يراد نيلُ فائدته، والظفرُ بثمرته، فيرتاح الإنسان به بعد تعبه، ويعود عقبه إلى نشاطه، وقوته؛ لابد أن تتوفر فيه أمور:

فإذا أردت-أيها الأخ الكريم- نومًا صحيًّا فاختر نومَ الليل في المكان المظلم، وأطفئ الأنوار؛ فإن الليل هو الظرف الطبيعي الذي جعله الله للنوم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[يونس:٦٧].

فـ"**نوم النهار رديء**؛ يورث الأمراض الرطوبية والنوازل،... وأردؤه نومُ أول النهار، وأردأ منه النوم آخرَه بعد العصر"(١).

"**وإن الظلام** يعتبر من أهم العناصر التي تحتاجها الجملة العصبية أثناء النوم؛ ليتم ترميمها، وأن النوم العميق الذي لا بدَّ منه لراحة الأعصاب لا يحصل إلا مع هدوء الليل وظلمته...ودلَّت الأبحاث الحديثة أيضاً أن الضوء الأحمر ضارٌّ بالجهاز العصبي أثناء النوم...وأن العمل ليلاً والنوم نهاراً إذا استمر طويلاً يعرِّض البدن للاضطرابات العصبية وانهيار الصحة العامة"(٢).

وإذا أحتاج الإنسان إلى النوم في النهار لسهر أو قيلولة فلا يجعل بدنه بين الظل

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٢١).

(٢) روائع الطب الإسلامي (١/ ٤١،٤٩).

والشمس؛ فإن رسول الله قد نهى عن ذلك؛ لما يجلبه من الضرر على الجسد. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الشَّمْسِ فَقَلَصَ عَنْهُ الظِّلُّ وَصَارَ بَعْضُهُ فِي الشَّمْسِ وَبَعْضُهُ فِي الظِّلِّ فَلْيَقُمْ)[١].

فأمر البدن لا يستقيم إلا إذا سار العضو على وتيرة واحدة في جميع أعضائه، ففي ضوء الشمس إذا حصل ذلك في جزء من البدن دون الجزء الآخر، ودونما حاجة إلى ذلك تشوَّش الدوران، واضطربت وظائف الأعضاء، وهذا ما يحصل عند الجلوس، أو النوم بين الظل والشمس[٢].

غير أن هناك نومًا مستحبًا في النهار، ألا وهو نومة القيلولة، وهي: نومة نصف النهار في الظهيرة[٣].

ووقتها: قيل: قبل الزوال[٤]، وقيل: بعد الزوال، ويدل عليه حديث سهل بن سعد: (ما كنا نقيل ولا نتغذى إلا بعد الجمعة)[٥].

وفي الحث على القيلولة يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (قيلوا؛ فإن الشياطين لا تَقِيل)[٦].

وفائدة القيلولة: أنها تعين على قيام الليل، وتريح البدن قليلاً؛ ليستكمل أعماله في

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) روائع الطب الإسلامي (١/ ٦٣).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٧٧١)، لسان العرب (١١/ ٥٧٢).

(٤) الإقناع للشربيني (١/ ١١٦).

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه أبو نعيم، وهو حسن.

بقية نهاره.

ومن الصحة في النوم: أن يكون الإنسان معتدلاً في مقدار نومه؛ فقلةُ النوم ضرر، وكثرته كذلك، لكن أحوال الإنسان قد تتباين أحيانًا، فتختلق الحاجة إلى كمية النوم تبعًا لذلك؛ فمن أدى في النهار أعمالاً بدنية شاقة، أو أعمالاً ذهنية مرهقة فيحتاج إلى نوم أطول من الأحوال العادية، ومن كان هادئ البال سعيداً، غير متعب الجسم فحاجته إلى النوم أقل ممن قبله(١).

كما أن مقدار النوم قد يختلف باختلاف العمر، فكلما تقدم المرء في السن قلَّ النوم لديه.

عباد الله، إن هناك ناسًا يشكون قلة الراحة في نومهم، بكثرة الأرق، وتوارد المزعجات المنامية، والاستيقاظ المثخَن بالإرهاق والضجر والألم. فإلى هؤلاء نقول:

إذا أردتم نومًا هادئًا تستيقظون منه سعداء مرتاحين فعليكم أن تناموا مبكرين، وأن تتناولوا من العشاء ما لا يصل إلى حد الشبع أو التخمة. فـ" تناول العشاء ضروري من الناحية الطبية؛ ففي تجارب أُجريت على البشر تبيَّنَ أن التقلصات المعدية تبدو مزعجة أثناء النوم عندما تكون المعدة خاوية، وتزداد الأحلام المزعجة، وتقلباتُ النائم وحركاته في فراشه، مما يدل على عدم حصوله على الراحة والاطمئنان التي هي مرجوة من النوم"(٢).

وفي مقابل ذلك فإن الإكثار من العَشاء والنوم عقبه مضر، بل لا بدّ من إقلال منه،

---

(١) ينظر: روائع الطب الإسلامي (١/٥٦).

(٢) روائع الطب الإسلامي (١/٦٠).

ومضيٍّ وقتٍ بعد العَشاء يزيد على الساعة ثم ينام الإنسان بعد ذلك.

ومن أسباب النوم الهادئ: تجنب الإجهاد الذهني ليلاً، والبعد عن شرب المواد المنبهة كالشاهي والقهوة، ومتابعة الأخبار المزعجة والمقلقة والمحزنة والمؤلمة؛ فإن لهذا الأشياء آثاراً سلبية على نوم الإنسان.

أيها المسلمون، فما أحسنَ أن يتبع المسلم هديَ الإسلام في النوم، ويقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ فينام مبكراً على شقه الأيمن، وعلى طهارة، آتيًا بأذكار النوم، قارئًا ما استطاع من آيات القرآن أو سامعًا لها، عازمًا على القيام لصلاة الليل، غيرَ عاكف على مشاهدة صفحة الكترونية أو شاشة تلفازية تمطره بمزعجات الليالي والأيام، وتعرض لعينيه وقلبه مشاهد اللهو والحرام.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء بسيد الأنبياء.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية...

في ظِلال سورة العصر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر:١-٣].

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢١/٨/١٤٤٠هـ، ٢٦/٤/٢٠١٩م.

هذه السورة سورة مكية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة، وقد عُدت السورةَ الثالثة عشرة في عداد نزول السور، وقد نزلت بعد سورة الانشراح وقبل سورة العاديات.

وهذه السورة الكريمة آياتها ثلاث آيات، وهي بذلك تنضم إلى أقصر سور القرآن الكريم آياتٍ، وهن هذه السورة سورة العصر، وسورتا الكوثر والنصر(١).

إن هذه السورة وإن كانت قليلة الآيات، قصيرة المقاطع، إلا أنها سورة عظيمة في معانيها، بليغة في مبانيها. وقد " ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعد ما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل أي يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر:١-٣]. ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: "يا وَبْرُ يا وَبْرُ! إنما أنت أُذنانِ وصدر. وسائرك حَفْر نقْر"، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب"(٢).

وقد تحدثت هذه السورة عن إثبات الخسارة التامة لكل إنسان كفر بالله تعالى، وحاد عن طاعته، واستثنت من الخسارة العامة أهلَ الإيمان والعمل الصالح، الذين من أعمالهم: التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٤٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٦٧١).

عباد الله، إن هذه السورة عظيمة القدر، عميقة المضمون، كثيرة النفع لمن تدبرها وعمل بما فيها. ومما يدل على هذا: إدراك سلفنا الصالح لذلك. فقد جاء عن أبي مدينة الدارمي - وكانت له صحبة - قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾"(١).

وقال الشافعي رحمه الله: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم"(٢).

فما أحسن أن نقف -معشر المسلمين- اليوم مع هذه السورة الكريمة وقفات تأمل وتدبر؛ لنأخذ منها العلم، ثم ننتقل بعد ذلك إلى العمل والامتثال.

أيها الأحباب الفضلاء، يقول تعالى -بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ-: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

هذا افتتاح مشوِّق، افتتحت به السورة الكريمة؛ حيث ابتدأ بأسلوب قسم، وهو من أساليب التوكيد، والقسم يؤذن بأهمية ما بعده. وهي طريقة من طرق الكلام الذي يراد الانتباه له والعناية به.

والقسم في العربية يتكون من: مقسِم، وأداة قسم، ومقسَم به، وجواب قسم.

فالمقسِم هنا هو الله تبارك وتعالى، **وأداة القسم** هي الواو، وهي حرف من أحرف القسم الثلاثة، **والمقسَم به** هو العصر، **وجواب القسم** قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء؛ فيقسم بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧١).

هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[يونس:٥٣].

ويقسم بما شاء من خلقه، كما هنا، وكقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾[الضحى:١].

فهنا أقسم الله تعالى بالعصر، والمراد بالعصر: الدهر كله، أقسم الله به؛ لما فيه من العجائب؛ أمة تذهب وأمة تأتي، وقدَر ينفذ وآية تظهر وهو هو لا يتغير، ليل يعقبه نهار ونهار يطرده ليل، فهو في نفسه عجب. كما قيل: موجود شبيه المعدوم ومتحرك يضاهي الساكن.

وكما قيل:

وأرى الزمانَ سفينةً تجري بنا نحوَ المنونِ ولا نرى حركاتِهِ

فهو في نفسه آية سواء في ماضيه لا يعلم متى كان، أو في حاضره لا يعلم كيف ينقضي، أو في مستقبله. وقيل المراد: عصر الإنسان أي: عمره ومدة حياته الذي هو محل الكسب والخسران؛ لإشعار السياق، ولأنه يخص العبد في نفسه موعظة وانتفاعًا[١].

أما المكلف فلا يحل له أن يقسم إلا بالله؛ باسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته، وإقسامه بغير الله لا يجوز؛ كأن يقسم بمخلوق، بآبائه أو أولاده، أو بالأمانة، أو بالحرام والطلاق، أو غير ذلك. قال النبي صلى الله عليه وسلم:(من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)[٢].

معشر المسلمين، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾، صُدِّر جواب القسم بحرف:

---

(١) أضواء البيان (٩/٨٧-٨٨).

(٢) متفق عليه.

"إنّ" الذي يفيد التوكيد، وهذا يعني هنا تحقق ما بعد هذه الأداة وحصوله بلا ريب.

وقد سمي الإنسان إنسانًا قيل من النسيان؛ لنسيان آدم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[طه:١١٥].

قال الشاعر:

لا تنسَيَنْ تلك العهودَ فإنما سُمِّيتَ إنسانا لأنك ناسي

وقال آخر:

فإن نَسِيتَ عهوداً منكَ سالفةً فاغفرْ فأولُ ناسٍ أولُ الناسِ

وقيل من الأُنس، قال الشاعر:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لأُنْسِهِ

و(ال) في الإنسان للاستغراق، يعني: كل إنسان في خسارة، إلا من استثناهم الله تعالى.

ولفظ الإنسان يطلق على الذكر والأنثى، ولا يقال للمرأة إنسانة. إلا على قلّة.

وقوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، يعني: إن الإنسان غارق في الخسارة، وتحيط به من كل جانب. وهذا " أبلغ من أن يقال: إن الإنسان لخاسر"(١).

والخسر ضد الربح، **ومعناه:** الهلاك والنقصان. **والمراد بالخسارة:** دخول النار، ونيل غضب الجبار، وعدم دخول الجنة وعدم نيل رضوان الله تعالى.

أيها المسلمون، إن خسارة الإنسان البعيد عن الله تعالى كبيرة، وهي حاصلة بترك

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٦٦).

أوامر الشرع وفعل نواهيه.

وهي على مراتب، تتفاوت بتفاوت المعاصي، فهناك خسارة كبرى، وهناك خسارات صغرى:

فالكافر خاسر، والمنافق خاسر، والمشرك خاسر، والمرتد خاسر، فمن ترك الإيمان والعمل الصالح وصار إلى النار بكفره أو بشركه أو بنفاقه واتباعه للشيطان فهو في خسران مبين، **قال** تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾[النساء:١١٩]، **وقال:** ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾[الأنعام:٣١]، **وقال:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج:١١]، **وقال:** ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[غافر:٨٥]. **وقال:** ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الزمر:١٥].

والمبتدع في دين الله خاسر، وأهل الربا خاسرون، وسفاكو الدماء بالباطل خاسرون، وهاتكو الأعراض خاسرون، وآخذو أموال الناس بالباطل خاسرون، ومطلقو ألسنتهم في الباطل خاسرون، والذين ما وجدوا لذة الإيمان، ووجدوها في مقارفة العصيان خاسرون.

ولن يدرك الجميعَ الربحُ والفلاح حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[القصص:٦٧].

أيها الإخوة الفضلاء، ثم يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر:١-٣].

هذا استثناء من عموم الخسارة التي تلحق كل إنسان، ولا يسلم منها إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فأولى هذه الصفات: الإيمان، وهي كلمة لها حقيقة وبرهان، فحقيقتها استقرارها في الجَنَان، وبرهانها ظهور آثارها على الجوارح والأركان. وليس الإيمان " بالتحلي ولا بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل " كما قال الحسن البصري[(١)].

وقد تحدث القرآن الكريم والسنة النبوية عن الإيمان حديثًا كثيراً؛ عن حقيقته ومعناه، وعن أعماله، وأسباب الحصول عليه ووسائل زيادته وعوامل نقصانه، وعن ثمراته وآثاره، وعن صفات أهله وجزائهم في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٢-٤].

وفي الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)، وفي رواية لمسلم: (بضع وسبعون شعبة).

فعلى المسلم أن يرقى من درجة الإسلام إلى درجة الإيمان؛ فإن درجة الإيمان رفيعة، وأن يسعى إلى زيادة إيمانه على مراقي الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة حتى يصل إلى درجة الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهذا هو برهان الإيمان وجناح النجاة

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/١٦٣).

الآخر، فالطيران إلى آفاق الفوز إلا لا يكون إلا على جناحي الإيمان والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف:١٠٧].

والعمل الصالح هو: العمل بالأوامر، واجتناب النواهي الشرعية، الواردة في الكتاب والسنة.

والعمل الصالح متنوع؛ فمنه ما يكون عملاً باطنًا ؛كالتوحيد ومحبة أولياء الله، وبغض أعدائه، والإخلاص لله تعالى. ومنه ما يكون ظاهراً، وأمثلته كثيرة غير محصورة.

ومنه ما يكون بين العبد وربه؛ كالصلاة والصيام والدعاء، وتجنب الحرام في المطعم والمشرب والملبس.

ومنه ما يكون بين العبد وغيره من المخلوقين؛ كالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى والجيران، وسائر الناس، حتى مع الحيوان، والابتعاد عن إيذائهم بالباطل؛ بقتل أو انتهاك، أو أخذ حق، وغير ذلك.

نسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين العاملين الصالحات، وأن يبعدنا عن الخسارة في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، والتواصي بالحق هو من جملة العمل الصالح، وإنما خصه تعالى بالذكر لأهميته، ولفت الانتباه إليه؛ إذ قد يظن بعض الناس أنه يكفيه للنجاة أن يكون مؤمنًا وعاملاً بالصالحات فحسب، ولا يهمه غيره بعد ذلك، وربما يستدل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة:١٠٥]. وهو استدلال خاطئ، فعن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه)[(١)].

فالمؤمن الصالح لا يكتفي بصلاح نفسه فقط، بل يسعى إلى إصلاح غيره، ولا يكفيه أن يكون صالحًا بل عليه أن يرقى إلى أن يكون مصلحًا. عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)[(٢)].

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

والخير لا ينتشر ولا يعرف إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن على من أراد السعي إلى ذلك أن يكون على علم وحكمة؛ لأنه إذا لم يكن كذلك فقد يفسد أكثر مما يصلح، **قال** تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨]، **وقال:** ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥].

وبقاء هذه الشعيرة في الأمة من علامات الخير فيها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

فالمؤمنون يتواصون بينهم بالحق، وهو: كل ما كان طاعة لله تعالى؛ فالتواصي بالحق من ذلك، والتواصي بإقام الصلاة من ذلك، والتواصي بترك المعاصي من ذلك، والتواصي بإصلاح الظاهر والباطن من ذلك، وهذا الموقف الأسبوعي بين أيديكم- أعني خطبة الجمعة- هو من التواصي بالحق.

عباد الله، ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ما أحسن هذا وأجمله، وأنفعه وأفضل أثره! نعم، فكما أننا محتاجون إلى التواصي بالحق، فنحتاج كذلك إلى التواصي بالصبر على ذلك الحق؛ التواصي بالصبر على طاعة الله، والتواصي بالصبر عن معصية الله، والتواصي بالصبر على قدر الله تعالى. وكما قلنا في التواصي بالحق من حيث التخصيص فالتواصي بالصبر هو من التواصي بالحق، لكن الله تعالى خصه بذلك لأهميته، ولأن التواصي بالحق يحتاج إلى صبر كبير على أذى الناس؛ ولهذا قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[لقمان:١٧]. وكذلك التواصي بالحق يحتاج إلى لزوم حصن الصبر

الذي يمنع من الاندفاع والطيش الذي يوصل إلى نتائج غير محمودة، ولو كانت نية صاحبه صالحة، فما أحسن هذا التخصيص بعد التخصيص بعد التعميم!

ومما لا شك فيه أن الصبر عبادة عظيمة، وقربة إلى الله تعالى كبيرة؛ ولهذا كثر ذكر الصبر في لسان الوحي؛ أمراً به، ونهيًا عن ضده، وبيانًا لمنزلته وثمراته، وذكراً للمقامات العلية التي ينالها أهل الصبر.

فهو بلا ريب نصف الإيمان ومجمع الفضائل، وسد منيع أمام طوفان الشهوات والهوى التي تحب أن ترتع في الرذائل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠]. **وقال:** ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)(١).

فيا أيها المسلمون، تدبروا سورة العصر، واتجهوا بعد ذلك للعمل بها، واحذروا أن تكونوا من أهل الخسارة، ولكن لنكن جميعًا من أهل الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فما أجمع ما تحتويه هذه السورة من المعاني، وما أحوجنا إلى العمل بما تضمنته من الخير، وما أجمل العاقبة التي تنتظر العاملين بما دعت إليه هذه السورة الكريمة!

هذا وصلوا وسلموا على المبعوث رحمة للعالمين....

---

(١) متفق عليه.

العمل الصالح في أيام: التروية، وعرفة، والنحر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، ما زلنا نَنعمُ بأيام عظيمة، وأوقات ثمينة؛ أيام وأوقات تفضّل الله بها على عباده فدعاهم فيها إلى كثرة الأعمال الصالحة، ووعدهم على ذلك بالأجور الكثيرة المضاعفة، فضلاً وكرمًا منه.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٨/١١/١٤٤٠هـ، ٩/٨/٢٠١٩م.

إننا اليوم-معشر الفضلاء-في اليوم الثامن من هذه الأيام المباركة أيام ذي الحجة، هذا اليوم يسمى بيوم التروية، وقد سُمي بذلك لأنهم كانوا يأخذون الماء من مكة إلى منى يَترووّن به أيام منى كلها، وذلك قبل أن يكون في منى ماء.

في هذا اليوم يومِ التروية علينا نحن المقيمين أن نستمر في كثرة الطاعات؛ من صيام مستحب وصلاة نافلة، وقراءة قرآن، وكثرة ذكر الله، والإحسان إلى الناس، مع المداومة على عمل الواجبات، واجتناب المحرمات.

أما الحُجّاج-فيا سعادتهم في هذا اليوم- فإن أعمال حجهم تبدأ من هذا اليوم؛ حيث يبدؤون قبل ظهر هذا اليوم بالاغتسال والتطيب ولبس الإزار والرداء والإحرام بالحج، ثم يتجهون إلى منى، في أول يوم من أيام حجهم.

وهناك في منى يصلون الظهر والعصر والمغرب والعشاء قصراً بلا جمع، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بذلك.

ويبقون هناك يذكرون الله تعالى حتى يطلع فجر يوم التاسع فيصلون الفجر، وينطلقون عند شروق الشمس إلى عرفات.

ولكثرة الزحام-وخاصة من لديه نساء وعَجزة-يباح النفير إلى عرفات ليلاً من منى.

عباد الله، إن الإحرام بالحج يوم التروية يصح من الحاج من أي موضع في مكة؛ من منزله أو حانوته أو الفندق الذي يقطن فيه، أو من المسجد الحرام، أو شوارع مكة، وليس شرطًا على الحاج أن لا يحرم إلا من المسجد الحرام، وأما من كان في منى فيحرم منها.

وقد يسأل سائل عن حُكم المبيت في منى هذه الليلة؟

والجواب عن ذلك: أن هذا المبيت مستحب، فمن فاته ذلك فليس عليه شيء.

أيها الأحباب الفضلاء، يأتي بعد يوم التروية يوم عظيم من أيام الله إلا وهو يوم عرفة، يوم التاسع من ذي الحجة.

هذا اليوم هو من خير أيام الدنيا؛ لما فيه من الفضائل والخصائص.

فهذا اليوم هو اليوم الذي أكمل الله به لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الدِّين، وأتم به النعمة على العالمين، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت -معشر اليهود- لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأيُّ آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]. فقال عمر: "إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم جمعة"(١).

إن يوم عرفة يوم عتقٍ من النار لمن تفضل الله عليه بذلك، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يوم أكثرُ من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو يتجلى، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء!)(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

أيها المسلمون، إن يوم عرفة يوم خير كثير للمقيم وللحاج، يتقربون فيه بأنواع القربات، وينالون بذلك كثيراً من الحسنات، وتكفير السيئات، بمشيئة الله تعالى.

فمن الأعمال العظيمة التي يتقرب بها المقيم في يوم عرفة: صيام هذا اليوم.

فصيام يوم عرفة من آكد أيام الصيام المستحبة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السَّنة التي قبله، والسَّنةَ التي بعده)[١].

ومعناه: يكفر ذنوبَ صائمِه في السنتين، والمراد بها الصغائر، فإن لم تكن صغائر يرجى التخفيف من الكبائر، فإن لم يكن رُفعت درجات"[٢].

وهذا فضل عظيم من الرب الكريم؛ حيث لم يأتِ في صيام يوم من الأيام المستحبِ صيامُها مثل ما أتى من الفضل لهذا اليوم لمن صامه.

فنحن واللهِ محتاجون أعمالاً صالحة لمحو سيئاتنا، وغفران ذنوبنا؛ فمن غفرت خطاياه ولقي الله بذلك فقد فاز فوزاً عظيمًا، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

ومن الأعمال العظيمة للمقيم -أيها الفضلاء- في هذا اليوم يومِ عرفة: كثرةُ ذكر الله تعالى، وخصوصًا التكبير.

فيبدأ المسلم بتكبير الله تعالى من بعد صلاة الفجر يوم عرفة، ويستمر على ذلك إلى آخر أيام التشريق. وهذا مروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح النووي على مسلم (٨/٥١).

(٣) المستدرك (١/٤٣٩).

وأما الحاج فإنه يؤدي في يوم عرفة أعظم أركان الحج، ألا وهو الوقوف بعرفة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)[(١)].

"**أي:** ملاك الحج ومعظم أركانه وقوف عرفة؛ لأنه يفوت بفواته"[(٢)]. فركن الحج الأكبر: الوقوف بعرفة، ومن لم يقف بها فقد فاته الحج، ولو أدى جميع مناسك الحج.

غير أنه يصح الوقوف بعرفة ولو وقتًا يسيراً من النهار أو الليل.

ويبدأ الوقوف هناك من زوال الشمس عن كبد السماء ظهر يوم عرفة إلى طلوع فجر يوم النحر، ومن كان بعرفات في النهار فيستحب له النفير منها عند غروب شمس يوم عرفة.

وفي عرفات تكون خطبة يوم عرفة كما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وهي خطبة واحدة عند بعض العلماء، وخطبتان عند الجمهور[(٣)].

فيخطب الخطيب هناك "خطبة تناسب الحال، يبين فيها ما يشرع للحاج في هذا اليوم وبعده، ويأمرهم فيها بتقوى الله وتوحيده والإخلاص له في كل الأعمال، ويحذرهم من محارمه، يوصيهم فيها بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والحكم بهما، والتحاكم إليهما في كل الأمور؛ اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله، وبعدها يصلون الظهر والعصر قصراً وجمعاً في وقت الأولى بأذان واحد

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وغيرهما، وهو صحيح.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/١٩٠).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٥/٣٢٣-٣٢٤)، ورجح ابن القيم أنها خطبة واحدة فقال: "وخطبَ [يعني: رسول الله] خطبةً واحدة ولم تكن خطبتين جلس بينهما". زاد المعاد (٢/٢١٤).

وإقامتين؛ لفعله صلى الله عليه وسلم"[١].

وتكون الصلاة سراً، لا جهراً كالجمعة.

ويقضي الحاج وقته النفيس هناك بكثرة طاعة الله تعالى وأعظمها الدعاء؛ فالدعاء في ذلك اليوم وذلك المكان له مزية خاصة وفضل عظيم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)[٢].

قال الإمام النووي: "فيُستحبّ الإِكثارُ من هذا الذكر والدعاء، ويَجتهدُ في ذلك، فهذا اليوم أفضلُ أيام السنة للدعاء، وهو مُعظم الحج، ومقصودُه والمعوّل عليه، فينبغي أن يستفرغَ الإِنسانُ وُسعَه في الذكر والدعاء وفي قراءة القرآن، وأن يدعوَ بأنواع الأدعية، ويأتي بأنواع الأذكار، ويدعو لنفسه، ويذكر في كلّ مكان، ويدعو منفرداً ومع جماعة، ويدعو لنفسه ووالديه وأقاربه ومشايخه وأصحابه وأصدقائه وأحبابه، وسائر مَن أحسن إليه وجميع المسلمين. وليحذر كلَّ الحذرِ من التقصير في ذلك كله؛ فإن هذا اليوم لا يمكن تداركه، بخلاف غيره. ولا يتكلَّفُ السجعَ في الدعاء؛ فإنّه يُشغل القلبَ ويُذهبُ الانكسار والخضوعَ والافتقار والمسكنة والذلّة والخشوع، ولا بأس بأن يدعو بدعواتٍ محفوظة معه له أو غيره مسجوعة إذا لم يشتغل بتكلّف ترتيبها ومراعاة إعرابها.

والسُّنّة أن يخفضَ صوته بالدعاء، ويكثر من الاستغفار والتلفّظ بالتوبة من جميع

---

(١) التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة على ضوء الكتاب والسنّة (ص: ٢٦).

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

المخالفات مع الاعتقاد بالقلب ويلحّ في الدعاء ويكرّره، ولا يستبطئ الإِجابة، ويفتح دعاءه ويختمه بالحمد لله تعالى والثناء عليه سبحانه وتعالى، والصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليختمه بذلك، وليحرص على أن يكون مستقبلَ الكعبة وعلى طهارة"(١).

عباد الله، إن الوقوف بعرفة يذكر بالوقوف بين يدي الله يوم العرض الأكبر.

فلقد اجتمع الناس في تلك البقعة المباركة بجمع كبير من أرجاء المعمورة؛ رجالهم ونساؤهم وأطفالهم، عربيهم وعجميهم، صغيرهم وكبيرهم، أحمرهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، راعيهم ومرعيهم، كلهم جاءوا والغرض واحد، واللباس واحد، والمكان الذي جمعهم واحد، يرفعون أيديهم إلى الله تعالى طالبين مغفرته لهم، وصلاح دنياهم وأخراهم.

فما أعظمه من موقف، وما أعمق ما يحمله من المعاني والعِبر!

أيها المسلم، يا من فاته الوقوف بعرفة لم يفتك يوم عرفة إذا استغليت زمنه النفيس.

إن غداً هو يوم عرفة فماذا أنت فاعل فيه؟

استعد لهذا اليوم العظيم بأعمال صالحة عظيمة.

لا تفوِّتْ على نفسك صيامه، بل احرص على أن تصومه، وتأمر أهلك وأولادك بذلك، وتنصح أصدقاءك وأقاربك بصيامه.

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

أَكثِرْ غداً من التكبير في بيتك وطريقك وعملك ومسجدك.

أكثر من الدعاء؛ فهو يوم لكثرة الدعاء، وغفران الذنوب، وعتق الرقاب من النار. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْ يوم أكثرُ من أن يَعْتِقَ الله فيه عبيداً من النار من يوم عَرَفَة، وإنه لَيَدْنو يَتَجَلَّى، ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟)(١).

وفي رواية: (اشْهَدُوا يا ملائكتي أني قد غفرتُ لهم)(٢).

فإذا كانت لك حاجة من حاجات الدنيا والآخرة ترجو نوالها، أو مكروه تريد زواله؛ فارفع يديك يوم عرفة، وأكثر من التضرع والإلحاح على الله تعالى؛ فإن الله كريم قريب مجيب.

نسأل الله أن يجعلنا من المسارعين إلى الطاعات، والمسابقين إلى اغتنام مواسم الخيرات.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ينظر: الترغيب والترهيب، للمنذري.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً حمداً، والشكر له شكراً شكراً، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أهل الخير والوفاء.

أما بعد:

أيها المسلمون، يأتي بعد يوم عرفة يوم عظيم آخر ألا وهو يوم النحر، وهو أعظم الأيام عند الله تعالى، **قال** النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أعظم الأيام عند الله تبارك وتعالى يوم النحْر، ثم يوم القَر)[(١)].

وإنما كان هذا اليوم أعظم الأيام: " لأنه يوم الحج الأكبر، وفيه معظم أعمال النسك "[(٢)]. **ويوم القر هو:** اليوم التالي ليوم النحر، وسمي بذلك لأن الناس يقرون فيه بمنى، ويستريحون من تعب الأيام الثلاثة السابقة له.

وفي هذا اليوم أعمال صالحة كثيرة للحاج والمقيم؛ فالحاج يقوم فيه بالرمي والحلق أو التقصير، والنحر، وطواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة.

وهذا اليوم يوم العج والثج، **والعج:** رفع الصوت بالتلبية، **والثج**: هو إهراق دماء الأضاحي والهدايا تقرباً إلى الله تعالى. **عن** أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: (العج والثج)[(٣)].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وهو صحيح.

(٢) فيض القدير (٢/٣).

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي، وهو صحيح.

وأما المقيم فأهم الأعمال الصالحة التي يقوم بها بعد أداء الواجبات في يوم النحر: ذبح الأضاحي ابتغاء وجه الله تعالى.

والأضحية هي: ما يُذبَح من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم- بنوعيها: الضأن والمعز- يوم النحر وأيام التشريق ابتغاء وجه الله عز وجل.

وقد ضحى رسول الله عليه الصلاة والسلام وحثّ على ذلك.

والحكمة من هذه الشعيرة: التقرب إلى الله تعالى، ومشاركة الحاج في بعض أعمال الحج، فالحاج يُهدي والمقيم يضحّي.

كما أن في ذلك توسعةً على النفس والأهل والمسلمين المحتاجين في ذلك اليوم الذي هو يوم فرح وسرور.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل)[(١)].

عباد الله، إن الأضحية مستحبة، وليست بواجبة، فمن استطاع التضحية فيسن له ذلك؛ اقتداء برسول الله، وحرصًا على نيل الأجر.

ويشترط في الأضحية لتكون صحيحة مقبولة عند الله شروط، وهي:

-أن ينوي المضحي التقرب بها إلى الله وحده.

-وأن تكون من بهيمة الأنعام(الإبل-البقر-الغنم).

-وأن تبلغ السن المحددة شرعًا، فمن الإبل ما بلغ خمس سنين ودخل في

(١) رواه مسلم وأبو داود.

السادسة، ومن البقر ما بلغ سنتين ودخل في الثالثة، ومن المعز ما بلغ سنة ودخل في الثانية، ومن الضأن ما كان له ستة أشهر فما فوقها.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لاَ تَذْبَحُوا إِلاَّ مُسِنَّةً، إِلاَّ أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ)(١).

ومن الشروط أيضًا:

-أن تكون ملكًا للمضحي بأي وسيلة من وسائل الملك: شراء، هدية، صدقة...الخ، فلا تكون مسروقة ولا مغصوبة، ولا شُريتْ بمال حرام.

-وأن تذبح في الوقت المحدد شرعًا، وهو يبتدئ من بعد صلاة العيد، وينتهي بغروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة.

-وأن تكون الأضحية خالية من العيوب التي تمنع إجزاءها، وهي العوَر والمرض، والعرج، والعجز عن المشي لشدة العجف؛ لأن الأضحية قربة إلى الله، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البيِّن عورُها، والمريضة البيِّن مرضُها، والعرجاء الْبَيِّنُ ظَلَعُها، والكسيرة التي لا تُنقِي)(٢).

ومعنى البين عورها ومرضها...الخ يعني التي تكون فيها هذه العيوب ظاهرة.

ويلحق بهذه العيوب ما كان مثلها أو أولى منها، مثل: العمى، وما أصابها سبب

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

الموت، وهي: المنخنقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

أيها المسلمون، إذا جاء وقت ذبح الأضحية فلابد أن يكون الذابح لها مسلمًا عاقلاً، وأن يكون الذبح لله، وأن يسمي الله تعالى عند مباشرة ذبحها.

ومن الآداب عند ذبحها: استقبال القبلة، ووضع الضحية على جنبها الأيسر، وشحذ السكين قبل الذبح، وستر السكين عنها، وعدم ذبحها أمام الأخريات، وأن لا يقطع منها عضواً قبل موتها، وتكبير الله تعالى عند ذبحها، فيقول: بسم الله، الله أكبر هذا منك وإليك، هذا عني وعن أهل بيتي. وإن كان وكيلاً لغيره قال: عن فلان، وإن كانوا جماعة قال: عن موكِلِيَّ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرحْ ذبيحته)[(١)].

وعن ابن عباس قال: مر النبي عليه الصلاة والسلام على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحدّ شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها فقال: (أفلا قبل هذا، أتريد أن تميتها موتتين؟!)[(٢)].

وعن عاصم بن عبيد الله بن عمر أن رجلاً حدّ شَفرةً وأخذ شاة يذبحها فضربه عمر رضي الله عنه بالدِّرة وقال: " أتعذِّب الروح؟! أفلا فعلت هذا قبل أن تأخذها[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي، وهو صحيح.

(٣) رواه البيهقي، وهو صحيح.

وعن ابن سيرين أن عمر رأى رجلاً يسوق شاة ليذبحها فقال له: (سُقها –لا أم لك– إلى الموت سَوْقاً جميلاً)(١).

فيا عباد الله، لنحرصْ على الخير في هذه الأيام القادمة، ولنسارع إلى الإكثار من الأعمال الصالحة المتعدية واللازمة، فيا فوز المسابقين المخلصين، ويا خسارة الكسالى المعرضين!

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

(١) رواه البيهقي، وهو صحيح.

الفرح: حقيقته وأسبابه وأنواعه(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن الفرح كلمة قليلة المبنى عظيمة المعنى؛ فهي حالة نفسية تعبر عن السعة والابتهاج، والراحة والاطمئنان التي تغمر أنحاء النفس البشرية، وتُنيلها ما كانت ترجو، أو تصرف عنها ما كانت تخشى.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٥/١١/١٤٤٠هـ، ١٦/٨/٢٠١٩م.

والفـرح تلـك الكلمـة الناعمـة التـي تتـشنَّف لـسماعها الآذان، ويتـسع بـما تحتويـه الجَنان.

والفرح روضة أنيقة، مكلَّلة بالمشاهد المسرَّة التي يأسر النفوسَ جمالها، ويسبي المرءَ عبيرها وورونقها.

والفرح واحة فيحاء، يتنقل فيها صاحبها فيجد في أرجائها ما يسعده ويبهجه، ويريحه ويعجبه.

والفـرح غاية مـن الغايـات الإنـسانية، فكـل إنـسان عاقـل يحـب أن يكـون فرحًـا مـسروراً، بعيـداً عـما يكـدر نفسَه مـن الأحـزان المِمِضَّة، والغمـوم المنغِّـصة، والهمـوم المُقلقة.

إن الأفراح قوارب إنقاذ من تلاطم أمواج الحياة بالآلام والمكدرات التي إن لم تغرق راكب الحياة إلى أعماق الموت فإنها توجعه وتفجعه، فتأتي المسرات حينئذ لتنشله من يد الفناء أو العناء، فيصحو على شاطئ السلامة فرحًا مسروراً.

عباد الله، لقد عشنا يوم الأضحى وأيام التشريق أيامَ أفراح ومسرات؛ فلذلك سنتحدث اليوم -بعون الله- عن الفرح.

فما معنى الفرح، أيها الأحباب؟

الفرح معناه: انشراح الصّدر بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون في اللّذّات البدنيّة[١].

وهذا بسبب إقبال كثير من الناس على الدنيا وشهواتها؛ فلذلك كان الفرح باللذات

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن(٢/ ١٨٢).

البدنية كثيراً، وغدا الفرحون بها كثيرين، وإلا فهناك فرح باللذات الروحية، كما سيأتي.

إن المتأمل في هذه الحياة الدنيا يجد أنها غير خالصة في أفراحها ولا أتراحها، بل هي ممزوجة بهذه وبتلك، ففيها مسرات، وفيها مكدِّرات؛ لأن الله تعالى جعلها نموذجًا مصغَّراً من حياة الآخرة، فمسراتها تذكر بالجنة، ومكدراتها تذكر بالنار.

والناس في الدنيا -غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، راعيهم ومرعيُّهم- كلهم يعيشون ذلك العيش المشوب دون أن يكون لهم شيء دائم من حزن الدنيا أو فرحها، وإن تفاوتوا في مقدار كل منهما.

معشر المسلمين، إن الله تعالى بحكمته وعلمه جعل الفرح في الدنيا ناقصًا غير تام، ومؤقتًا غير مستمر، وهذا له حكمته البالغة، وغايته الحميدة؛ إذ إن فرح الدنيا إذا دام وزاد أنسى صاحبه فرح الآخرة، وألهاه عن الاستعداد له. وفرح الدنيا لو دام على بعض الناس لأنساهم أهل البلاء والأسى، ولكن حينما يحزن العاقل أحيانًا بسبب بعض المنغصات الحياتية؛ فإنه سيذكر من يمرون بتلك الحال، فيتعبد لله بإذهاب ذلك الضيق عنهم، وهذا من أعظم العبادات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأحب الأعمال إلى الله عز وجل: سرور تدخله على مسلم؛ تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني: مسجد المدينة- شهراً)[١].

ولم يكن الفرح تامًا في الدنيا بل كان ناقصًا ثم يأتي ما ينقصه أو يذهبه: لأن الفرح

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والأصبهاني، وهو صحيح.

إذا زاد فقد لا تتحمله كل النفوس، فهناك نفوس إذا اشتد عليها الفرح أغمي عليها، بل بعضها تموت، كما قد تموت نفوس أخرى من شدة الحزن، وقد حصل هذا وهذا في واقع الناس.

قال الشاعر:

فَــــلاَ تُنْكِـــرَنَّ لَهَــــا صَرْعَـــةً فَمِـــنْ فَــرَحِ الــنَّفْسِ مَــا يَقْتُــلُ[١]

فالشيء إذا زاد عن المقدار أفضى إلى ضده. كما **قال** الشاعر:

ولجُـدْتَ حتـى كِـدْتَ تَبخَـلُ حـائِلاً للمُنْتَهَـــى ومِـــنَ الـــسّرورِ بُكـــاءُ[٢]

وحينما جعل الله تعالى الحياة الدنيا تسير على جناحي الفرح والترح دون أحدهما ؛كان من أغراض ذلك أن تعتدل أفعال المرء ومواقفه في طيرانه على فضاء هذه الحياة؛ فإن الإنسان لو غلب عليه الفرح لسما عن واقعه ولن يستطيع حينئذ أن يعتدل في أعماله وأقواله، ولا في مواقفه وأحواله؛ فالواقع يشهد بأن بعض الناس عندما تهيج أمواج الفرح في نفسه فإنه قد يتكلم بكلام لا يشعر به، وقد يعمل أعمالاً يندم عليها بعد ذلك، وقد يتوقف عن بعض وظائف حياته، بل عن طعامه وشرابه أحيانًا؛ لأن فرط الفرح أغلق عليها منافذ تلك الشؤون.

أيها الأحبة الكرام، إن أسباب الفرح في الدنيا كثيرة، بعضها مقدر، وبعضها الآخر مكتسب.

فمن الأشياء التي يفرح لأجلها الإنسان: وصوله إلى غاية محبوبة ينشدها؛ كعرس

---

(١) شرح ديوان المتنبي (١/ ٤٧٣).

(٢) شرح ديوان المتنبي (١/ ٢١٨).

أو وظيفة أو شهادة علمية ينالها.

ومنها: السلامة من مصيبة على النفس أو المال أو الأقارب، والشفاء بعد المرض، والنجاة بعد خوف الهلكة.

ومنها: البشارة بشيء محبب إلى النفس؛ كحصول ولد، وفوز بشيء مرجو، وقدوم مسافر محبوب.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: "لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم"(١).

ومن أسباب الفرح أيضًا: نيل مرغوب، أو الظفر بمطلوب؛ كحصول على مال عيني أو نقدي، أو انتصار على عدو، أو الانتهاء من عمل كان يُرجى الفراغ منه.

وعلى المسلم في هذه الأسباب وغيرها: شكر الله تعالى وفعل ما يحبه؛ لأن بعض المسلمين يتجاوزون حدود الله في أفراحهم، فيقعون فيما يغضبه، فتتحول المسرة إلى مضرة، والفرحة إلى ترحة!، وليس فعلهم ذلك من شكر الله تعالى على نعمه التي كانت سببًا لفرحهم وإدخال السعادة عليهم.

فبعضهم إذا فرحوا شربوا الخمر، ورقصوا على أصوات الغناء، وتركوا الصلوات، وتعدوا بفرحهم على هدوء الآخرين وسلامتهم!

وما بهذا أُمر الفرِح، ولا إلى هذه الأعمال كانت غايةُ السرور يا عباد الله.

أيها المسلمون، إن الإنسان حينما تنزل بساحته الأفراح، وترفرف فوق رأسه المسارُّ

(١) رواه البخاري.

فإنها تنتج له أنواعًا من الخيرات؛ فهو عندما يفرح يتأثر بذلك بدنُه، وذهنه، ونفسيته؛ فالأفراح تبعث على النشاط والحركة والإنتاج المثمر، بخلاف تراكم الأحزان التي تدخل صاحبها إلى كهوف الخمول والقعود عن العمل النافع.

والأفراح تعين على صحة البدن، وتعالج كثيراً من الأمراض؛ إذ كم مرض يتضاعف لكثرة الغموم، وكم من جسم صحيح يعتلُّ بسبب شدة الهموم.

والأفراح تقرِّب الإنسان من الناس، وتعينه على حسن التعامل معهم، والصبرِ على ما يصدر عنهم من مكروه. أما إذا طوَّقَ الحزنُ المرء فإن سينكفئ على نفسه، ويبتعد عن مخالطة الناس، ويسوء خُلقه معهم، ولا يحتمل ما يكره منهم، بل قد يؤدي حزنه الشديد حينئذ إلى الجناية عليهم وعلى نفسه.

أيها الإخوة الكرام، إن الفرح ليس نوعًا واحداً، بل هو أنواع؛ فهناك فرح مذموم، وهناك فرح مباح، وهناك فرح محمود؛ ولهذا قال تعالى عن المشركين: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[غافر:٧٥]، **فقوله:** (بغير الحق) يشير إلى أن هناك فرحًا بحق وهو الفرح المشروع: المباح والمحمود.

فالفرح المذموم هو كل فرح بما يغضب الله تعالى ولا يرضيه من الأعمال والأقوال الباطنة والظاهرة.

ومن صور الفرح المذموم: الفرح بالكفر وأعماله، والفرح بحصول مكروه على المسلمين من هزيمة وشدة حال، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[آل عمران:١٢٠].

ومن صور الفرح المذموم: الفرح بمعصية رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومخالفة أمره، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:٨١].

ومنها: الفرح بالأعمال السيئة والإعجاب بها، قال تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٨٨].

ومنها كذلك: الفرح المؤدي إلى الأشر والطغيان والعصيان، مع نسيان حق الله من الطاعة والشكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[القصص:٧٦]. يعني: الأَشِرين البطِرين.

وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤].

ومن صور الفرح المذموم: الفرح المفرِط بلذات الدنيا الذي يؤدي إلى الإعراض عن الآخرة، قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[الرعد:٢٦].

فهذا النوع من الفرح يجب على الإنسان أن يبتعد عنه؛ إذ لا يحل له أن يفرح بما يكون معصية لله تعالى ورسوله؛ لأن فرحه بذلك يدل على قلة إيمانه أو عدمه.

وأما النوع الثاني من أنواع الفرح: فهو الفرح المباح، الذي لا يتعلق به ذم ولا مدح، إلا إذا أدى ذلك الفرح المباح إلى عمل محظور فيكون فرحًا محظوراً، أو إلى عمل

مبرور فيكون فرحًا مبروراً.

ومن أمثلة الفرح المباح: الفرح بالعافية، وبرؤية المطر وسماع صوت الرعد لمن يرجو الغيث حين الجدب، والفرح بالأيام التي ترتاح فيها النفوس؛ كأيام الإجازة.

والفرح بنيل الإنسان مأربًا من مآرب الحياة؛ كنجاح في دراسة أو وظيفة أو تجارة، وغير ذلك.

أيها المسلمون، وأما النوع الثالث من أنواع الفرح فهو: الفرح المحمود، وهو كل فرح بما يحب الله تعالى ويرضى من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهذا الفرح هو نصيب الروح، فكما أن للأبدان أفراحًا فللأرواح أفراح كذلك.

وهذا الفرح هو فرح المؤمنين ونعيم قلوبهم، وجنتهم في هذه الدنيا، وسرورهم الذي ينسيهم أتراح الدنيا وعناءها، ويلهيهم عما يلتهي به أهل الدنيا من زينتها وشهواتها، وهو سعادتهم التي توصلهم إلى السعادة الأبدية في دار النعيم الخالد.

هذا الفرح هو الفرح بطاعة الله تعالى، وبما جاء من عنده من الهدى والنور. **قال** تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨]، **وقال:** ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[الرعد:٣٦].

ومن صور هذا الفرح: الفرح بإتمام العبادات، خصوصًا إذا كان فيها بعض العناء والمشقة؛ كالصيام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: للصائم فرحتان يفرحهما؛ إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه)(١).

---

(١) متفق عليه.

وكم تغمر المؤمنَ السعادةُ عقب صلاة خاشعة أقامها، وحجة مبرورة أداها، وختمة متدبَّرة فرغ منها، وصدقة خالصة أوصلها إلى أهلها، وأورادٍ شرعية قام بها، وعلوم نافعة نالها!

ومن هذا: الفرح بعيدي الفطر والأضحى؛ لأنهما جاءا بعد طاعات عظيمة؛ فالفطر جاء رمضان، والأضحى جاء عقب عشر ذي الحجة، وعلى رأس تلك الطاعات: أداء ركنين من أركان الإسلام وهما صوم رمضان والحج.

عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما **فقال**: (ما هذان اليومان)؟ قالوا: يومان كنا نلعب فيهما في الجاهلية، **فقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر)[١].

ومن صور الفرح المحمود: الفرح بانتصار الحق وعزِّ المسلمين، وهزيمة الباطل وذل الكافرين، والفرح بظهور الطاعات وسطوع نجم أهلها، وقلة المعاصي وخفوت أصحابها.

ومن صور الفرح المحمود كذلك: الفرح بعلو شأن الإنسان عند الله، كما حصل لأبي بن كعب رضي الله عنه إذ سماه الله لرسوله في هذه القصة: **عن** أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبيٍّ: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك) قال: آلله سماني لك؟! قال: (الله سماك لي) قال: فجعل أبيٌّ يبكي[٢].

عباد الله، إن هذا الفرح الأمدي الدنيوي بطاعة الله يسوق أهله المؤمنين إلى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

الفرح الأخروي الأبدي في جنات تجري من تحتها الأنهار.

في ذلك اليوم الذي تظلل المؤمنَ المسرات من كل أفق، وتتبسم له الأفراح من كل ناحية، ففيه يحصل فرحه الكبير يوم يلقى الله تعالى بطاعاته فيفرح حينما يلقى ثوابها من الغني الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[آل عمران:١٦٩-١٧٠]. وكما **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (للصائم فرحتان يفرحهما؛ إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه)(١).

ويتم فرح المؤمنِ العظيمُ يوم يدخل الجنة، ويستقر في قصره المشيد، وينال رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينادي منادٍ: -يعني: في أهل الجنة- إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣])(٢).

فهل أنتم مستعدون-عباد الله- لهذا الفرح الأكبر، والسرور الأعظم؟

نسأل الله أن يعيننا على الفرح المحمود، حتى نصل به إلى هذا الفرح في اليوم الموعود.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها المسلمون، كل واحد منا يحب أن يكون رفيق الأفراح، بعيداً عن الأحزان والأتراح، فكيف نستطيع أن نصل إلى أن يقيم الفرح في نفوسنا ودورنا وما يتعلق بحياتنا الدنيوية؟

لهذا المطلب أسباب: على رأسها: ترسيخ جذور العقيدة الصحيحة، والعمل على زيادة الإيمان والحفاظ عليه من النقصان.

ومن أسباب الفرح: القيام بأوامر الشرع، والوقوف عند حدوده، وعدم التعدي على حرماته.

ومن أسباب الفرح كذلك: التعلق بالدار الآخرة، وعدم الاغترار بأعراض الدنيا.

ومنها: الرضا بما قسم الله تعالى للنفس؛ من المال والجمال والعلم والقوة والجاه، وغير ذلك من أسباب الظهور في الدنيا.

ومن أسباب الفرح: الإحسان إلى الناس بتفريج كروبهم، والصدقة عليهم، وقضاء حوائجهم، والبعد عن ظلمهم قولاً أو فعلاً، ولله كم في هذا السبب من أثر يُدخِل على النفس الفرحَ والسرور، والسعادة والحبور!

ومن أسباب الفرح: البعد عن طول مجالسة أصحاب الأحزان والنظرة التشاؤمية للحياة، وعدمُ التحسر على الماضي السعيد، وتركُ التفكير في المستقبل المجهول الذي

تحيط به الأفكار السلبية.

ومن الأسباب كذلك: الصبر على الكدر الذي يرافق المرء، فعقبى الصبر فرج وفرح. **قال** الشاعر:

والصَّبْرُ مثلُ اسمِهِ في كلِّ نائبةٍ لكنْ عواقبُهُ أحلى من العَسَلِ[(١)]

فهذه أجنحة الطيران إلى واحات الفرح الغَنَّاء، والتحليق في آفاق السعادة والهناء، فاركب معنا لنصل وإياك إلى الفرح المنشود.

عباد الله، ما المطلوب منا بعد عرض هذا الموضوع؟

ليس المراد أن نأتي إلى هنا لنسمع ثم نلوي إلى حياتنا من غير عمل، فلا يكون لما نسمعه أثر في دنيانا، ليس هذا هو المقصود.

إن المطلوب منا في هذا الموضوع:

أن نكون من أهل الفرح، ولكنه الفرح الذي شرعه الله وأحبه.

ونحذر كل الحذر أن نفرح الفرح المذموم الذي يكون فرحًا بمعصية الله وما يسخطه.

وعلينا كذلك- إذا أنعم الله علينا بنعمة وجدنا بها الفرح- أن نؤدي شكر الفرح؛ ومن ذلك:

شكر الله على ذلك، وعدم مجاوزتنا لحدود الله في أفراحنا. وأن نسعى إلى إشاعة أسباب الفرح المشروع بين الناس، فنفرحهم كما أفرحنا الله تعالى.

---

(١) ديوان كشاجم (ص: ٤٢٢).

وأن لا نظهر الفرح -متفاخرين- عند المحزونين ومن يفقدون النعم التي أفرحتنا.

وأخيراً أن نعتدل في فرحنا فلا نفرط فيه فنخرج عن الجادّة؛ لعلمنا أن ذلك الفرح لن يدوم، وأنه مكتوب لنا قبل خلقنا، وما كتب لنا سيصل إلينا، فكما نعتدل في أحزننا التي نعلم أنها مقدرة علينا نعتدل كذلك في أفراحنا؛ لأن جميع ذلك مكتوب في الكتاب السابق، وإذا ترسخ هذا اليقين في قلوبنا صرنا في راحة في كلا حالَينا: فرحنا وحزننا.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد:٢٢-٢٣].

نسأل الله تعالى أن يصرف عنا كل فرح يبعدنا عن قُربه، ويرزقنا من كل فرح يقربنا من رضوانه.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المصطفى...

صُورٌ من العناء الذي واجهه سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، تمر ببعض المؤمنين اليوم أحوالٌ عصيبة، وظروف كئيبة، فيُرى في ساحة دنياه تتجاذبه الكربات، وتطوِّقه المعضلات، مشكلات بيتية مع الزوجة والأولاد، وخلافات مجتمعية بينه وبين غيره، وأحوال اقتصادية متردية لا يرى فيها إلا الفقر مكشراً عن نابه نحوه، أو ماداً جناحيه على آفاق معيشته.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٢/٢/١٤٤١هـ، ١١/١٠/٢٠١٩م.

وفي أمر دينه يشكو الضيق وقلة المساعد، فالمنكرات فاشية، ومواطن الطاعة غير آهلة، والباطل ظاهر القوة والقدرة، والحق يعيش في ذلة وانكسار.

وفي هذه الأجواء المعتمة يعيش مع الأحزان والغموم والهموم في مدخله ومخرجه، وحركته وسكونه، وليله ونهاره.

ومما يزيده كمداً إلى كمده: أن يرى أهل الكفر والعصيان في سعة من الدنيا، وفسحة في فعل ما شاءوا وترك ما أرادوا.

فإن قوي إيمانه استوعب تلك المشاهد صابراً متذكراً قول الله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧]. وأيقن بقول الله تعالى -ولو طال الزمن-:﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤]. فعند ذلك يسلو في حزنه، وتخفّ عليه وطأة غمه.

وأما إن ضعف إيمانه، وقل يقينه بصحة طريقه فقد يصيبه الشك والضجر، ويستمر به الغم والهم.

عباد الله، إن طريق الإيمان مفروش بالتعب والعناء، وقلة الراحة والهناء، والغرض من ذلك: كي يُصقل إيمانُ سالكه، ويَصلُب عود صاحبه، ويظهر على سبيل الإيمان الدخلاء والمدَّعون وهم راجعون عن المضي فيه، فلا يستمر عليه إلا الصادقون الصابرون.

لا تظن -أيها المؤمن- أنك في ضيافة العناء وحدك، وأن المؤمنين قبلك لم يبتلوا كما ابتُليتْ، ولم يتعبوا كما تعبت.

ففي سيرة رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فصول من العناء والألم في العهدين: المكي والمدني، لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ظلالها كثيراً من التعب والوجع، ومرت به أطوار من المشقة والنصب، من تأملها بإيمان راسخ، سلا في ضيقه، وهان عليه مصابه، وشُحذت بذلك همته في طريق الحق والصبر.

وإننا اليوم -بعون الله- سنذكر طرفًا من صنوف العناء التي مر بها نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ حتى يكون ذلك نبراسًا هاديًا في ظلمات العناء، يخفف من وطأة الشدائد، ويعين المؤمن على الثبات في مواقف البلاء، وليعلم المبتلى من المؤمنين من خلال ذلك أن سبيل الإيمان لابد فيها من لقاء المكاره في أمر الدين والدنيا، وأن العاقبة الحسنة، والراحة التامة، والسعادة التي لا حد لها تنتظر المؤمنين الثابتين في نهاية الطريق.

أيها الأحباب الفضلاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)(١).

إن المتتبع لسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجد أنه قد ذاق من صنوف العناء ألوانًا؛ وقد كان ذلك حتى يرفع الله درجته، ويكون قدوة للمؤمنين في طريق الإيمان. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

فمن صور العناء التي لقيها سيد الأنبياء **في مكة:** تكذيب قومه له، فقد جاءهم

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي والنسائي، وهو صحيح.

بالحق من عند الله فردوه عليه وقالوا عنه: إنه كذاب، مع أنه عاش بينهم وهو موصوف فيهم بالصادق الأمين! فما أشدها من كلمة تقع في أذن الصادق حينما يقال له: إنه كاذب!

ولتكذيبهم له أعرض أكثرهم عن الاستجابة لما يدعوهم إليه من الحق، فكان ذلك مما يحزنه ويغمه؛ لحرصه عليهم، وخوفه من موتهم على ذلك؛ رأفة منه بهم. لكن الله تعالى كان يسليه عن حزنه، ويخفف من عنائه بنزول الآيات التي تنهاه عن الحزن: قال تعالى: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النمل:٧٠].

ولم يَسلم نبي الله عليه الصلاة والسلام -وهو الطاهر النقي الكريم- من سب المشركين وطعنهم وتهمهم الباطلة في حقه، فكان ذلك صورة أخرى من صور العناء؛ فقد رموه بالسحر والكهانة والجنون والأخذ من أساطير الأولين، والتعاون مع غيره فيما جاء به من القرآن، بل لم يسلم مع ذلك من سخريتهم وتحقيرهم واستهزائهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفرقان:٤-٥].

عباد الله، إن إيذاء المشركين لم يقف عند القول، بل تجاوزه إلى الفعل؛ قال عبد الله بن مسعود : "إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم [يعني: عقبة بن أبي معيط]، فجاء به فنظر حتى سجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغير شيئًا لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض،

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساجد لا يرفع رأسه"(١).

وفي الطائف بقي رسول الله عشرة أيام يدعوهم حتى قالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء.

فلما جلس واطمأن دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقي من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أَحد، قال: (اللّٰهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)(٢).

ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **في مكة:** ما كان يلقاه من بعض أقاربه وجيرانه من الأذى؛ فإن" أبا لهب كان يجول خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موسم الحج والأسواق لتكذيبه...وربما كان لا يقتصر على التكذيب، بل كان يضربه بالحجر حتى يَدمى عقباه...وكانت امرأة أبي لهب أم جميل لا تقلُّ عن زوجها في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ١٠٠).

تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فِهْرٌ [أي: بمقدار ملء الكف] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمَّمًا عصينا وأمرَه أبينا ودِينَه قَلَيْنا...

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاره، وكان بيته ملصقًا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤذونه وهو في بيته، وهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، فكان أحدهم يطرح عليه –صلى الله عليه وآله وسلم– رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: (يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟!) ثم يلقيه في الطريق[1].

ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **في مكة:** رؤيته بعض أصحابه يعذَّبون ويُذَلُّون ولا يستطيع أن يصنع في نصرهم شيئًا! غير أنه كان يوصيهم بالصبر، ويبشرهم بالفرج القريب.

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٧١) بتصرف.

جاء في السيرة النبوية: "وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه- وكانوا أهل بيت إسلام- إذا حميت الظهيرة يعذِّبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة. فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام. وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حِلمك، وَلَنُفَيّلَنّ رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لَنُكَسّدَنّ تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به"(١).

أيها الأحباب الفضلاء، ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة: حصار الشِّعب الذي بقي فيه مع بني هاشم وبني المطلب ثلاث سنوات، وما لقي فيه معهم من العزلة الاجتماعية، والجوع والشدة حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشِّعب أصواتُ نسائهم وصبيانهم يصيحون من الجوع!!.

ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **في مكة:** موت الأحباب؛ فقد مات في مكة أبناء رسول الله من خديجة رضي الله عنها، وهما: القاسم وعبد الله، ثم ماتت أمهما خديجة، ثم مات عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويحميه. وقد وقعت حادثة موت خديجة وأبي طالب" خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه؛ فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب، فازداد غمًا على غم"(٢).

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ١٦٢).

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٩٤).

ثم خُتمت فصول عناء مكة بإخراج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها، حينما اضطره الكفار إلى ذلك؛ فقد اتفقت قريش على قتل رسول الله، وتدبير خطة للتخلص منه، فخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجراً وهي أحب البقاع إليه. ومما يدل على تعلق قلبه بمكة: أنه لما خرج منها " وقف ونظر إلى البيت قال: والله إنكِ لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"(١).

عباد الله، وهكذا يُطوى العهد المكي الذي دام ثلاث عشرة سنة، لقي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألوانًا متعددة من المكاره، وصنوفًا متنوعة من العناء، فواجهها بالصبر والثبات، والتفاؤل والاستبشار بفرج الله تعالى، وحسن عاقبته، حتى بزغت شمس الهجرة بعزة الإسلام وأهله.

ومن هنا يتعلم المؤمن -أيها الفضلاء- المواقف الصحيحة إزاء البلاء، والسلوَّ في عنائه بما جرى لسيد الأنبياء، ويتخذ من الصبر والمصابرة شعارا، ومن الأمل بزوال الضيق دثارا؛ فإن الله لن يضيع عبده المؤمن الصادق الثابت في مهب العناء، فالفرج ينتظره ولو طالت عليه الشدة واللأواء.

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا ولكل مسلم في كل مكان من كل همٍّ فرجا، ومن كل ضيق مخرجا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٣١٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، **أما بعد:**

أيها المسلمون، هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وهناك أسّسَ دولةَ الإسلام الأولى، وتنفّس المسلمون الصُعَداء؛ حيث صاروا في عزة ومنَعَة، واستطاعوا العمل بشرائع الإسلام علنًا من غير خوف.

غير أن ذلك لا يعني انقطاع فصول معاناة الداعي الأول رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم؛ بل إنه قد انتقل من مرحلة لها صور معينة من العناء إلى مرحلة أخرى لها صور أخرى من هذا البلاء؛ لأن مهمة النبي عليه الصلاة والسلام مهمة عظيمة لا تسلم من المكاره الخاصة والعامة، ولأن حياة المؤمن مهما حصل فيها انفراج من شدائد كبار لابد أن تبقى بعض المنغصات في الحياة؛ لأن هذا هو طبع هذه الدنيا التي لا يصفو فيها عيش من كدر، ولكون الراحة لا تتم للمؤمن إلا في الجنة.

قال ابن القيم رحمه الله: "ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد، فمثِّلْ لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يَهُن عليك النَّصَب، واستحضر يوم المزيد يَهُن عليك ما تتحمل من أجْله"(١).

لهذا حصلت في المدينة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم **صور من العناء، فمنها:**

إيذاء المنافقين واليهود، وقد تعددت أذية هؤلاء الأعداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قولاً وفعلاً:

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٣١٤).

يقول تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٦١]، **وقال:** ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون:٨].

ومن أذيتهم–وخاصة زعيمهم عبد الله بن أبي–: التعاون مع اليهود والمشركين ضد المسلمين، وخلخلة الصف المسلم وتخذيله، وبث الشائعات، والطعن في عرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما في حادثة الإفك، ومحاولة اغتياله، كما في غزوة تبوك.

وأما اليهود فمن صور العناء الذي لقيه رسول الله منهم: إعراضهم عن قبول دعوته مع علمهم بصدق نبوته، وسبهم وهجاؤهم له وطعنهم فيه، وغدرهم لعهودهم معه، ومجاهرتهم بالعداوة وتعاونهم مع مشركي قريش، وحربهم لرسول الله والمسلمين، ونشر الدعايات الكاذبة في المدينة. ومنها: إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بدر، ومحاولة قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مرة.

أيها الأحباب الكرام، ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله **في المدينة:** الخوف من وصول طلائع قرشية إلى المدينة لاغتياله، فكان أول مقدمه المدينة بقي مدة لا يبيت إلا محروسًا، خاصة أن قريشًا كانت قد عزمت على قتله فأفلت منهم يوم الهجرة، ولم يزالوا مصممين على ذلك، ولكن الله عصم رسوله الكريم منهم.

ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله **في المدينة أيضًا:** تحمل مؤونة جهاد أعداء الدين في غزواته وسراياه، ابتداء بغزوة الأبواء وانتهاء بغزوة تبوك، فكان صلى الله

عليه وآله وسلم يتلقى أخبار الكفار الذين يريدون الإغارة على المدينة، فيجهز المقاتلين ويرسم الخطة العسكرية، ويبعث الجيش وربما قاده بنفسه، وخرج إلى أرض المعركة وقاتل بسيفه ويجرح جروحًا بليغة، كما حصل في غزوة أحد.

ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله **في المدينة أيضًا:** موت بعض أقاربه وأصحابه وآل بيته، رضي الله عنهم أجمعين.

ففي المدينة مات جميع من تبقى من أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها؛ فقد ماتت بناته الثلاث: زينب ورقية وأم كلثوم. ومات ابنه إبراهيم، وهو آخر أبنائه ولادةً وآخرهم موتًا في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، **عن** أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟! فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة). ثم أتبعها بأخرى فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون)[١].

إنها -يا سادة- مشاعرُ الأبوة على فلذة الكبد، ودموع اللوعة على آخر أبنائه!.

وممن فقدهم في المدينة بالموت: زوجته زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

وممن فقدهم أيضًا: شهداء أُحد، وخاصة عمة حمزة رضي الله عنه، فإنه "لما رأى ما بحمزة. عمه وأخيه من الرضاعة. اشتد حزنه...قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في

---

(١) رواه البخاري.

القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَع من البكاء"[١]. يعني: حتى شهق.

وممن فقدهم في المدينة بالموت وحزن عليهم حزنًا شديداً: أصحاب بئر معونة وأصحاب الرجيع، وهم القراء الذين بعثهم رسول الله لتعليم بعض القبائل الإسلامَ والقرآن، فغدروا بهم وقتلوهم، وكان عددهم ثمانين صحابيًا رضي الله عنهم.

" وقد تألم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألما شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه"[٢]. وبقي ثلاثين صباحًا يقنت يدعو على القبائل الغادرة وهي رِعْل وذَكْوَان ولَحْيَان وعُصَيَّة.

أيها الإخوة الكرام، ومن صور العناء الذي لقيه رسول الله **في المدينة أيضًا:** ما عاناه من سياسة الناس، وتعليمهم ودعوتهم، ومتابعة أحوالهم، وما مسه من الجوع قبل خيبر، حتى إنه ربما مرت به أحوال مسغبة شدَّ على بطنه حجراً وحجرين من الجوع!.

فيا من يشكو العناء، ويئن من وطأة البلاء، خفِّف ثقل ما أنت فيه بما سمعت عن خير البشر صلى الله عليه وآله وسلم، واصبر على ما نزل بك، واثبت على طريق الحق، واعلم أن لعنائك- الذي صبرت عنده واحتسبت ذلك لدى مولاك- عاقبةً حسنة ستنسيك آلام العناء الذي مسّك.

وتذكّر أن الشدائد إلى انفرج، وأن ظلام الليالي إلى انبلاج:

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٥٤).

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٨).

خَلِيلَيَّ لَا وَاللَّهِ مَا مِنْ مُلِمَّةٍ ... تَدُومُ عَلَى حَيٍّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَلَا تَخْضَعَنْ لَهَا ... وَلَا تُكْثِرِ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ بُلِيْ بِنَوَائِبٍ ... فَصَابَرَهَا حَتَّى مَضَتْ وَاضْمَحَلَّتِ

وَكَمْ غَمْرَةٍ هَاجَتْ بِأَمْوَاجِ غَمْرَةٍ ... تَلَقَّيْتُهَا بِالصَّبْرِ حَتَّى تَجَلَّتِ [١]

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٦٧).

قصص الإخوة والأخوات في القرآن(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، سمعنا قبل مدة زمنية غير بعيدة أن أخًا قتل أخاه ظلمًا وعدوانًا، متناسيًا بفعلته هذه أنهما جاءا من صُلب واحد، ورحم واحد، وتربيا في بيت واحد، وكانا في صغرهما يلعبان ويتبادلان الضحكات والأُنس معًا، ويتقاسمان ما يلمّ بأحدهما من فرح أو ترح.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٨/٣/١٤٤١هـ،١٥/١١/٢٠١٩م.

وهذه الحادثة في عصرنا الحاضر ليست الأولى ولا الأخيرة من نوعها بأن يقتل الأخ أخاه الشقيق أو أخاه من أبيه أو من أمه، بل هناك قصص مشابهة.

غير أن هذا العدوان على ذوي القربى -بكثرةٍ- أمرٌ غريب عن القرون الماضية، وإنما ظهر وازداد في العقود المتأخرة، ولعله مصداق ما أخبر عنه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي موسى-رضي الله عنه-بقوله: (إن بين يدي الساعة لهرجًا) قال: قلت: يا رسول الله، ما الهرج؟ قال: (القتل، يقتل بعضكم بعضًا، حتى يقتل الرجل جاره وابن عمه وذا قرابته)(١).

عباد الله، لقد ذكر لنا القرآن الكريم خبرين عن الإخوة والأخوات: خبراً عن إخوةٍ ظلمَ بعضهم بعضًا، وخبراً عن إخوة أحسن بعضهم إلى بعض إحسانًا عظيمًا.

فأما الخبر الأول فقد ذكر الله فيه قصتين:

القصة الأولى: قصة ابني آدم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[المائدة:٢٧-٣١].

أرأيتم-معشر المسلمين- ما في هذا المشهد من مأساة! كيف تحول الأخ القاتل إلى

(١) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

وحش كاسر لا يريد إلا تلبية رغباته العدوانية الجامحة، فقد حمله حسده وحقده على معصية ربه وإغضابه، وإبكاء والديه وغمّهما، وقطع رحمه بالاعتداء على شقيقه بالقتل ظلمًا وعدوانًا!!

أي نفس تلك التي استطاع ضميرها أن يأذن لها بأن تحمل آلة القتل لتُفني شقيقها الذي حملته معها بطن واحدة؟!

في هذه القصة ذكر الله تعالى أن آدم عليه السلام كان له ولدان، وكان أحدهما يقال له: هابيل، والآخر يقال له: قابيل، فقربا قربانًا لله تعالى، فتقبل الله من هابيل؛ لكونه صالحًا متقياً، ولم يتقبل من قابيل؛ لكونه لم يكن كذلك.

فماذا حدث بعد هذا؟

لقد اغتمّ قابيل لهذا، وانقدحت في نفسه نار الغضب، واشتعلت بالحسد على أخيه، فولد ذلك في صدره البغضَ والحقد، وإرادة الانتقام، والعزم على إنهاء حياة أخيه، حتى توعده بالقتل بلا تردد.

أما هابيل فإنه لما رأى عزم أخيه على قتله أخبره بأنه لا ذنب له فيما جرى، غير أن تقوه هي سبب قبول قربانه، وبيّن له دليلاً آخر على تقواه بأنه لن يقدم على قتل قابيل لكونه يخاف الله تعالى، ووعظه أيضًا بأنه إن أقدم على قتله فإنه سيحمل وزره مع وزره، ويكون مصيره نار جهنم.

لكن أن هذه الكلمات الواعظة لم تجد طريقها إلى قلب قابيل؛ لأنه سُبل قلبه قد سُدَّت بركام الحسد الشديد؛ فلهذا لم تنفع معه الموعظة.

فسهلت لقابيل نفسُه المتخمة بالحقد قتلَ أخيه بلا ممانعة، ففعل جريمته الكبرى،

وبها سجل على نفسه أول جريمة قتلٍ في تاريخ البشرية، فسنَّ سنةً سيئة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل)(١).

فعلى أخيه جنى بدونِ مخافةٍ ... للهِ أو عطفٍ على أبويهِ
واستلَّ من قلبٍ حسودٍ بغيَهُ ... فقضى به يوم الشقاء عليهِ
أين النُّهى والخوف من رب الورى! ... يا ويلَهُ يوم الوقوف لديه!

أيها المسلمون: والقصة الثانية في القرآن لعدوان الأخ على أخيه: قصة يوسف -عليه السلام- مع إخوته.

فقد كان ليوسف منزلة عظيمة في قلب أبيه النبي يعقوب عليه السلام؛ لما امتاز به من الخِلال الحميدة على سائر إخوته، ثم إنه رأى رؤيا تحكي ما ينتظره من علو المنزلة في الدنيا والآخرة، قصها على أبيه، فحذره أن يخبر إخوته برؤياه؛ لعلمه بشدة حسدهم له، فلو بلغهم خبر النعمة هذا لازدادوا له حسداً.

لكنَّ غليان الحسد ازداد بمرور الأيام في قلوب إخوة يوسف، فدبروا مؤامرة للتخلص منه؛ ليصفو لهم قلب أبيهم بالحب، وليبرد وهج أفئدتهم المتقدة بحسد يوسف.

فطلبوا من أبيهم أن يأذن ليوسف بالخروج ليلعب ويستريح معهم، فأذن لهم يعقوب بأخذه على تردد وخوف، وأوصاهم بحفظه.

وقد كانت مؤامرتهم تقضي بقتله، ثم عدلوا عن ذلك واتفقوا على إبعاده عن أبيهم

---

(١) متفق عليه.

بإلقائه في الجب.

ثم رجعوا إلى أبيهم بعد خروجه معهم وكذبوا عليه بأن الذئب قد أكله، فعرف يعقوب -عليه السلام- أنهم كاذبون، فصبر صبراً جميلاً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٤-٥]، إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

عباد الله، ثم إن يوسف عليه السلام باعه إخوته لجماعة من المسافرين، أو وجده أولئك الركب في البئر فباعوه لعزيز مصر، فبقي في بيت العزيز سنوات، حتى راودته امرأة العزيز، فلما تمنع منها اتهمته بمراودتها فأُدخل السجن فبقي فيه بضع سنين.

فلما ظهرت براءته من التهمة وعُرف علمه بتعبير الرؤى اصطفاه ملك مصر ليجعله من خلصائه، فطلب منه يوسف أن يجعله على خزائن مصر لينفع الناس بوظيفته، فأعطاه الملك ذلك.

ثم مرت الأيام واشتدت حاجة إخوة يوسف فجاءوا إلى مصر أيام ولاية يوسف فتصدق عليهم وأحسن إليهم قبل أن يعرفوه، ثم عرفهم بنفسه بعد ذلك، فاعترفوا له بالفضل، وندموا على ما فعلوا معه، فعفا عنهم، ثم أمرهم أن يأخذوا قميصه إلى أبيه، فرجعوا به إليه فعاد إلى يعقوب بصره بعدما عمي، ثم طلب منهم يوسف أن ينتقلوا إلى مصر، فأكرمهم ورفع شأنهم، فخر له أبواه وإخوته الأحد عشر ساجدين، فحصل

تأويل رؤياه التي رآها بعدما صار إلى شرف النبوة والولاية.

أيها الأحباب الكرام، وفي هذه القصة من العبر في موضوع الإخاء:

أن جناية الأخ على أخيه أعظم من الجناية على غيره، وهي أبقى أثراً، وأعظم خطراً، وأكثر ضرراً، **قال** الشاعر:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً على المَرْءِ مِن وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

ومن العبر: أن إخوة يوسف بفعلهم هذا قد آذوا أباهم أيما إيذاء، فحزن حزنًا شديداً، وبكى واشتد بكاؤه، حتى ذهب بصره. قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٤-٨٦].

ومن العبر كذلك: أن على الأخ أن لا يستجيب لحقده وحسده وكراهيته لأخيه فيؤذيه ويقطع صلته به؛ فإن الزمان قد يلجئه إلى أخيه، فيحتاج إلى مساعدته ووقوفه بجانبه.

وقد رأيتم كيف احتاج إخوة يوسف إليه وقالوا له في ذل وانكسار: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨]، وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١].

ومن العبر أيضًا: أن يوسف عليه السلام- بعد كل ما جرى له بسبب إخوته من البلاء: من غم البئر وخوفه، وذلّ الرق وقهره، وضيق السجن وكربه، وفراق الوالدين

وحزنه، وألم جناية إخوته عليه، مع ذلك كله لما صار أمر إخوته إليه، وأضحوا أذلاء بين يديه- لم ينتصر لنفسه فيعاقب إخوته، بل ظهر منه سمو الأخلاق، وعاطفة القربى، والصبر الجميل على ما أصابه.

فماذا فعل مع إخوته؟

لقد عفا عنهم عفو الكريم القادر فقال لهم: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

وكافأهم وأزال حاجتهم فقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

وترفّع يوم اللقاء السعيد بالأسرة كلها عن ذكر الماضي المظلم؛ فذكر السجن ولم يذكر الجُب، وجرّد نفسه عن نسبة الإحسان إليهم فنسبه إلى الله، وجعل ما حصل له من جناية إخوته من نزغ الشيطان بينهم، فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[يوسف:١٠٠].

فهل رأيتم عفواً وكرمًا أخويًا أعظم من هذا، فأين أمثال يوسف عند الاختلاف الأخوي؟

عباد الله، لقد اتفقت القصتان: قصة ابني آدم، وقصة يوسف مع إخوته على شيء واحد كان سبب عدوان الأخ على أخيه، هذ الشيء هو الحسد.

إن الحسد صفة ذميمة لا تحملها النفوس الكريمة، ولا تتخلق بها إلا النفوس الذميمة التي نقص حظها من الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يجتمع

في جوف عبد الإيمان والحسد)[(١)].

ولا شك أن هذا الداء بوابة الآثام، ومنطلق الجرائم، والداعي إلى قطع الصِّلات، وارتكاب الخطيئات؛ فهو الذي منع إبليس من السجود لآدم فباء إبليس بغضب الله ولعنته، وهو الذي حمل قابيل على قتل أخيه هابيل، فأصبح قابيل من الخاسرين، وهو الذي دعا إخوة يوسف لجريرتهم معه، فصاروا إلى ما صاروا إليه من الإثم المبين.

ألا فليحذر الأقارب أن يدبّ بينهم داء الحسد، فعقوبته عظيمة، وعاقبته وخيمة.

فيا أيها المسلم، احذر أشد الحذر من حسد أخيك -شقيقًا كان أم لأب أم لأم-، وتجنب عداوته وقطيعته، وتصديق الوشاة فيه؛ فجرج القريب لا يندمل سريعًا.

وإياك والبخل عليه بما أعطاك الله، وإهانته وإذلاله، وظلمه، وأخذ حقه.

واحذر أن تظلم أختك في ميراثها، أو تقطع صلتها وزيارتها، أو تترك الوقوف بجانبها عند حاجتها إليك.

وإن كان لك إخوة من أبيك فإياك إياك أن تعاديهم وتحقد عليهم؛ خشية من مشاركتهم لك في تركة والدك، أو انتصاراً لغيرة أمك على ضرتها وأولادها؛ فإن ذلك كله يغضب أباك.

ونقول للآباء والأمهات: ازرعوا في نفوس أولادكم حبَّ بعضهم بعضًا، وقوة الصلة بينهم، وإياكم أن تكونوا سببًا لعداوة أولادكم والشقاق بينهم، بل اعدلوا بينهم، واحذروا الميل إلى بعضهم؛ فإن ذلك يربي في نفوس الآخرين الحقد عليكم

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقي، وهو حسن.

وعليهم، وأوصوهم بأن يكونوا لُحمة واحدة، وعلى قلب واحد؛ حتى يبقوا أعزة متحابين.

دعا أكثم بن صيفي أولاده عند موته، فاستدعى بحزمة من السهام، وتقدم إلى كل واحد أن يكسرها، فلم يقدر أحد على كسرها، ثم بددها وتقدم إليهم أن يكسروها، فاستسهلوا كسرها، فقال: كونوا مجتمعين؛ ليعجز من ناوأكم عن كسركم كعجزكم.

إن القِـــداح إذا اجــــتمعنَ فرامَهـــا ... بالكـــسر ذو حـــرَدٍ وبطـــشٍ أيِّـــدِ
عـزَّتْ فلـم تُكسرْ وإن هـي بُـدِّدتْ ... فـــالوهْنُ والتكـــسير للمتبـــدِّد(١)

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

(١) محاضرات الأدباء (١/ ١٦٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **أما بعد:**

أيها المسلمون، كم من أخ أسدى لأخيه معروفه، وأناله من أسباب السعادة ما أناله، وهذا مثال للأخ الصالح.

وفي خبر الإخوة الصالحين والأخوات الصالحات ذكر الله تعالى قصتين في القرآن:

القصة الأولى: قصة أخت موسى مع موسى -عليه السلام-، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[القصص:١٠-١٣].

فتأملوا فيما قدمته أخت موسى لموسى؛ لقد وصل موسى في التابوت إلى قصر فرعون، وكانت أم موسى على يقين من حياة ابنها، فأرسلت أخته للبحث عن مستقره، ومعرفة أخبره، فتتبعت أثره حتى وجدته في بيت فرعون، فرأته عن بُعدٍ وهم لا يشعرون أنها أخته، ووجدتهم يبحثون عن مرضع له، فتلطفت لهم في الخطاب، ودلتهم على مرضع له وبيت يكفله، فوافقوا فرجعت به إلى بيت أمها.

أرأيتم كيف نفعت الأخت أخاها وأُسْرَتها كلها، لقد كانت سببًا لإدخال السعادة عليهم بعد أن خيَّم الحزن عليهم بفقد وليدهم.

إنها الأخت يا عباد الله، تحن على أخيها، وتشفق عليه، وتسعى في مصلحته، وربما ضحّت بزوجها وولدها من أجله؛ لأن الأخ لا يعوَّض، وأما الزوج والولد فيعوَّضان.

قيل لامرأة أسرَ الحجاجُ زوجَها وابنها وأخاها: اختاري واحداً منهم -يعني: لنعفو عنه-. فقالت: الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود، أختار الأخ! فقال الحجاج: عفوت عن جماعتهم[١].

فاللهَ اللهَ في أخواتكم -معشر المسلمين- أحسنوا إليهن وأكرموهن، وصِلوهن وزورهن، وارحموهن وساعدوهن، وقوموا على رعايتهن وأنفقوا عليهن، متى احتجن وقدرتم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن فله الجنة)[٢].

أيها الفضلاء، والقصة الثانية في نفع الأخ أخاه -كما ذكر القرآن الكريم-: قصة موسى مع أخيه هارون -عليهما السلام-.

فقد أرسل الله تعالى موسى نبيًا، فأحب موسى لأخيه هارون الخير، فسأل الله أن يرسله معه نبيًا كذلك، يستعين به في دعوة فرعون. قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[طه:٢٩-٣٦].

الله أكبر! إنه مهما قدم الأخ لأخيه من نفع في هذه الحياة فلن يستطيع أن ينفعه كما نفع موسى أخاه هارون، فأي نعمة في هذه الحياة فوق نعمة النبوة؟

---

(١) محاضرات الأدباء (١/١٦٣).

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

ولئن كان نفع أخت موسى لموسى، ونفع موسى لهارون في حال الحياة، فهناك من تنفع أخاها أو ينفع أخاه بعد الموت؛ بالدعاء له أو الصدقة عنه، والثناء عليه وذكر مآثره؛ فقد خلَّد الأدبُ العربي ذِكَر مالك بن نويرة برثاء أخيه متمم له، وبقي ذكره بذلك محفوظًا في ذاكرة الأيام، فقد كان متمم إذا مر بقبر تذكَّر أخاه مالكًا فبكى، فلامه الناس على ذلك، فقال:

لَقدْ لامَنِي عندَ القُبُورِ على البُكا ... رَفِيقي لِتَذْرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ

فقالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى والدَّكادِكِ

فقلْتُ لـه: إنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... ذَرُونِي، فهذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ(١)

وهذه الخنساء تماضر بنت عمرو لم يبق ذكر أخيها صخر إلا بكثرة قصائدها الرثائية فيه، ومن ذلك **قولها:**

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

فيا عباد الله، تمسكوا بإخوانكم وأخواتكم؛ أدوا إليهم حقوقهم، وانصروهم في الحق، وأحبوهم، وتعاونوا معهم، وصِلُوهم وادعوا لهم، وقفوا معهم في مشكلاتهم، واحترموهم وبجلوهم، وكونوا دائمي التفقد لأحوالهم، وأفضلوا عليهم مما أعطاكم الله، ولا تتركوهم في عناء وعندكم قدرة على إزالة عنائهم، وإذا رأيتموهم على خطأ واعوجاج فلا تغفلوا عن نصحهم بالكلمة الطيبة، ولا تغفلوا عن تربية الصغير منهم، ولا عن توقير الكبير؛ فإن للأخ الكبير حقًا من التوقير؛ فعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سقى قال: (ابدأوا بالكبير)(٢).

---

(١) الحماسة البصرية (ص: ٨٧).

(٢) رواه أبو يعلى الطبراني في الأوسط ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

وتذكروا أن الأخ للأخ قوة وسند، وحصن ومعتمَد، ومؤنس ورفيق، ومفرِّج عنه عند الضيق:

أخـــاكَ أخـــاكَ، إنَّ مَـــنْ لا أخَـــا لــهُ   كَـــساعٍ إلى الهَيْجـــا بغِـــيرِ سِـــلاحِ
وإنَّ أخ الإنـــسان فـــاعْلَمْ جَناحُـــهُ   وهَـــلْ يَـــنْهَضُ البـــازِي بغَـــيْرِ جَنـــاحِ

هذا وصلوا على خير البشر...

يسألونك عن الوضوء(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، هناك عبادة عظيمة نؤديها كل يوم في البيوت وفي المساجد وغيرها، ويجب علينا أن نقوم بها إذا جئنا إلى هذا المكان الطاهر، ووقفنا للصلاة بين يدي الملك العظيم تبارك وتعالى.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٥/٣/١٤٤١هـ، ٢٢/١١/٢٠١٩م.

هذه العبادة فيها أجور وفيرة، وثمرات روحية وبدنية كثيرة، شرعها الله تعالى في أول الإسلام في مكة، وأنزل في المدينة في صفتها آية قرآنية واحدة.

هذه العبادة قد يشق الإتيان بها في فصل الشتاء وعند المرض؛ فلذلك ضاعف الشارع الحكيم الثوابَ لمن أحسنها وأكملها عند وجود المشقة فيها.

هذه العبادة من أتى بها وأتقنها سَمتْ روحُه، وأشرقتْ نفسه، وانشرح صدره، وحسن وجهه، ولان جسده، وامتلأ نشاطًا وتألقًا وحيوية.

فلعلكم قد عرفتموها، وبهذه الأوصاف قد علمتموها.

إنها عبادة الوضوء، الذي اختير له هذا الاسم الجميل؛ لما يصبغ صاحبه بصبغة الوضاءة والجمال الظاهر والباطن.

لهذا فإن حديثنا اليوم -بعون الله تعالى- عن عبادة الوضوء لبيان آدابها وأحكامها؛ لعظيم حاجة كل مسلم إلى معرفة ذلك، ولجهل بعض الناس ما يتعلق بتلك العبادة من معلومات وكيفية صحيحة.

عباد الله، إن للوضوء أهمية كبيرة وفضلاً عظيمًا في الإسلام؛ **ومما يدل على ذلك:**

أولاً: أن الله تعالى شرعه في مكة قبل الهجرة، وقد كان رسول الله يصلي قبل فرض الصلوات الخمس قطعًا، ولم يصل قط إلا بوضوء[١].

ثانيًا: أن الوضوء هو مفتاح الصلاة، وشرط من شروط صحتها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مفتاح الصلاة الوضوء)[٢]. **وقال** عليه الصلاة والسلام: (لا

(١) شرح النووي على مسلم (٣/١٠٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٣/٣١٧).

(٢) رواه أحمد، وهو حسن، وفي رواية عنده وعند بعض أهل السنن: (مفتاح الصلاة الطُهور).

يقبل الله صلاة بغير طُهور)[١].

ثالثًا: أن الوضوء عبادة شرعت -وجوبًا أو استحبابًا- لعبادات وأحوال أخرى؛ فشُرِع الوضوء للصلاة، وللطواف حول البيت الحرام، واستُحب لحملِ الجنازة، وعقبَ المباشرة بين الزوجين لمن أراد العود أو النوم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله أباح فيه الكلام)[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من غسل ميتًا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ)[٣].

أيها الأحباب الكرام، إنكم لو تأملتم في عبادة الوضوء لوجدتم أن لها فوائد عديدة، وآثاراً حسنة كثيرة، فالوضوء عملية تنظيف يومية للقلوب وللأرواح والنفوس، فبه يصفو القلب، وتسمو الروح، وتُصقل النفس.

وهذا تنظيف معنوي، وأما التنظيف الحسي فإن الوضوء يطهر أعضاء البدن الظاهرة، فيزيل عنها الأوساخ والجراثيم. وقد ثبت في الطب أن أجزاء الجسم " تتعرض طوال اليوم لعدد مهول من الميكروبات تعد بالملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء، وهي دائمًا في حالة هجوم على الجسم الإنساني من خلال الجلد في المناطق المكشوفة منه، وعند الوضوء تفاجأ هذه الميكروبات بحالة كسح شاملة لها من فوق سطح الجلد، خاصة مع التدليك الجيد وإسباغ الوضوء، وهو هدي الرسول صلى الله

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وهو صحيح.

(٣) رواه أبو داود وغيره، وهو صحيح.

عليه وسلم، وبذلك لا يبقى بعد الوضوء أي أثر من أدران أو جراثيم على الجسم، إلا ما شاء الله"[(١)].

ومن فوائد الوضوء: ما فيه من الثواب الجزيل الذي أخبر عنه رسول الله، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب)[(٢)].

فيا خسارة الذين لا يقربون الصلاة حينما فوتوا على أنفسهم فوائد الوضوء الروحية والنفسية والبدنية، وحُرِموا أجوره العظيمة الأخروية!

أيها المسلمون، إذا أراد المسلم أن يتوضأ فعليه أن يتوضأ في مكان ليس فيه نجاسة؛ خشية من ارتداد النجاسة على ثياب المتوضأ أو بدنه، فيقول: بسم الله، ويغسل كفيه، ثم يتمضمض ويستنشق ويستنثر بأن يدخل الماء إلى فمه وأنفه ثم يخرجه منهما، ويبالغ في ذلك إلا أن يكون صائمًا.

ثم يغسل وجهه معمِّمًا إياه بالماء من شحمة الأذن اليمنى إلى شحمة الأذن اليسرى، ومن أعلى الجبهة إلى أسفل الذقن، ومن كان ذا لحية كثة فيخللها، ومن كانت لحيته خفيفة فيغسل ظاهرها.

---

(١) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص: ٤٠). وينظر: كنوز في الرقية والطب النبوي (ص: ٤٤٠).

(٢) رواه مسلم.

ثم يغسل يديه إلى المرفقين، ويبدأ بغسل اليد اليمنى ثم اليسرى، ومن كان على أظافره شمع أو شحم أو دهن أو دهان، أو على أظافر المرأة طلاء الزينة، فعلى الجميع إزالة ذلك؛ حتى يصل الماء إلى العضو الواجب غسله.

ثم يمسح المتوضأ بيديه رأسه، فيقبل بهما ويدبر، فيعمم رأسه بالمسح مرة واحدة، ومن كان على رأسه عمامة ساترة وثابتة جاز له المسح عليها، أو مسحها مع مسح الناصية.

ثم يأخذ المتوضأ ماء جديداً فيمسح أذنيه ظاهرهما بإبهاميه، وباطنهما بسبابتيه.

ثم يغسل بعد ذلك رجليه إلى كعبيه، ويستحب إيصال الماء إلى ساقيه، ويبدأ بالرجل اليمنى قبل اليسرى، وليحرص على تخليل الأصابع؛ حتى يصل الماء إلى كل موضع في القدمين.

ومن كان على قدميه ساتر طاهر من جوربٍ أو خُفٍّ أو (شُرَّاب) ولبسه على طهارة فيستحب له أن لا ينزعه، بل يمسح على ظاهره كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يصلي به، ويجوز للمقيم أن يمسح يومًا وليلة على هذه السواتر، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها من غير أن ينزعها إلا إذا حصل حدث أكبر.

والواجب في أعضاء الوضوء -ما عدا الرأس- الغسل مرة واحدة، ومن غسلها مرتين أو ثلاثًا فمستحب ذلك، ولا يجوز تجاوز ما يغسل إلى أربع مرات، ولا الزيادة على المرة الواحدة في مسح الرأس.

ويجب أن يكون الوضوء في هذه الأعضاء مرتبًا على الكيفية السابقة -ابتداء من غسل الوجه واختتامًا بغسل الرجلين-؛ لأن رسول الله توضأ كذلك، ولأن الله تعالى

ذكر ذلك الترتيب في آية الوضوء فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة:٦].

فإذا أكمل المسلم الوضوء دعا بهذا الدعاء الوارد عن رسول الله: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللّهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين)[١].

أو: (سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)[٢].

فإذا تم وضوء المتوضئ على هذه الكيفية فقد أتى بشروط صحة الوضوء وفروضه ومستحباته، وصح له أن يصلي بذلك الوضوء ما شاء من الصلوات، ولو الصلوات الخمس كلها، إلا إذا حصل منه مبطل من مبطلات الوضوء.

ولا يَنقض ذلك الوضوءَ إلا خروجُ شيء من أحد السبيلين، أو مسُّهما أو مسُّ أحدهما، أو نومُ المتوضئ نومًا ثقيلاً، أو الإتيانُ بشيء يوجب الغسل.

وأما لمس الرجل المرأة فإنه لا ينقض الوضوء إلا إذا خرج من قُبُل المتوضئ شيء من أثر ذلك اللمس.

ويستحب للمسلم الآتي المسجد للصلاة أن يتوضأ في بيته ثم يخرج إلى الصلاة؛ لما في ذلك من الأجر العظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صلاة الرجل في

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) رواه النسائي والحاكم، وهو صحيح.

جماعة تضعّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رُفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يُحِدث، اللّهم صلِّ عليه اللّهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة)[(١)].

أيها الفضلاء، هناك أخطاء يقع فيها بعض المتوضئين، بعضها تقصير في كمال الوضوء أو صحته، وبعضها لم يرد عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وبعضها مخالف لهديه عليه الصلاة والسلام في الوضوء.

فمن تلك الأخطاء: ترك تعميم أعضاء الوضوء بالماء، مما يؤدي إلى ترك بعض المواضع لم يصبها الماء في تلك الأعضاء، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ارجع فأحسن وضوءك) فرجع، ثم صلى[(٢)].

وعند أحمد وأبي داود بسند صحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء والصلاة.

ومما قد يغفل عنه بعض المتوضئين: عدم تعميم الوجه بالماء بأن تترك بعض جوانبه مما يلي الأذنين أو مقدم شعر الرأس، وعدم إيصال الماء عند غسل اليدين إلى المرافقين، وترك بعض المواضع على الكعبين بدون غسل، فعن عبدالله بن عمرو قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

رجعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر فتوضأوا وهم عِجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء)[(١)].

ومن أخطاء بعض المتوضئين: الجهرُ بالنية، والدعاءُ أثناء غسل أعضاء الوضوء، ومسحُ الرقبة، وهذا كله لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وضوئه.

ومن أخطاء بعض المتوضئين: الإسراف في استعمال الماء في الوضوء، خاصة إذا كان الوضوء في المساجد، وهذا عمل منهي عنه، وهذا عمل لم يعهده السلف السابقون، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطَّهور)[(٢)].

و" **الاعتداء في الطهور:** أن يسرف في الماء، بأن يكثر صَبَّه، أو يزيد في الأعداد"(٣).

فنسأل الله تعالى أن يبصِّرنا بديننا، وأن يصلح عباداتنا وأعمالنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) متفق عليه. واللفظ لمسلم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود، وهو حسن.

(٣) شرح أبي داود للعيني (١/٢٦٦).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **أما بعد:**

أيها المسلمون، هناك مسائل في الوضوء يسأل بعض الناس عنها، فيقول: كيف يتوضأ من على بعض أعضاء وضوئه جبيرة أو عصابة طبية؟

وماذا يفعل من به سلس في البول إذا أراد الوضوء؟

وكيف يصنع من لديه شك في صحة وُضوئه؟

وماذا يفعل من يتضرر باستعمال الماء، أو يفقد الماء الذي يتوضأ به؟

وماذا يفعل المريض الذي يعجز عن الوضوء؟

وهل الرعاف ينقض الوضوءَ أو لا؟

فنقول: من كان على بعض أعضاء وضوئه جبيرة أو رباط طبي فعليه أن يتوضأ في الأعضاء السليمة ويمسح فوق العضو أو الموضع الذي عليه الضماد ويصلي، فإن كان المسح يضر العضو السقيم ترك ذلك، وتوضأ في بقية الأعضاء(١).

وأما من بُلي بسلس بول وقد استشفى فلم يشفَ فعليه إذا حضرت الصلاة أن يغسل المحل الذي أصابه البول -من بدنه أو ثيابه- غسلاً جيداً، ثم يعصب على فرجه بخرقة أو نحوها مما يمنع تسرب البول، ثم يتوضأ للصلاة، ولا يضره ما خرج من البول بعد ذلك؛ إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها(٢).

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (١/ ٢٤٥).

(٢) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/ ٢٣١٨).

وأما من شك في حصول ناقض بعد تمام الوضوء المتيقن فعليه أن يطرح الشك، ولا يعيد الوضوء إلا إذا حصل منه يقين بالحدث؛ فقد جاء في الصحيحين أنه شُكي النبي صلى الله عليه وسلم الرجل يُخَيَّل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة؟ قال: (لا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا).

أما إذا صار الشك إلى عادة في كل وضوء فهو وسوسة تحتاج إلى طبيب نفساني؟

وأما من كان به مرض يضره الوضوء، أو كان في مكان لم يجد فيه ماء وقد بحث عنه ما أمكنه فلم يظفر به؛ فإن الله قد شرع له التيمم، وهو أن يضرب بكفيه على تراب ذي غبار ضربةً واحدة فيمسح وجهه وكفيه مرة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٤٣].

وأما من كان عاجزاً عن الوضوء بنفسه لكبره أو لمرض به أو لإصابة في يديه فليستعن بغيره ليوضئه[(١)].

أما الرعاف فالراجح من أقوال أهل العلم: أنه لا يبطل الوضوء، فمن أصابه ذلك فعليه أن يسارع إلى قطعه ويصلي بوضوئه، ولا يلزمه إعادة الوضوء[(٢)].

فيا عباد الله، لقد عرفنا أهمية الوضوء وفوائده، فعلينا أن نحافظ على هذه العبادة على الكيفية التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن نحرص على إتقانه خاصة في أيام البرد التي نعيشها هذه الأيام؛ لما في ذلك من الأجر، قال رسول الله صلى الله

---

(١) المغني (١/١٣٨).

(٢) فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة (٢/٤٣٧٧).

عليه وسلم: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط)[١].

وعلينا أن نعلِّم أهالينا وأولادنا ومن نعرفهم الصفةَ الصحيحة للوضوء، وأن نسأل أهل العلم عما نجهل من هذه العبادة؛ لكي نعبد الله تعالى على علم وبصيرة، وحتى لا تكون في وضوئنا وسائر عباداتنا مخالفاتٌ شرعية.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية....

(١) رواه مسلم.

المزاحُ المشروع والمزاح الممنوع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن النفس البشرية في أكثر مطالب الحياة وأعمالها تعيش في قالب الجِدّ، وتتحرك في ذلك الإطار حركةَ اجتهاد وعزم؛ حتى تنجز مهماتها، وتنال أسباب صلاح حياتها.

ولكنها في تلك الدائرة المُتَّسِمة بالجِد قد تصاب بالملل والغم، والتعب والسأم، وكدِّ البال وإرهاق الخاطر. يضاف إلى ذلك أن الحياة الدنيا فيها كثير من المنغصات، والأحوال المزعجات، والمرء إذا استمر على تلك الحال استولى عليه الإعياء، وملَكه

العبوس، وضاقت به النفس التي بين جنبيه، فضلاً عمن يعاشره ويجالسه.

لذلك كان لا بدّ لإذهاب العناء وتجديد النشاط وإراحة النفس من أحوال يصير الإنسان بها إلى راحة وانشراح، وانبساط وانفساح، ومن تلك الأحوال الموصلة إلى ذلك: المزاح، الذي هو: " شعبة من شعب السهولة، وفرع من فروع الطلاقة. وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة، وأمرنا بإفشاء السلام، والبِشْر عند الملاقاة، وأمرنا بالتوادد والتصافح والتهادي "(١).

والمزاح إذا بقي في الإطار المشروع فإنه " مندوب إليه؛ لما فِيهِ من ترويح الْقُلُوب، والاستئناس الْمَطْلُوب "(٢)، وتصفية البال المكدَّرِ بدوام الجِدِّ، قال الشاعر:

أُروِّحُ الْقلبَ بِبَعْض الهزْلِ ... تجاهلاً منّي بِغَيْر جهلِ
أَمزحُ فِيهِ مزْحَ أَهلِ الفَضلِ ... والمزحُ أَحياناً جِلاءُ العقلِ(٣)

"ومن فضائل المزح: أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال، وأن الجِد لا يكون إلا من فضل الحاجة، والمزح لا يكون إلا من فضل الغنى، وأن الجِد نَصَب، والمزح جَمَام، والجد مبغضة والمزح محبة.. والجد مؤلم وربما عرّضك لأشد منه، والمزح ملذ، وربما عرضك لألذ منه "(٤).

قال علي رضي الله عنه: لا بأس بالفكاهة يخرج منها الرجل عن جِد العبوس(١)،

---

(١) الرسائل للجاحظ (ص: ١٨٢).

(٢) المراح في المزاح، للغزي (ص: ٣٥).

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني (ص: ٢٨٩).

(٤) الرسائل للجاحظ (ص: ١٨١).

العبوس[١]، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أُكثر عليه في مسائل القرآن والحديث يقول: أحمضوا. يريد: خذوا في الشعر وأخبار العرب، وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمانُ في قلوبهم مثل الجبال الرواسي[٢].

وقيل للخليل بن أَحْمد: إِنَّك تمازح النَّاس! فَقَالَ: النَّاس فِي سجن مَا لم يتمازحوا[٣].

قال الشاعر:

أَفِدْ طَبْعَك الْمَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً ... يُجَمُّ وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنْ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إذَا أَعْطَيْتَهُ الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ ... بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنْ الْمِلْحِ[٤]

عباد الله، إن الله تعالى قد جعل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قدوةً لنا، نتأسى به في أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

فرغمَ ما كان يحيط بحياة رسول الله من كثرة الجد، وعبء المهمات النبوية والدعوية، وعظم ما يلاقيه من الصعوبات الحياتية؛ إلا أنَّا وجدنا صوراً ظهر فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يمزح مع أهله، ومع أصحابه؛ ليدخل السرور عليهم، وينشر الأُنس في نفوسهم، ويرسم الابتسامة على شِفاههم؛ ولذلك نجد

(١) التذكرة الحمدونية (٣/٢٠١).
(٢) التذكرة الحمدونية (٣/٢٠٢).
(٣) المراح في المزاح (ص: ٩٤).
(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ٣١١).

المحدِّثين الذين ألَّفوا في جمعِ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرون عدة أحاديث بدا من رسول الله فيها مداعبته وملاطفته وانبساطه إلى الناس؛ تودداً إليهم، وإيناسًا لهم(١).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً استحمل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (إني حاملك على ولد الناقة!) فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة!؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهل تلد الإبلَ إلا النُّوق؟)(٢).

والمعنى: أن الرجل جاء يسأل رسولَ الله ناقة يركبها، فقال رسول الله: (إني حاملك على ولد الناقة) فظن الرجل أن المقصود الصغير من الإبل وهو لا يصلح للركوب، لكن الرسول داعبه فبيّن له أن الإبل صغيرها وكبيرها ولدتها النوق، وهذا من حسن مزاح رسول الله وصدقه فيه.

وعن أنس أيضًا أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام كان يهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهدية فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن زاهراً بادِينا ونحن حاضروه) قال: فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، مَن هذا؟ فالتفتَ إليه فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يشتري هذا العبد)؟ فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً قال: (لكنك عند الله لستَ بكاسد) أو

(١) ينظر: باب الانبساط إلى الناس، صحيح البخاري، باب المزاح، سنن ابن ماجه، باب المزاح والضحك، صحيح ابن حبان، باب في المزاح، سنن الدارمي، باب ما جاء في المزاح، سنن الترمذي، باب مَا جَاءَ فِي الْمِزَاحِ، سنن أبي داود، باب المزاح، الأدب المفرد.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

قال صلى الله عليه وسلم: (بل أنت عند الله غالٍ)[١].

وعن صهيب قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وهو يأكل تمراً، فأقبلت آكل التمر وبعيني رمَد فقال: (أتأكل التمرَ وبك رمد)؟ فقلت: إنما آكل على شقي الصحيح ليس به رمد، قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]. وقال له رسول الله هذا من باب المباسطة والمزاح.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ)[٣]. قال العلماء: " كان مزح النبي صلى الله عليه وسلم مزحاً لا يدخله الكذب والتزيُّد، وكلُّ إنسان له أُذنان، فهو صادق في وصفه إياه بذلك "[٤].

إن الملاحِظ في هذه الأمثلة من مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أن مزاحه كان قليلاً لا يخرج عن حد الصدق، والمزاحِ المشروعِ الذي يُحمد من صاحبه، ويُفرَح بصدوره من قِبَله. فكان صلى الله عليه وسلم يمزح، ولكنه لا يجاوز الحق، فعن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا! قال: (إني لا أقول إلا حقًا)[٥].

أيها المسلمون، ليس كل إنسان يجمُل بالعاقل أن يمازحه، وينبسط إليه؛ فالطبائع تختلف، وقلة المؤالفة لا تقبل الدعابة من أول وهلة، وحينما كان المزاح المشروع مما يؤنس النفوس ويدخل عليها السرور فمن أولى الناس بمزاح الإنسان: الزوجة؛

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي، وهو صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم، وهو حسن.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٤) معالم السنن (٤/ ١٣٥).

(٥) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

فالزوجة بحاجة إلى الملاطفة؛ لتدوم بينها وبين زوجها العشرة الطيبة، وتترسخ داخل نفسيهما جذور المحبة.

و"مزاح الرجل مع أهله وملاطفتهم بأنواع الملاطفة من شعار المرسلين، وأخلاق النبيين، وهو من المعاشرة بالمعروف، وكان صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)"[(١)]. وكان يسابقها أحيانًا.

"وكان الحجاج مع عتوه وطغيانه، وتمرده وشدة سلطانه، يمازح أزواجه ويرقِّص صبيانه. وقال له قائل: أيمازح الأمير أهله؟ قال: " والله إنْ تروني إلا شيطاناً؟! والله لربما رأيتني وإني لأقبِّل رجْل إحداهن! "[(٢)].

وممن يُمزَح معهم الأطفال؛ من أجل إيناسهم وإدخال السرور عليهم؛ فالأطفال الصغار بحاجة إلى قسط من مزاح لطيف، ومداعبة لينة، وانبساط كريم، وهذا ما كان يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنْ كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: (يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير[(٣)]؟)[(٤)].

وفي رواية قال أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير كان فطيمًا، فكان إذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه قال: (أبا عمير، ما فعل النُّغَير؟) قال: فكان يلعب به[(٥)]. وسبب سؤال رسول الله

---

(١) المراح في المزاح (ص: ٩٤).

(٢) الرسائل للجاحظ (ص: ١٨٢).

(٣) **والنغير**: تصغير نُغَر، وهو طائر كالعصفور والبلبل.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

عليه الصلاة والسلام لهذا الطفل عن عصفوره: ما جاء في رواية أخرى عن أنس قال: زارنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: يا أم سليم، ما شأني أرى أبا عمير ابنك خاثر النفس؟ فقالت: يا نبي الله، ماتت صَعْوة له(١) كان يلعب بها. قال: فجعل النبي يمسح برأسه ويقول: (يا أبا عمير، ما فعل النغير)(٢)(٣).

وكذلك أيضًا ممن يندب للمرء المزحُ معهم: الأصدقاء والزملاء والأقارب والمعارف؛ فإن ذلك مما يعمق المودة، ويقرب النفوس، ويلقي على الجالسين ظِلال السعادة والراحة، بشرط أن لا يخرج ذلك المزاح عن الحد المشروع.

أيها الأحباب الكرام، إن المزاح الذي تُرجى منه الفوائد السابقة، ويوسم بالفضائل الماضية هو المزاح المشروع، الذي توفرت فيه ضوابط تحفظ له البقاء في الإطار المحمود، **فمن تلك الضوابط:**

أولاً: أن يكون عَرَضًا، وليس حِرفة وصفةً لازمة يُعرف بها الإنسان، ويستمر عليها.

ثانيًا: أن يُختار له الزمانُ والمكان المناسبان، فليس كل وقت يصلح للمزاح، ولا كل مكان يصح أن يمزح فيه.

ثالثًا: أن يكون مع من يحب ذلك، أما من يكرهه فينبغي تجنيبه إياه.

---

(١) **الصَّعْوُ:** العصفور الصغير، والأنثى صَعْوَةٌ.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٣) وذكر ابن اسعد أن هذا الطفل الرضيع (أبا عمير) مرض بعد مدة ثم مات، وهو المذكور في قصة أم سليم وحسن صبرها على موته وتجملها لزوجها، والتي قال لها رسول الله ولزوجها أبي طلحة: (بارك الله لكما في ليلتكما) في قصة طويلة.

رابعًا: أن يبقى في دائرة الحق والصدق، فلا يخرج إلى كذب ولا باطل.

خامسًا: أن لا يدخل إلى دائرة الحرام؛ كالمزاح في أمور الدين؛ فأحكام الدين وشرائعه ليست مجالاً للمزح. ومن الحرام: أن يكون في المزاح جرحٌ للمشاعر، وإيذاء للخلق، وهتك للحرمات والأسرار، والخصوصيات.

سادسًا: أن لا يكون كثيراً، بل بقدر الحاجة، فكثرته تؤدي إلى مفاسد كثيرة.

سابعًا: أن لا يشغل عن طاعة الله تعالى.

وصدق من قال:

امزحْ بمقدارِ الطلاقةِ واجتنبْ ... مزحاً تُضافُ به إلى سوءِ الأدبْ

لا تُغضِبنَّ أخاً إذا مازحتَهُ ... إن المزاح على مقدِّمة الغضبْ

وقول الآخر:

مازِحْ صديقَك ما أحبَّ مزاحا ... وتوقَّ منه في المزاحِ جِماحا

فلربما مزحَ الصديقُ بمَزْحةٍ ... كانت لبدءِ عداوةٍ مفتاحا[1]

نسأل الله تعالى أن يرزقنا في جميع أحوالنا ما يحب من التوسط والاقتصاد، ويجنبنا ما يبغضه من الإفراط والتفريط.

أقول قولي هذا، وأستغفر اللهَ لي ولكم.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب(٤/ ٧١).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن الناس لا يستوون في مزاحهم، ولا يتفقون في مداعبتهم، بل منهم من يسيطر عليه الهوى، والبعدُ عن تحكيم أقواله وأفعاله بشرع الله، فيجمح به ذلك الشططُ عن المزاح المشروع إلى المزاح الممنوع.

وذلك أن هناك صوراً من المزاح تخرج عما أباح الله تعالى الممازحةَ فيها، فتصير محرَّمة على كل حال في الجد والهزل.

فمن صور المزاح الممنوع:

ما فيه تنقص وطعن واستهزاء بدين الله تعالى. فليحذر المسلم أن يتسوّر مقدسات شرع الله بقصد الهزل والمزح، فذلك الحمى الشريف لا يُعذر من ازدراه ولو كان مازحًا؛ فمن فعل ذلك فإن العاقبة وخيمة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)(١).

وتأملوا معي هذه القصة لتعلموا مدى خطورة هذه الصورة من المزاح: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغبَ بطونًا ولا أكذب أَلسنة ولا أجبن عند اللقاء [يريد رسول الله

(١) متفق عليه.

وأصحابه]، فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونزل القرآن، قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾(١).

وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

ومن صور المزاح الممنوع: ما فيه عدوان على مسلم؛ سخرية كان أم غيبة أم نميمة أم قذفاً أم غير ذلك، فالمزاح لا يحل لصاحبه أن يطعن في عرض أخيه.

ومن صور المزاح الممنوع: ما فيه تخويف لمسلم؛ كالإشارة إليه بسلاح أو بما يقتل أو يجرح، وكأخذ متاعه من غير علمه. ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعضهم مازحًا بأن يهاتف زوجة قريبه أو صاحبه فيخبرها بأن زوجها قد تزوج عليها. فيفزعها بذلك.

فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا)(٢).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم والطبري، وإسناده صحيح.

(٢) رواه أبو داود، وهو صحيح.

وقال رسول الله: (لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبًا ولا جاداً)[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يُشرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار)[(٢)].

أقول: كم من إنسان يقع في إضرار أخيه المسلم بالمزاح: في نفسه أو ماله أو عرضه-ثم يقول في مشاعر باردة: إنما كنت أمزح معك!! وصدق بعضُ السابقين يوم أن قال: " يصكُّ أحدكُم صَاحبه بأشدَّ من الجندل، ويُنشقه أحرقَ من الْخَرْدَل، ويُفرغ عَلَيْهِ أحرَّ من الْمرجل، ثمَّ يَقُول: إِنَّمَا كنت أمازحك!! "[(٣)].

ومن صور المزاح الممنوع: ما كان فيه كذب؛ فإن الكذب محرم في الجد والهزل، ومن أمثلة هذا المزاح المحظور ما يسمى بطُرَف المحششين، وسَوْق الطرائف المكذوبة عن أشخاص أو مناطق أو بيئات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويل للذي يحدِّث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له)[(٤)]. وقال صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا)[(٥)].

ومن صور المزاح الممنوع: عقدُ بعض الأحكام الشرعية أو حلُّها؛ مثل: النكاح والطلاق والعتق واليمين والنذر، وغير ذلك، فهذه الأحكام جدهن جد، وهزلن جد؛ فلهذا ينعقد النكاح والعتق واليمين والنذر ولو مزاحًا، وتنحل العقدة الزوجية

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٢) متفق عليه.

(٣) البصائر والذخائر(٥/٣١).

(٤) رواه أبو داود والترمذي، وهو حسن.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وهو حسن.

بالطلاق ولو كان هزلاً.

ومن صور المزاح الممنوع: ما فيه إفراط ومداومة؛ فالقدر المحمود من المزاح ما خلا من الإكثار والمداومة عليه.

عباد الله، إن المزاح إذا تجاوز الحدود المشروعة أدى إلى أضرار فادحة؛ عاجلة وآجلة، تضر المازح وغيره، ولا ينبغي للعاقل أن يقدم على عمل تكون عليه آثار سيئة منه.

فمن أضرار المزاح الممنوع:

كسب الإثم، وقسوة القلب، وإشعال فتيل العدوات، وقدح زناد البغضاء والحقد، وإنشاء التدابر والقطيعة، وإذهاب الوقار والهيبة، وتجريئ السفهاء، وتحزين الأصدقاء.

ولما كان المزاح عند مجاوز حده يورث هذه الآثار السيئة وغيرها؛ حذَّر منه العقلاء والحكماء، فعن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر بن الخطاب: يا أحنف، مَن كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن مزح استُخفَّ به، وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا تمازح الدنيء فيجترئ عليك(١).

وقال عمر بن عبد العزيز: إياك والمزاح؛ فإنه يجرُّ القبيحة، ويورث الضغينة[٢].

وقال الشاعر:

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١/٤٠٤).

(٢) الأمثال لابن سلام (ص: ١٢).

فإيَّـــاكَ إيَّـــاك المــــزاحَ فإنَّـــهُ يُجري عليك الطفلَ والرَّجُلَ النَّذْلاْ
ويُــذهبُ مــاء الوجــه بعــد بهائــه ويـورثُ بعـد العـزّ صـاحبَه الـذُّلَّاْ[(١)]

فيا عباد الله، ليكن شرع الله تعالى هو موجِّهَنا في الحياة كلها؛ فبه نفعل أو نذر؛ فلنمزحْ مع أقاربنا وأحبابنا، ولكن في الجوانب المشروعة، وفي الوقت والمكان المناسبين، ولنبتعد عن المزاح المحظور في جميع الأمور، فلا مزاح في ثوابت الدين وشعائره، ولا مزاحَ يؤدي إلى ضرر يصيب إنسانًا أو حيوانًا، ولا مزاح يكون هو سمتنا اللازمة، وعادتنا الدائمة.

وفقنا الله وإياكم إلى سبيل الهدى، وجنبنا وإياكم سبل الأذى والردى.

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

---

(١) المستطرف (٢/٥٠٣).

آداب قيادة السيارات والأحكام المترتبة على حوادثها(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن شريعة الإسلام شريعة عادلة، وهي بأحكامها وآدابها تامة شاملة؛ فلقد حفظت حقوقَ الناس خاصَّها وعامها، وراعت حاجاتهم، وعُنيت بمصالحهم، وذكرتْ من النصوص التفصيلية ما تناول أشياء كثيرة، ومن النصوص الإجمالية ما

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٤١/٥/٢٩هـ، ٢٠٢٠/١/٢٤م.

يُرجَع إلى عمومها عند تجدد أحوال الحياة الإنسانية، وتطور ألوان المعايش البشرية، وفتحتِ المجال للإنسان ليُعمل عقلَه في سنِّ الوسائل الإدارية التي تنظم حياته بما لا يخالف الشريعة الإسلامية، بل ينطوي تحت مبادئها العامة، وكلياتها الإجمالية التي جاءت للحفاظ على الدين والنفس والمال والعقل والعرض والنسب.

ألا وإن من تلك الحقوق العامة التي جاءت الشريعة المحمدية لبيانها: حق الطريق؛ فالطريق مصلحة لعموم الناس، ينتفعون بها، ويذهبون عبرها إلى مصالحهم، ويرجعون إلى مساكنهم.

أيها المسلمون، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرُ حقوق عديدة للطريق، وهي حقوق يحفظ التمسكُ بها نفوسَ الناس وأعراضهم وأموالهم، ويؤدي القيامُ بها إلى إدخال السرور على المارَّة، وقضاء حوائجهم، ورفع الضرر عنهم، وتيسير شؤونهم، وتعميق الروابط الحسنة بينهم.

فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والجلوسَ في الطرقات) قالوا: يا رسول الله، ما لنا بُدٌّ(١) من مجالسنا نتحدث فيها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه) قالوا: وما حقه؟، قال: (غض البصر، وكفُّ الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)(٢).

وفي رواية لأحمد والنسائي وأبي يعلى وابن أبي شيبة: (وحسنُ الكلام)، وفي رواية

---

(١) أي: عِوَض.

(٢) رواه مسلم.

لأبي داود وابن حبان: (وإرشاد السبيل)، وعند أحمد والترمذي والبزار: (واهدُوا السبيل)، وعند أبي داود: (وَتَهْدُوا الضَّالَّ، وتعينوا الملهوف) وفي رواية لابن حبان: (وتشميت العاطسِ إذا حمد الله)، وعند أحمد والترمذي: (وأعينوا المظلوم)، وفي رواية للبزار: (وأعينوا على الحُمُولة).

فتلخص لنا من هذه الروايات من حقوق الطريق:

١-غض البصر. ٢-كف الأذى. ٣- رد السلام. ٤- الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ٥- حسن الكلام. ٦- إرشاد السبيل. ٧- هداية الضَّالّ. ٨- إعانة الملهوف. ٩-تشميت العاطس إذا حمد الله. ٠- إعانة المظلوم. ١١-الإعانة على الحمولة.

قال الإمام النووي رحمه الله: "هذا الحديث كثير الفوائد، وهو من الأحاديث الجامعة، وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يجتنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث، ويدخل في كف الأذى: اجتناب الغيبة، وظن السوء، واحتقار بعض المارين، وتضييق الطريق، وكذا إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارون أو يخافون منهم، ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك؛ لكونهم لا يجدون طريقًا إلا ذلك الموضع "(١).

وهناك حقوق للطريق غير هذه دلتْ عليها نصوص أخرى؛ كحفظ اللقطة واللقيط، وإماطة الأذى، وحسن الخلق، وغير ذلك.

فعلينا -معشر المسلمين-أن نمتثل هذه الآداب في قعودنا أو مرورنا في الطريق؛ حتى نحظى بالثواب، ونسلم من الإثم، وتصبح علاقتنا مع الناس علاقة حسنة قائمة

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/١٠٢).

على فعل الجميل وترك ما يضاده.

عباد الله، إن هذه الحقوق النبوية للطريق ترشدنا إلى رعاية حقوق الناس بإيصال الخير لهم، وكف الشر عنهم، سواء كان الإنسان قاعداً فيها أم ماشيًا عليها أم راكبًا.

ولقد كان الناس في العهد الماضي يركبون المراكب القديمة من الإبل والخيل والبغال والحمير، ثم منَّ الله تعالى -وله الحمد- على الناس بالمراكب الحديثة من سيارات وغيرها فأصبحت الحاجة ملحة إلحاحًا كبيراً إلى العناية بشؤون الطريق، وتقنين الأنظمة الإدارية التي تُعنى بسلامة الراكبين والماشين على تلك الطرق.

فقامت الحكومات بتعبيد الطرق وإصلاحها، وسنِّ أنظمة المرور وقيادةِ المركبات الحديثة، وتقنين العقوبات الزاجرة للمتهاونين بسلامة أرواح الناس وممتلكاتهم.

وهذه الأمور التي تحفظ نفوس الناس وأموالهم ليس فيها مخالفة للشريعة الإسلامية، بل هي موافقة لها؛ لكونها تؤدي غاية من غايات مجيء الإسلام وهي الحفاظ على حق الحياة وحق الملك.

أيها المسلمون، إن على الإنسان أن يتجنب الجلوس في الطريق المخصصة لمرور السيارات، أو يمشي في تلك الطريق في وقت ليس مسموحًا له المرور فيه؛ لأنه إذا فعل فسيعرض نفسه وقائد السيارة للخطر والخسارة، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة:١٩٥].

وعليه أيضًا: أن لا يصنع في تلك الطريق شيئًا يؤذي المارين والراكبين والمركبات؛ من تضييق، أو أحجار أو نفايات، أو مخلفات بناء، أو غير ذلك مما يعطل ما يمر أو يعرقل من يمر على تلك الطريق العامة.

أيها الإخوة الفضلاء، إن هناك رعبًا كبيراً يجتاح حياة الناس كل يوم على المستوى العام، هذا الشيء المخيف يكلف الناس وفاة عددٍ غير قليل منهم، ويجرح عدداً أكبر ممن سلموا من الموت وقت الحوادث، ويكلفهم خسارات مالية كبيرة، ويُدخِل الأحزانَ والوحشة إلى البيوت؛ هذا الشيء هو حوادث السير.

فكم من حادث ذهبت ضحيتَه أسرةٌ كاملة، وأقارب وأصدقاء وجيران متعددون، وكم من حادث كلف السائق وأسرته من ديات الموتى، وتكاليف علاج المصابين ما كسبوه طوال حياتهم من مال عيني أو نقدي، وكم من حادث خلَّف عدداً من المعاقين والأرامل واليتامى والمدينين والبائسين.

وإننا لو تأملنا في الخسارة البشرية والمالية لتلك الحوادث سنجد أنها تفوق بعض الحروب المعاصرة!.

وإذا أردتم بعض الحقائق الرقمية للحوادث المرورية فاسمعوا هذه الأرقام عن بعض البلدان العربية:

ففي تلك البلد كان عدد الوفيات بسبب حوادث السيارات في سنة من السنوات: خمسة آلاف إنسان! هذا في سنة واحدة فكيف بخمس سنوات؟! وأما الخسائر المادية فتقدر بالمليارات.

إذاً الحرب الحقيقية المستمرة التي تهلك النسل والمادة هي حوادث السيارات.

ولو جئنا -معشر المسلمين- ننظر إلى أسباب وقوع تلك الحوادث المؤلمة-بعد قضاء الله وقدره-سنجد أن من بين تلك الأسباب: فقدان بعض السائقين لشروط القيادة وآدابها، ومخالفة الأنظمة المرورية وقوانين السير، وخلو بعض الطرق من

أسباب السلامة، ووجود بعض عراقيل السير الآمن في تلك الطرق.

أيها المسلمون، إن الحوادث المرورية خطر كبير من الأخطار التي تهدد الناس في طرقهم، ولتخفيف ذلك وتفادي كثير من الحوادث نسوق بعض آداب القيادة؛ ليأخذ بها السائقون عند قيادتهم لسيارتهم.

فمن تلك الآداب:

أولاً: أن لا يتحرك بمقود السيارة إلا من كان ذا معرفة كافية بالقيادة، أما من لم يكن لديه ذلك فعليه أن يستكمل مراحل التعليم في مكان بعيد عن حركة الناس؛ فأرواح الناس وأموالهم ليست مباحة لمتعلمي القيادة أو المتعالمين فيها.

ثانيًا: على السائق تفقد سيارته قبل السير بها، كما أن عليه النظر تحتها وما حولها فقد يوجد طفل أو حيوان فيصدمه أو يعلو عليه من غير أن يشعر.

ثالثًا: الالتزام باستعمال حزام الأمان أثناء القيادة.

رابعًا: استشعار عظمة النفس البشرية وعظمة مالها؛ فيدعو ذلك السائقَ إلى الانتباه الشديد أثناء سياقته؛ حتى لا يصيبها بأذى.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة:٣٢]. **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله)(١).

(١) متفق عليه.

خامسًا: ضبط السرعة على القدر المسموح به. والتقصير في هذا الأدب أوقع كثيراً من الحوادث والمصائب، فتجاوز السرعة المحددة في القيادة موصل إلى الهلاك والخسارة، وهو من أسرع الطرق إلى الموت، وأقرب السبل لتحمل الخسارات المالية الكثيرة، وهو ثمن كرسي الإعاقة والشلل لبعض السائقين!

سادسًا: اتباع الأنظمة المرورية وعدم مخالفتها؛ كنظام الإشارة، حتى ولو كان الطريق خاليًا، فصبرٌ قليل يوصلك إلى السلامة، ولحظةُ عجلة قد تعجل بالموت والإصابة.

وهذه الأنظمة التي تدير سير الطرق والمركبات عليها؛ نعمة عظيمة من نعم الله التي ألهمَ الإنسانَ إلى اختراعها، ليسلِّم الإنسان باتباعها نفسه ويسلِّم غيره.

سابعًا: البعد عن الانشغال بشيء يلهي السائق عن القيادة؛ ككثرة استعمال الجوال، وصوت المسجل المرتفع، والمزاح بين السائق والراكب أو بينه وبين سائق آخر.

ثامنًا: ترك قيادة السيارة في حال النعاس أو السهر الطويل، وأشد من ذلك عند تناول مادة مسكرة، والعياذ بالله؛ فكم من حادث أوصل إليه سهرُ السائق أو نعاسُه، أو ذهاب عقله بما حرم الله تعالى.

تاسعًا: اختيار المكان المناسب لإيقاف السيارة – فالطريق ملك للجميع –، واستعمالُ الإشارات الدالة على الوقوف لتنبيه السائقين اللاحقين على الطريق نفسه؛ حتى لا يحصل تصادم.

عاشراً: عدم تسليم مفتاح السيارة لصغار السن وصغار العقل؛ الذين إذا أخذوا

في القيادة أو صعدوا على السيارة نسوا عواقب الأخطاء القيادية، واستبدَّ بهم الطيش فلا يشعرون معه بالناس الآخرين وممتلكاتهم.

أيها الأحباب الكرام، تلك الآداب السابقة آداب مهنية في القيادة، وهناك آداب أخلاقية ينبغي لسائق السيارة أن يلتزم بها.

ومن تلك الآداب الأخلاقية: مشي السائق بسيارته بتواضع بعيد عن الكبر والعُجب والخيلاء، يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان:٦٣]، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء:٣٧].

ومن الآداب الخُلقية أيضًا: البعد عن ترويع مسلم بإسراع السيارة أو صوت منبهها، أو إيقافِها وقوفًا مباغتًا بجوار إنسان من أجل إفزاعه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلما)(١)، **وقال** صلى الله عليه وسلم: (لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار)(٢). والسيارة مما يقتل، وكم قد حصلت من حوادث بسبب التقصير في هذا الأدب.

ومن الآداب الأخلاقية كذلك: البعد عن رمي أكياس الأطعمة، أو علب الأشربة من نافذة السيارة إلى الطريق أو حوافها، بل الصواب أن ترمى إلى مكانها المخصص لها؛ حفاظًا على البيئة، ومراعاة لمشاعر الناس.

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

ومن الآداب الأخلاقية للسائقين أيضًا: إلقاء السلام على الناس مصحوبًا بالابتسام والاحترام، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد)(١).

ومن الآداب في القيادة: التحلي بالصفات الحسنة، وحسن التعامل مع الناس، ويتجلى ذلك حينما يحصل حادث، فمن فقدَ الخُلُقَ الحسن فسينزل من سيارته وقد لبس نيرانَ الغضب على وجهه، ورمى من شرره بكلمات نابية، وربما زاد الأمر فقام بالعراك مع صاحب السيارة الأخرى! وأما ذو الخلق الحسن فسينزل ليصافح صاحب السيارة الأخرى وينظر كيف وقع الخطأ ويتحمل -بأدب ودماثة خُلق- نتيجةَ خطئه إن كان الخطأ منه، وإن كان الخطأ من صاحبه طالبه بإصلاح خطئه مطالبة حسنة.

فما أحوج الإنسان-يا عباد الله- إلى تعلم الأخلاق الحسنة قبل أن يمسك مقود السيارة ويسير بها، فكما قالوا: التربية قبل التعليم، فكذلك نقول: الخلق الجميل قبل القيادة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه.

---

(١) رواه البزار وابن حبان في صحيحه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن الناظر في حوادث السيارات يجد أن لها عواقب عديدة، ونتائج مؤلمة شديدة، فهي تقع على النفوس والأموال.

ففي النفوس هناك وفيات وديات وكفارات، وإصابات وعلاجات، مع ما يصاحب ذلك من الأحزان والتوقف عن الأعمال، وفقدان الأحبة.

وفي الأموال هناك أضرار تلحق بالسيارات توجب نفقاتٍ ماليةً لإصلاحها، أو التعويض بسيارة أخرى.

وفي هذه النازلة المعاصرة تحدث الفقهاء عن الأحكام الشرعية المترتبة على حوادث السير، وربطوا هذا الحدث العصري بما يشابهه مما تكلم عن أحكامه الفقهاء في العهود الماضية، واستعملوا في تحديد آثار هذه النازلة القياسَ والقواعد الفقهية التي دلت عليها مجموعة من الأدلة النقلية المتفق عليها.

عباد الله، إن السائق إذا وقع منه الحادث على إنسان أو حيوان مملوك أو مال عام أو خاص؛ فإنه إذا كان قاصداً قتل ذلك الإنسان بسيارته فإنه يعد قاتلاً عمداً، وفي عدوانه على الحيوان والمال تحمُّلُ البدل أو القيمة.

أما إذا وقع منه الحادث بغير تعمد بل بقصور منه؛ كعدم تفقد السيارة قبل السير بها، أو وقع الحادث بخطأ محض ليس للسائق فيه يد-وهذا هو الغالب- فإن هناك

صوراً متعددة لها أحكامها المترتبة عليها، **فمن ذلك:**

١-إذا دفع شخصٌ آخر أمام سيارة فدهسته السيارة فجأةً فالضمان على الدافع، وليس على السائق دية أو علاج، ولا كفارة بصيام شهرين متتابعين لو مات المصدوم.

٢-إذا صُدم السائق من الخلف فصَدم سيارةً أمامه فالضامن هو من صدمه.

٣-إذا ساق الإنسان مع التزامه بقواعد المرور فقفز رجلٌ أمامه بغتة فإن كان الذي قفز بالقرب من سيارته بحيث لا يمكن السائق إيقاف السيارة فلا ضمان على السائق.

٤-إذا اشترك السائقان أو السائق والمصدوم في التسبب فعلى كل واحدٍ منهما بحسب ضرره، وإن استويا أو جهلت النسبة فعلى السواء.

٥-إذا اشترك السائقان في صدمةٍ لشخصٍ فمات فيطبق عليهما أحكام الاشتراك في القتل(١).

أيها الأحباب الكرام، إن حوادث السير قد تقع غالبًا من غير إرادة السائق ولا بتقصيره، ولكنها قضاء وقدر، ولأجل حفظ المسلم السائق وسيارته وسلامة الناس منها هناك بعض النصائح توصل إلى هذه الغاية بإذن الله، **فمن ذلك:**

أولاً: على السائق أن يؤدي ما كلفه الله به من أعمال الإيمان، وسيتولى الله دفع المصائب عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

---

(١) ينظر في هذه الصور: بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة (١٦/ ٣) وما بعدها، بتصرف.

ومن تلك الطاعات العظيمة: أداء صلاة الفجر في جماعة، وصلاة سنتها، وكذلك صلاة الضحى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله)[١]. أي: في أمانه وضمانه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (يا ابن آدم، صلِّ لي أربع ركعات أول النهار أَكْفِك آخرَه)[٢]. **والمراد:** " كفايته من الآفات والحوادث الضارة"[٣].

وقد اختلف أهل العلم في هذه الركعات الأربع: فقيل: هي صلاة الفجر فرضها ونفلها، وقيل: صلاة الضحى[٤].

ثانيًا: التوكل العظيم على الله أثناء القيادة، بتفويض الأمر كله إليه وتعليق القلب به، ومن توكل على الله صادقًا اطمئن واستقر، وكفاه الله ما يكره وأناله ما يحب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣]. أي: كافيه جميع ما أهمه من أموره.

ثالثًا: الإتيان بدعاء الركوب إن ركب، ودعاء السفر إن سافر، ففي الدعاءين استعانة بالله، ودعاء بالعصمة من المكاره.

فدعاء الركوب هو: بسم الله، الحمد لله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[الزخرف:١٣-١٤]. الحمد لله الحمد لله، الله أكبر الله أكبر، سبحانك اللّهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان وأحمد وأبو داود، وهو صحيح.

(٣) عون المعبود (٤/١١٨).

(٤) ينظر: زاد المعاد (١/٣٤٤)، الاستذكار (٢/٢٦٧)، عون المعبود (٤/١١٩)، نيل الأوطار (٣/٧٨).

الذنوب إلا أنت[١].

ودعاء السفر هو: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[الزخرف:١٣-١٤]. اللّٰهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللّٰهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بُعده، اللّٰهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللّٰهم إني أعوذ بك من وَعْثَاءِ السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل)[٢].

نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من كل شر.

هذا وصلوا على الرسول المختار...

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

التداوي بالرقية الشرعية(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، كتب على هذه الحياة الفانية أن تكون مشوبة بالأكدار، معمورة بوجود أنواع من الأذى والأضرار. ومن حِكم الله تعالى في هذا التقدير الحكيم: إرجاع العباد إلى ربهم حينما يحسون بالضعف والعجز، وجعلُ ما يؤلمهم ويحتسبونه عند الله

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في: ٢٢/٥/١٤٤١هـ، ١٧/١/٢٠٢٠م.

سببًا لرفع درجاتهم، وتكفير سيئاتهم، ومن الحكم أيضًا: تشويق الناس إلى جنة الله تعالى دار السلام التي يسلم فيها أهلها من كل كدر وأذى وضرر.

ألا وإن من تلك الأكدار والأضرار التي تصيب الإنسان في هذه الدنيا: الأمراض التي تعتريهم فتقعدهم عن النشاط والحركة والقوة والقدرة على القيام بأمور دينهم ومصالح دنياهم.

وقد اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن حثهم على التداوي والاستشفاء؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بحرام)[1].

وعن أسامة بن شريك قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أنتداوى؟ قال: (تداووا؛ فإن الله لم ينزل داء، إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)[2].

عباد الله، إننا إذا سقمنا بحثنا عن العلاج الذي تردّ به عافيتنا إلينا، ألا فاعلموا أن من الأدوية التي تُشفى بها الأسقام، وتخف بها الآلام: الرقية الشرعية، وهي قراءة سور من القرآن وآيات منه، وأدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك من الذكر والدعاء المشروعين.

والرقية الشرعية دواء نافع من الأمراض المعنوية، والأمراض الحسية، غير أن بعض الناس قل يقينهم بعلاج الرقية الشرعية، وقوي بالعلاج بالعقاقير الطبية التي

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد، وهو صحيح.

يجدها في المستشفيات والصيدليات.

حتى غدا بعضهم يكذِّب بأثر الرقية؛ لكونها أمراً طبيًا غير محسوس، وهذا غير صحيح؛ فالرقية المشروعة يشهد بأثرها الشرع والتاريخ والواقع، وهي نوع من الدواء الناجع، والاستشفاء النافع لكثير من عباد الله، لكن قد لا يَشفى بها بعض المرضى كما لا يشفى بغيرها من الأدوية الحسية، لحكمة يريدها الله تعالى.

فكم من مريض استشفى في عيادات ومشافٍ متعددة، وتناول عقاقير طبية حديثة كثيرة فلم يجد في ذلك العافية، والسبب أن الرقية وغيرها من الأدوية لا تشفي بذاتها، وإنما الشافي هو الله تعالى، فمتى ما أراد أنزل الشفاء، ومتى ما شاء أمهله أو منعه، وقد يشفى مريض بغير دواء، وقد يشفى بدواء معين يقدر الله له العافية به.

بل إن الواقع يشهد بأن هناك مرضى بذلوا ما استطاعوا من أموال وزاروا الأطباء والمستشفيات، واستعملوا أنواعًا من الأدوية الحديثة فلم يُشفَوا، فلما يأسوا من هذه السبيل لجأوا مضطرين إلى الرقية الشرعية فشفاهم الله تعالى بها؛ رحمة بهم.

أيها الفضلاء، إن المقارن بين الرقية الشرعية والعلاج بالأدوية الطبية الحديثة يجد تميز الرقية بعدة ميزات، **منها:**

أن لكثير من العقاقير الطبية أضراراً جانبية تصيب بعض أعضاء الجسم، وإن عالجت بعضها، وأما الرقية الشرعية فليس لها أعراض جانبية، فهي إذا لم تنجع في شفاء مريض فلن تضره.

ومن ميزات الرقية الشرعية: أنها سهلة التكلفة، إذ لا تكلف المريض وأهله مبالغ مالية كثيرة، بخلاف بعض الأدوية الطبية الحديثة.

ومن ميزات الرقية الشرعية: أنه يستطيعها كثير من المسلمين إذا توفرت فيهم شروط يسيرة، بخلاف الطب الحديث الذي لا يستطيع إتقانه إلا من درسه سنوات، ومارسه فمهر فيه.

وذِكْرُنا لهذه الميزات للرقية الشرعية لا يعني الاستغناء عن الطب الحديث، ولا تركَه والاكتفاء بالرقية الشرعية، فليس هذا ما نعنيه، وإنما نريد أن نقول: لابد علينا نحن المسلمين أن نستشفي بالرقية إلى جانب الاستشفاء بالعقاقير الطبية، خصوصًا في الأمراض التي يعجز عنها الطب الحسي؛ كالإصابة بالسحر أو العين أو المس بالجن. نسأل الله تعالى العافية للجميع.

أيها المسلمون، إن الله تعالى قد وصف القرآن الكريم بأنه شفاء، فتأملوا ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[يونس:٥٧]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[فصلت:٤٤]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسير هذه الآية الأخيرة أن شفاء القرآن عام من الأمراض الروحانية؛ كالاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، ومن الأمراض الجسمانية كالآلام والأدواء التي تعرض للجسم، فقراءته وسماعه والاستشفاء به يدفع كثيراً من الأمراض(١).

ومن السور التي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها رقية: فاتحة الكتاب؛

---

(١) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٢١/٢٩)، أضواء البيان (٣/١٨١)، التحرير والتنوير (١٤/١٥٠).

ولذلك كان من أسماء هذه السورة: الرقية والشفاء والشافية(١).

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رهطًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا في سفرة سافروها، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهطَ الذين قد نزلوا بكم؛ لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لُدغ فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهلْ عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لراقٍ، ولكنْ والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق فجعل يتفل ويقرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. فقام حتى لكأنما نَشِطَ من عقال -يعني: كأنما حل من حبل؛ لزوال مرضه سريعًا-، فانطلق يمشي ما به قَلَبَةٌ- أي: داء-، قال: فأوفَوْهم جُعلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له فقال: (وما يدريك أنها رقية؟ أصبتم)(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: " ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين، الذي فضله على كل كلام ... فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - ومجامعها، وهي: الله والرب والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية،

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٩١).

(٢) متفق عليه.

وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة، وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق، وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته، وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق، وانقسامهم إلى منعَم عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله، وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل...وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من الأدواء"(١).

ثم قال: "ولقد مر بي وقتٌ بمكة سقمتُ فيه، وفقدت الطبيبَ والدواء، فكنت أتعالج بها؛ آخذُ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليه مراراً، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع"(٢).

ومن السور الوارد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام كونُها رقية: المعوِّذات، وهي سورة الفلق، وسورة الناس، ومعهما سورة الإخلاص.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده؛ رجاء بركتها(٣).

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٦٢).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٦٤).

(٣) متفق عليه.

وعنها رضي الله عنها قالت: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحدٌ من أهله نفثَ عليه بالمعوذات "(١).

وعن ابن عابس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " يا ابن عابس، ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوِّذون؟ قال: بلى، يا رسول الله، قال: (قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس)(٢).

أيها الأحباب الكرام، ومن الرقية الشرعية: استعمال الأدعية التي رُقِي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رقى بها نفسه وغيره، أو أمر بها، فمن ذلك:

ما جاء عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: (باسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَرقِي بهذه الرقية يقول: (امسح الباس، رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت)(٤).

وعنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضًا أو أُتي به يقول: (أذهب الباس، رب الناس، اشفه أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما)(٥).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

وفي رواية للبخاري: (كان يعوِّذ بعضَ أهله يمسح بيده اليمنى ويقول...) ثم ذكر الدعاء الأول.

وعنها أيضًا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم بإصبعه هكذا وقال: (باسم الله، تربةُ أرضِنا، بريقة بعضنا، ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا)[(١)].

"**ومعنى الحديث:** أنه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب، فيَعلَق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع الجريحِ أو العليل، ويقول هذا الكلام في حال المسح".

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله، ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته، من شر ما أجد وأُحاذِر)[(٢)].

قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر بها أهلي وغيرهم.

أيها المسلمون، إن الأمراض التي يُرقى منها من أجل ذهابها والشفاء منها كثيرة، وهي إما أن تكون أمراضًا عضوية حسية تصيب بعض أعضاء الجسد بالألم أو التغير الوظيفي، فهذه الأمراض تستعمل لها العقاقير والأدوية الطبية المعروفة التي يحددها الأطباء المختصون، ويضاف إلى ذلك استعمال الرقية الشرعية لها؛ إذ الرقية نوع من الدواء للسقم الحسي أيضًا.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

فعن علي رضي الله عنه قال: لدغتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عقربٌ وهو يصلي، فلما فرغ قال: (لعن الله العقرب؛ لا تدع مصلياً ولا غيره) ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقرأ: "﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾"(١).

وإما أن تكون تلك الأمراض معنوية كالسحر والمس والعين، فالسحر يعالَج بالفاتحة والمعوذات، والآيات التي تتحدث عن السحر، وبالأدعية السابقة، وغير ذلك.

وأيضًا قد "رخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه"(٢).

وذكر بعضهم كذلك: "أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به؛ فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله"(٣).

وإن عُرِفَ مكانُ السحر فاستخرِج منه السحر ومُحي بالماء فذلك من أحسن الأدوية.

وأما إذا كان المرض مسًا بالجن فيرقى بما سبق، ويضاف إليه قراءة الآيات التي تتحدث عن عذاب الله تعالى لمن عصاه.

وأما إذا كان المرض هو الإصابةَ بالعين فقد حث رسول الله عليه الصلاة والسلام

---

(١) رواه الطبراني في الصغير، وإسناده حسن.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٢٨).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٦/ ٢٩٩).

على الاسترقاء منها؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسترقَى من العين"[١]. **وفي رواية:** أنه أمرها بذلك.

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعَة -أي: صفرة وشحوباً- فقال: (استرقوا لها؛ فإن بها النظرة)- أي: أصابتها العين-[٢].

ويُرقى من العين بقراءة الفاتحة والمعوذات وآية الكرسي، وغيرها من آيات القرآن، وبالأدعية السابقة، وتكون القراءة بصوت مسموع.

ويضاف إلى ذلك: أنه إذا عُرف العائن فإنه يؤمر بغسل وجهه ويديه، ومرفقيه، وركبتيه وأطراف رجليه، وداخل إزاره في إناء، ثم يصب ذلك الماء على المعيون من خلفه، على رأسه وظهره. وقد جاء هذا في قصة إصابة سهل بن حنيف -رضي الله عنه- بالعين[٣].

وفي الرقية على من سبق ذِكرُهم يستحب للراقي نفسِه أو غيره أنه إذا أكمل القراءة نفث في يده اليمنى ثم مسح بها موضع الألم.

نسأل الله العافية والسلامة للجميع من كل سقم وشر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الإمام أحمد والنسائي، وصححه ابن حبان.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن الرقية المشروعة لابد أن تخلو من الشرك بالله تعالى، وأن لا تكون على يد ساحر أو كاهن أو عرَّاف، وأن تكون باللسان العربي، أو بلغة يعرفها المريض، وبعبارات مفهومة، وأن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وبالأدعية التي فيها سؤال الله وحده الشفاءَ للمريض. فهذه هي شروط الرقية الشرعية.

واعلموا -معشر المؤمنين حفظنا الله وإياكم- أن الرقية السابقة لا ينتفع بها إلا من كان بها مصدقًا، وموقنًا بأن الشفاء بيد الله تعالى وحده، فلن تفيد الرقية الشرعية من شك بها أو سخر منها، أو استعملها للتجربة، أو كان بعيداً عن الصلاح والتقوى والتصديق بكتاب الله تعالى في شفائه للأمراض، أو تعلّق قلبه بشفاءٍ مِن عند غير الله.

ويستحسن أن يكون الراقي والمرقي على طهارة، وأن يكون هناك تدبر وحضور قلب من قبل الراقي والمرقي.

عباد الله، على المريض أن يحسن الظن بالله تعالى، ويعظم توكله عليه، ويتحلى بالصبر الجميل، وانتظار الشفاء من الله وحده. كما عليه الاستمرار في استخدام الرقية الشرعية، وعدم الاستحسار والملل منها لتأخر العافية؛ فقد يكون تأخر المرض ابتلاء من الله تعالى؛ ليعظم أجر المريض، ويكثر تكفير خطاياه، وليظهر عليه هل يثبت على الإيمان، أو يجزع فيذهب إلى السحرة والكهنة والمشعوذين.

ويستطيع المسلم المريض إذا كان من أهل الاستقامة أن يَرقي نفسه بنفسه، فليس

الشفاء متعلقًا براقٍ معين لا تكون العافية إلا على يديه.

وعلى من قدر على رقية أخيه المسلم أن يفعل ذلك؛ لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)(١).

ولكن ننبه الرُّقاةَ ببعض التنبيهات:

أولاً: أن يحذر الراقي الخلوة بالمرأة ومسِّها، إلا إذا كانت زوجة أو محرمًا له.

ثانيًا: أن يحذر الأساليب الخاطئة والمضرة بالمريض **وهي:** الخنق، والضرب المبرح، واستعمال الكهرباء، فإن هذه الأفعال أفعال غير صحيحة في الرقية.

ثالثًا: عدم تصديق الجني فيما يقول؛ لأنه مجهول العين والحال، فربما يزعم أنه مرسل من فلان، وغرضه بذلك بث الفتنة والصراع والشقاق بين الناس.

فيا عباد الله، داووا مرضاكم بالرقية الشرعية، ووثقوا الصلة بالله رب البرية، وسلوه العافية؛ فإن الشفاء بيده، وكل أمر مرجعه إليه، واستعملوا من الأودية الحسية المباحة ما تداوى به الأسقام، وإياكم واللجوء إلى التداوي بالحرام، أو الذهاب إلى الدجالين من الأنام.

نسأل الله رب الناس، أن يُذهِب الباسَ عن كل مريض مسلم، وأن يشفيه شفاءً لا يغادر سقما.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

---

(١) رواه مسلم.

فهرس المحتويات



النور السائر من خطب المنابر
تأليف الشيخ: عبدالله بن محمد بن عبدالله العواضي
غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing
النور السائر
من
خطب المنابر
المجموعة السادسة